الخالدون من أعلام الفكر

الجزء الشرقى

◆

أحمد الشنوانى

◆

الناشر
دار الكتاب العربي
دمشق - القاهرة



اسم الكتاب : الخالدون من أعلام الفكر

اسم المؤلف : أحمد الشنوانى

المراجعة اللغوية والتدقيق : طه عبدالرؤوف سعد

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية : ٢٠٠٦/٢٤٠٤٩

الترقيم الدولى : I.S.B.N. 977 - 376 - 261 - 2

تطلب كافة منشوراتنا :

حلب : دار الكتاب العربى ـ الجميلية أمام مسرح نقابة الفنانين ـ ت: ٢٢٥٦٨٧٠

دمشق : مكتبة رياض العلبى ـ خلف البريد ـ ت : ٢٢٣٦٧٢٨

مكتبة النورى ـ أمام البريد ت : ٢٢١٠٣١٤

مكتبة عالم المعرفة ـ جسر فيكتوريا ت : ٢٢٢٨٢٢٢

مكتبه الفتال ـ فرع أول ـ ت: ٢٤٥٦٧٨٦

فرع ثانى ـ ت : ٢٢٢٢٣٧٣

الطبعة الأولى

٢٠٠٧



E-mail:darkitab2003@yahoo.com

سوريا ـ دمشق ـ الحجاز ـ شارع مسلم البارودى هاتف: ٢٢٣٥٤٠١ ص. ب ٣٤٨٢٥ فاكس : ٢٢٤٧٢٩٧

مصر ـ القاهرة ـ ٥٢ شارع عبدالخالق ثروت ـ شقة ١١ تلفاكس : ٣٩١٦١٢٢

لبنان ـ تلفاكس : ٤٣٤١٨٦ / ٠٥ ـ تليفون : ٦٥٢٢٤١ / ٠٣ ـ ص. ب ٣٠٤٣ الشويفات

1

الخالدون من أعلام الفكر

الجزء الشرقى

المقدمة

مع إشراقة شمس كل يوم.. يولد ملايين الناس فى مختلف أنحاء العالم.. ويعيشون حياتهم.. ثم يمضون.. دون أن يحس بهم أحد، ودون أن يخلفوا وراءهم شيئا يَذْكُرهم به الناس، أو يتركوا أية "بصمة" أو علامة مميزة على وجه الحياة.. وبين الحين والآخر، يولد بعض الناس وهم على موعد مع القدر، ليكون مولدهم إيذاناً بفترة خصبة فى مسيرة البشرية.. حافلة بالخلق والإبداع والعطاء.. وتبقى ذكراهم بعد رحيلهم حية ماثلة فى أذهان الناس، وتبقى أعمالهم وإنجازاتهم خالدة على مَرِّ الأجيال.. تذكر الناس بهم، وتؤكد تفوقهم وتميزهم.

إن العظيم لا تنتهى حياته بموته.. ولا يُسْدَل الستار على مسيرته بمجرد أن يكف قلبه عن النبض والخفقان وتسكت أنفاسه، ولكنها تمتد فى ضمائر الناس جيلا بعد جيل، متمثلة فى عطائه وإنجازه المبدع الذى يحمل كل مقومات الخلود والبقاء.

هؤلاء العباقرة هم الذين كتبوا لأنفسهم الخلود، بما أبدعت أذهانهم، وجادت به قرائحهم، وبما خَلَّفوا من تراث رائع ونتاج عظيم، وفكر مؤثر فى مسيرة البشرية.

وتتجلى آية الله عز وجل، حين يهدى مسيرة البشرية بين الحين والحين رجلا فَذّاً، يملك من الطاقات والقوى الذهنية والنفسية والإرادية ما يستطيع به أن يدفع الحياة دفعة قوية الى الأمام، تزيدها عمقا وخصوبة وثراءً، وقد تمثل الرعيل الأول من هؤلاء الأفذاذ فى الأنبياء، الذين سعوا بين الناس برسالة الحب والخير والحق والأخاء.

ومرة أخرى لم تبخل السماء على الإنسانية بعطائها من أفذاذ الرجال، أصحاب العقول المتوهجة، والأذهان العبقرية، والإرادة النفاذة، والملكات الفذة، ليفجروا طاقات الإنسانية الكامنة، ويدفعوا بالركب الإنسانى خطوات جبارة على

طريق التقدم والرقى والازدهار. فتوالى بزوغ عباقرة ملهمين ومفكرون وفلاسفة يثرون الحياة الإنسانية بفكرهم الخصب لخدمة مسيرة ركب البشرية.

* * *

إن هذا الإنجاز الثقافى الذى تصدينا له.. والذى يعتبر الأول من نوعه فى تاريخ المكتبة العربية، هو ثمرة جهد استغرق قرابة خمس سنوات من القراءة والاطلاع والتحقيق والمراجعة.. فقد تطلب وضع مسيرة مائتين من إعلام الفكر الخالدين.. قراءة مئات الكتب والمراجع، واستخلاص الحقائق التى أجمع عليها المؤرخون والعلماء، وإجراء دراسات عميقة مقارنة لما كتب عن كل واحد من هؤلاء الأعلام، لكى نقدم لك- عزيزى القارئ- فى النهاية هذا الإنجاز الثقافى العملاق!

إنها رحلة طويلة خصبة مع مائتين من العلماء الخالدين من أعلام الفكر الإنسانى.. رحلة زاخرة بالثقافة والمتعة الذهنية، وبالعظمة والعبرة، تعيش خلالها مع أحلام هؤلاء الخالدين وتطلعاتهم، ومع آمالهم وآلامهم، ومع نجاحهم وفشلهم.. ومع مشاعرهم البشرية والإنسانية، ولحظات قوتهم وضعفهم، وتخرج منها بزاد موفور من المعرفة.. ورصيد خصب من التجارب الإنسانية التى تثرى الذهن وتلهم ممارستك للحياة..

إن الأعلام الذين تتناولهم هذه الموسوعة ليسوا بأى حال من الأحوال كل الأعلام الذين حفل بهم تاريخ الأدب والفكر العالمى والإنسانى، على أن المنهج الذى حاولنا اتباعه فى اختيار هؤلاء الرواد والأعلام من شعراء وروائيين ومسرحيين وضع فى اعتباره- ما أمكن - تغطية مراحل الأدب والفكر الإنسانى واستقراء صفات كل مرحلة من خلال استعراض المراحل اتى اجتازها كل أديب ومفكر ممن تناولنا حتى تبلورت معارفه، ورقت مداركه فخلصت له شخصية مستقلة فريدة، تخول لنا بحق أن نعده علما من أعلام الفكر العالمى والإنسانى.

فهذه موسوعة تضم دراسات موجزة تناولت مائتين من أعلام الفكر العالمى.. هذه المجموعة من المؤلفين فى جملتهم من أصحاب المكانة، وبعضهم ممن له الرياسة فى القصص أو المسرح او النقد أو الشعر، ثم هم فوق ذلك أنماط مختلفة

يكاد يستقل كل واحد منهم. بشخصيته وسماته ولونه وتركيب مزاجه وسائر شمائله وصفاته، فضلا عن منازع شعوره واتجاه تفكيره وأسلوب تعبيره..

ولكن.. أين حياة الكاتب والمفكر فى إنتاجه؟!

ذلك هو السؤال الذى كان يتردد على لسانى، وإنا أدرس كل شخصية من شخصيات هذه الموسوعة. ولقد كان أسهل هذه الدراسات ما وجدت مادة حياة صاحبها ميسرة قريبة المنال ولعل شخصيات كثيرة أجهدتنى فى البحث عن حياتها فيما كتبت ولعل شخصيات بارزة كبيرة الشأن والأثر، أجلت دراستها لأننى لم أستطع العثور على المادة التى تعطينى صورة الحياة فيها ولعل الكثير من المفكرين الأعلام حرصوا على أن يتجاهلوا مشاعرهم الخاصة فلا يبرزوها، وبذلك أعجزونا عن الوصول إلى معالم أنفسهم. وخفقات قلوبهم، ومظاهر حياتهم والأحداث الضخام التى أثرت فى ماضيهم أو حاضرهم..

حقا.. إن الكتابة عن النفس عن بعض المفكرين الأعلام وخاصة العقليين والعلماء ليست عيبا.. ولكن الترجمة الذاتية فن من فنون الكتابة أوغل فيه كثيرون .. وهى عندى عملية ضرورية لازمة لأنها ترسم التجربة التى يمر بها المفكر والأديب فى ميدان الحياة حين يصارع خصومه ويعلن رأيه ويواجه المعارضة. وقد صادفتنى هذه العقبة وأنا أعد موسوعتى عن حياة الأدباء والمفكرين ، ذلك أننى فى هذه الدراسة أنما كنت أحرص على أن ارسم صورة حياة لكل كاتب من هؤلاء تكشف عن طبيعته ونفسيته فهى مفتاح أدب وفكر هؤلاء الكُتاب، فليس من اليسير فهم روح إنتاج كل أديب ومفكر دون الإلمام بطرف من حياته يلقى الأضواء على التيارات المختلفة التى أحاطت بفنه وإنتاجه محاولا بقدر ما أستطيع أن أكشف عن معالم الحياة الخاصة وما اضطرم فيها من عواصف وأهواء.

وقد استعنت ما وسعنى ذلك بآثار هؤلاء الأعلام والمفكرين وما صوروا به حياتهم من صميم إنتاجهم نفسه فهو أصدق فى هذا الصدد من كل الأسانيد.

إن هؤلاء الأعلام والمفكرين الذين كانوا مصابيح على الطريق نادوا غفاة البشر ـ كما يقول عمر الخيام ـ وكان هدفهم إيقاظ الوعى الإنسانى.. من حقهم علينا

وقد بذلوا الكثير من ذوات أنفسهم لينيروا لنا الطريق لإقامة مجتمع إنسانى حر كريم، أن نحيى سيرتهم ونجدد ذكراهم ونبين مبادئهم، هذه المبادئ التى كانت لنا نورا يضىء حياتنا فى الحاضر والمستقبل.

ولتكن هذه الصفحات تحية وفاء لهؤلاء الأعلام الخالدين الذين اتسمت حياتهم بالأريحية الإنسانية، وتأرجت أفكارهم بالحب الكريم، وأى حب فى الدنيا أنبل وأكرم من حب المثل العليا..

وأسال الله أن يجعل أعمالنا كلها خالصة لوجهه الكريم خالصة من العجب والرياء والحمد لله أولا وآخرا.. ومنه أستمد العون والسداد.

أحمد الشنوانى

ابن الأثير. عز الدين

١١٦٠ ـ ١٢٣٤م

أكبر المؤرخين العرب

من صفحات التاريخ العربى الزاخر بالمفاخر والأمجاد، نقف فى إجلال وتقدير أمام سيرة مؤرخ عربى عظيم، وعالم ترك آثاراً خالدة.. تزهو بها المكتبة العربية، واعتبره الجميع أشهر من ظفر من المؤرخين المسلمين فى القرون الهجرية السبعة الأولى.. إنه عز الدين أبو الحسن على بن محمد بن عبد الكريم عبد الواحد الشيبانى، المعروف باسم «ابن الأثير الجزرى».

ولد عز الدين بن الأثير، بجزيرة ابن عمر ناحية الموصل بالعراق عام ٥٥٥هـ الموافق عام ١١٦٠م، فى أسرة من الأسر العريقة بالموصل، تنتسب إلى شيبان، التى تمتد فى نسبها إلى بنى بكر بن وائل العربية، وفى الموصل كان بيت والد ابن الأثير أشبه بالمنتدى الذى يلتقى فيه كبار رجال المدينة من الأصدقاء والعلماء والأدباء وكبار الموظفين.

وكان ابن الأثير يحضر مجالس أبيه، ويستمع إليه مبهوراً وهو يتحدث عن ذكرياته عن ملوك الموصل الأوائل، وتواريخهم، وأعمالهم العامة، ومسار حياتهم الخاصة، وكان ابن الأثير يستمع إلى ما يدور فى مجالس أبيه، ويتشرب كل ما تلتقطه أذنه من معلومات ومعارف، ثم ينصرف بعد ذلك ليدونها فى أوراقه حتى لا ينساها، وهكذا بدأت لديه بذرة المؤرخ العالم.

عاش ابن الأثير فترة تمتد إلى ثلاثة أرباع القرن، عاصر فيها الأحداث الهامة

التى جرت فى العالم الإسلامى، مشرقه ومغربه. فى المشرق الإسلامى كانت الصراعات على أشدها، بين الشعوب المختلفة التى تعيش فى أقاليمه، كالسلاجقة، والخوارزميين، والغور، والكرج، وقد بدأت هذه الصراعات قبل مولد ابن الأثير بفترة، ثم استمرت طوال حياته.

ومن الأحداث الهامة التى عاشها ابن الأثير، وكان فى وسط دوامتها، سقوط الدولة الزنكية، التى أسسها عماد الدين زنكى عام ١١٢٧م، وقد قضى ابن الأثير طفولته وصباه فى الجزيرة، كما يقضيها أبناء الأسر البارزة هناك، وأتاح والده له ولإخوته حياة سهلة ميسورة، كما أتاح لهم فرص التعليم. وعندما انتهى ابن الأثير من دراسته الأولى، التحق بمدرسة من مدارس جزيرة ابن عمر، ثم انتقل إلى الموصل، يحصل العلم على يد شيوخها.

وظل ابن الأثير يتردد بين الجزيرة والموصل، حتى استقر فى نهاية الأمر بالموصل، فأقام بها إقامة دائمة. كانت الموصل فى ذلك الوقت تجمع العديد من الأسر العلمية الشهيرة، فى كل أسرة منها شيوخ علماء يتخصصون فى مختلف فروع العلم، من فقه، وحديث، وتفسير، وأدب، ورياضيات، وإلى جانب هؤلاء الشيوخ والمعلمين، كانت هناك المعاهد العلمية التى أنشأها ملوك بنى زنكى فى الموصل. ولم تقتصر دراسة ابن الأثير على ما وجده من مصادر المعرفة فى الموصل، بل كان ينتهز فرصة خروجه إلى الحج، ليجتمع بشيوخ بغداد، ويستمع منهم، ويحفظ عنهم، ويسجل ما أفاده من معلومات ومعارف تفيده فى دراسته، كذلك كان يسعى إلى الشام ليجتمع بشيوخها وعلمائها.

وهكذا استطاع ابن الأثير أن يستوعب الكثير من المعارف فى مختلف الفروع، فدرس الحساب، واللغة، والحديث، ثم غيرها من العلوم، كالأصول، والفرائض (علم المواريث)، والمنطق، ومع هذا التنوع فى العلوم التى درسها «ابن الأثير» كان يهتم بنوعين من الثقافة.. الثقافة الدينية، واختار منها علم الحديث، ثم الثقافة الأدبية، واختار منها التاريخ، وتخصص فيه، ومع مضى ابن الأثير فى دراسته، أحس بانجذاب أكثر إلى علم التاريخ.

ودخل ابن الأثير طور الرجولة، واستطاع أن يبنى لنفسه مكانة علمية

واجتماعية متميزة بين معاصريه، وقد انصب اهتمام ابن الأثير الأكبر فى حديثه مع زوار الموصل من الشخصيات التى استضافها فى ندوته على أحوال البلاد وأخبارها، وكان يعتمد عليهم كمصادر هامة لأخبار بلادهم، ويستخلص منهم تفاصيل ما يجرى وما يحدث، ويضاهى ويقارن بين مختلف الأقوال، ليخرج فى النهاية بالحقيقة الثابتة.

وفى الشام، كان لابن الأثير نفس المكانة التى حظى بها فى الموصل، فقد تردد عليها أكثر من مرة منذ عام ٥٨٤هـ، وحتى عام ٦٢٨هـ، وكان سفره إلى الشام على أيام الأيوبيين، وكان ابن الأثير ينتهز فرصة وجوده فى الشام أيام صلاح الدين الأيوبى، ليخرج معه فى غزواته، لا كمحارب، وإنما كمشاهد ومراقب، وقد أفادته رفقته لصلاح الدين، فيسرت له وصف المعارك كما شاهدها، وهكذا دونها فى مرجعه التاريخى المعروف «الكامل فى التاريخ» ولقد انفرد «ابن الأثير» كمؤرخ بمعاصرته لحدثين خطيرين حدثا فى المنطقة التى يعيش فيها والمناطق المجاورة لها، هما الحروب الصليبية والغزو التترى.

ورغم أنه قد ظهر قبل ابن الأثير العديد من المؤرخين الذين تناولوا الحروب الصليبية فى كتاباتهم، إلا أن ابن الأثير يعتبر المؤرخ الجامع للحروب الصليبية.

لم يعاصر ابن الأثير الغارة الصيليبية منذ بدايتها، وإنما عاصرها بعد خمسة وستين سنة من استقرار الصليبيين فى الشام، وقد استعان ابن الأثير فى تاريخ الفترة التى لم يعاصرها بالمصادر السابقة، ثم اعتمد فيما عدا ذلك على مشاهداته، وعلى أسفاره وعلى معاصريه فى الشام.

أما الغزو التتارى فقد عاصره ابن الأثير منذ بدايته عام ٦١٦هـ، وقد توفى ابن الأثير ومازال التتار يحاربون البلاد الإسلامية، يستولون على بعضها، ويدمرون البعض الآخر، حتى سقطت بغداد فى أيديهم عام ٦٥٦هـ، فكان فى ذلك القضاء على الخلافة العباسية، وتسجيل ابن الأثير لتاريخ الغزو التترى لا يقل روعة عن تسجيله لتاريخ الحروب الصليبية، وقد بلغت دقة هذا التسجيل حدا أثار إعجاب معاصريه من المؤرخين، وقد كان ذلك الغزو صدمة عنيفة لابن الأثير، بما رآه من الفظائع التى اقترفها التتار من قتل وتخريب وتدمير ونهب. وقد أسمى غزوة التتار

فى كتاباته «الحادثة العظمى والمصيبة الكبرى».

إن ابن الأثير بتخصصه فى التاريخ، ليس مؤرخاً فحسب كغيره من المؤرخين، ولكنه عالم فى التاريخ، فهو يمتاز بميزة لا نجدها إلا فى قلة من المؤرخين الأصلاء السابقين عليه واللاحقين له، وهى أنه لم يكن مجرد مسجل أخبار وأحداث، وإنما كان ناقداً ممتازاً، نقد أصحاب مصادره، وناقش كثيراً من أخبارهم، ونقد الشخصيات البارزة التى وردت فى الأخبار، وانفعل مع الأحداث الهامة الخطيرة، وقد قدم لنا ابن الأثير بنفسه مفهومه للتاريخ فى مقدمة كتابه «الكامل فى التاريخ»، وذلك فى رده على المنكرين لفائدة التاريخ والطاعنين فيه.

وقد أدى تفكير ابن الأثير التاريخى الواعى إلى تفهمه للأحداث وتعليلها ونقدها والتعليق عليها، وهو فى كتاباته لا يكتفى بالنقد التاريخى، بل يتجاوزه إلى النقد السياسى والحربى، ومن مآثر ابن الأثير التاريخية حيدته فى رواية الأحداث، حتى التى له صلة وثيقة بأصحابها، ولابن الأثير خصائص مميزة تبرزه كمؤرخ عظيم، منها اختياره لمصادره، فقد كان يتخير المصدر الموثوق فيه.

ومؤلفات ابن الأثير المعروفة كلها فى التاريخ، وهى «الكامل فى التاريخ» و«التاريخ الباهر» و«أُسّد الغابة فى معرفة الصحابة» وأخيراً «اللباب فى تهذيب الأنساب» وهذه الكتب الأربعة تستوعب الأنواع الأربعة للكفاية التاريخية المعروفة قبل عصره، التاريخ العام يمثله كتاب «الكامل فى التاريخ» وتاريخ الدول والأسر يمثله كتاب «التاريخ الباهر» والتراجم الشخصية يمثلها كتاب «أُسّد الغابة» وتاريخ الأنساب يمثله كتاب «اللباب فى تهذيب الأنساب».



ابن بطوطة

١٣٠٤ ـ ١٣٧٨م

سيد الرحالة غير منازع

ابن بطوطة سيد الرحالة فى القرن الرابع عشر - الثامن الهجرى - غير منازع. فقد سلخ من عمره ثمانية وعشرين عاماً يتنقل فى أجزاء العالم المعروف فى أيامه. بدأ من طنجة، واجتاز شمال أفريقيا إلى مصر وديار الشام، وأدى فريضة الحج، ثم ساح فى فارس وبلاد العرب، وزار شرق أفريقيا، ودخل القرم وحوض الفولجا الأدنى، وعرج إلى القسطنطينية.. وتاقت نفسه بعد ذلك إلى التشريق فاتجه نحو خوارزم وبخارى وكردستان وأفغانستان والهند، حيث خدم ملك دلهى ثمانى سنوات، ثم زار جزر الملديف وبعض جزر الهند الشرقية والصين وعاد إلى طنجة. لكن حنينه إلى الأسفار عاوده فرحل رحلتين قصيرتين الأولى إلى الأندلس والأخرى إلى السودان.

وقد قدرت المسافة التى اجتازها ابن بطوطة فى أسفاره بنحو ١٢٠٠٠٠ من الكيلو مترات. وإذا ذكرنا وسائل النقل والمواصلات التى كان عليه أن يلجأ إليها آنذاك، أكبرنا فيه هذه الهمة.

ومن العجيب أن يكون ابن بطوطة هو شيخ الجوابين ثم تخلو المصادر الأصلية من ذكره، فلا نجد له فى كتب التراجم سيرة، ولا يتحدث عنه معاصروه إلا بما لا يروى غلة كما فعل «ابن خلدون»، وهو من المؤلفين العرب القلائل الذين ذكروا اسم ابن بطوطة مع أنه قد التقى به وسمع بأخبار رحلاته. ويحاول الباحث أن يترجم للرجل ترجمة تليق به فلا يجد تحت يده من مصادر سوى رحلته، وهى وحدها لا تكفى لكتابة سيرة وتصنيف تاريخ.

ورحالتنا هو محمد بن عبد الله بن إبراهيم، اللواتى (قبيلة)، الطنجى مولدا. وكنيته أبو عبد الله، ولقبه شمس الدين، واشتهر بابن بطوطة، وقبيلة لواته التى ينتمى إليها قبيلة بربرية كبيرة تعرف فى لسان البربر باسم «ايلواتن»، وكانت بطونها تنتشر على طول الساحل الأفريقى من المحيط إلى ليبيا. وكان مولد أبى عبد الله فى مدينة طنجة ثغر المغرب على مدخل بحر الروم فى يوم الاثنين السابع عشر من رجب سنة ثلاث وسبعمائة (٢٤ فبراير سنة ١٣٠٤م) هكذا حَّدث هو عن نفسه كاتب رحلته ابن جزى يوم التقى به فى مدينة غرناطة قبل أن يملى عليه رحلته بسنوات.

ولا نعرف شيئاً عن طفولة الرجل وصباه، ولا علم لنا بسيرة حياته إلا فى حدود ما يمكن أن نستخلصه من إشارات عابرات ترد على لسانه وهو يروى قصة رحلاته، ولكن يبدو أنه كان عالماً وفقيهاً وهو ما ينتظر من رجل ولد فى أسرة عرف عنها الاشتغال بالعلم، ثم يؤكده أن يعرف الحجاج له فضله فيقدمونه عليهم قاضياً وهو فى تونس، ثم يعمل بعد ذلك فى القضاء فى جزائر «ذيبة المهل» التى نعرفها فى وقتنا الحاضر باسم جزائر «ملديف» وأغلب الظن أنه كان على مذهب مالك فهو المذهب الذى ساد فى المغرب العربى خلال العصور.

وابن بطوطة متعصب لوطنه الصغير، وكان المنتظر من رجل قضى أطيب سنى العمر متنقلاً من بلد إلى بلد أن تكون الدنيا كلها وطنه، ولا ندرى هل كان الرجل يؤمن حقيقة بما يقول، أم أنه أراد أن يداهن السلطان فراح يقص على مسامعه أن بلاده «الشريفة» هى أحسن البلدان، «لأن الفواكه بها متيسرة والمياه والأقوات غير متعذرة».

وأغلب الظن أن ابن بطوطة لم يكن من أصحاب الأقلام، فهو لم يترك أى إنتاج أدبى، ولم يرد فى رحلته أو غيرها من المصادر أى ذكر لمؤلفات منسوبة إليه، ولكنه حاول أن ينظم الشعر وما كنا لنعرف ذلك لولا أن أشار إليه هو نفسه.

ولو كان ابن بطوطة من الأدباء لكتب على الأقل مذكرات منظمة عن رحلته، ولما أمر السلطان أبو عنان المرينى كاتبه محمد بن جزى الكلبى أن يكتب ما يمليه عليه الشيخ ابن بطوطة من عجائب رحلته، بل كان الأقرب إلى المنطق أن يكلفه هو بكتابتها.

لقد طوف ابن بطوطة بكل أرجاء العالم الإسلامى فى أفريقيا وآسيا وأوروبا، وتعداه إلى غيره من بلاد المسيحيين والوثنيين فزار بلاد الروم والصين والهند وسيلان حتى أصبح كما وصفه ابن جزى «رحال العصر ومن قال رحال هذه الملة، لم يبعد».

وكان لا يزال فى تجواله حين جاءه فى مدينة «تكدا» أكبر مدن الطوارق فى السودان الغربى، كتاب من السلطان أبى عنان يأمره بالوصول إلى حضرته العلية، فامتثل للأمر، وخرج من تكدا يوم الخميس الحادى عشر لشعبان سنة أربع وخمسين وسبعمائة (١١ سبتمبر سنة ١٣٥٣م) فوصل فارس فى أواخر ذى الحجة (يناير ١٣٥٤م). وكان قد نوف على الحادية والخمسين من العمر، وبقى بها حتى اختاره الله إلى جواره فى سنة ٧٧٩هـ (١٣٧٨م) وله من العمر نحو ٧٤ سنة.

وكما أغفل التاريخ اسم ابن بطوطة الشاب، فقد تجاهل كذلك ذكر ابن بطوطة الشيخ، وتركنا لا نعرف من أمره فى السنوات الثلاث والعشرين التى قضاها مستقرّاً فى فارس، إلا أن أقام فى حاشية السلطان «فغمره من إحسانه الجزيل، وامتنانه الحفى الحفيل، ما أنساه الماضى بالحال، وأغناه عن طول الترحال».

بيد أننا يجب أن نعترف بأن كاتب رحلة ابن بطوطة محمد بن جزى الكلبى قد بذل غالية الجهد فى أن يخلق من أخبار ابن بطوطة عملاً فنياً متماسكاً، ولا شك أنه لقى فى ذلك كثيراً من العناء، فابن بطوطة لم يكن جغرافياً يهتم بالمكان اهتمامه بمقابلة الأشخاص والتحدث عنهم، وهو لم يدون مذكرات عن أسفاره أو لعله دون شيئاً وضاع. فكان كل اعتماده فى إملاء أخبار رحلته على ما وعته ذاكرته، وعسير، مهما كان المرء من قوة الذاكرة، أن يروى التفاصيل الكاملة لأحداث ربع قرن. ولهذا كانت أخبار الرجل قصصاً متفرقات. ولما كان ابن جزى لا يعرف شيئاً من أمر البلاد التى تحدث عنها ابن بطوطة فليس غريباً أن يقع فى أخطاء وهو يحاول أن ينسج من أخبار محدثه قصة متكاملة البناء. وماذا يصنع ابن جزى وقد قطع صاحبه على نفسه عهداً بألا يسلك طريقاً ما أكثر من مرة، فكثرت أسماء الأماكن التى يذكرها واختلطت عليه مواقعها والمسافات التى تفصل بينها؟! وماذا يصنع ابن جزى وصاحبه رجل يستمع إلى القصص التى يرويها المترجمون المحليون

فيصدقها دون تحقيق أو تمحيص؟؟

ومهما يكن من أمر، فقد كان هذا الاضطراب سبباً فى توجيه النقد إلى بعض أجزاء الرحلة، وبخاصة ما يتعلق منها بوصفه للقسطنطينية وبزيارته للصين، وهو فى الأولى أخف وأيسر فمعظمه ينصب على اضطراب التواريخ، غير أن هناك إجماعاً على أن الرجل قد وصف المدينة وصف شاهد عيان قوى الملاحظة، ولكنه فى الأخرى أدهى وأمر حتى إن البعض لينكر أن يكون ابن بطوطة قد زار الصين أصلاً، ومن هؤلاء شيفير وفيران ويول، وعندهم أن ما ذكره عن هذه البلاد إنما من قبيل التلفيق، وهو زعم فيه كثير من التحامل.. حقاً إن وصف الرجل المفصل للصين فيه كثير من النقاط الغامضة، ولكن هذا لا يقوم دليلاً على أن ما ذكره الرجل عن الصين إنما هو من نسج الخيال، ففيه فقرات معينة لا يمكن أن تصدر إلا عن معاينة مباشرة، وكثير من أحاديثه تؤكده المصادر الصينية فيما يروى البحاثة اليابانى ياماموتو وتؤيده رحلة ماركو بولو الذى زار الصين من قبله ومكث فيها زهاء سبعة عشر عاماً، ومات قبل أن يبدأ ابن بطوطة رحلته بعام واحد.



ابن جبير

١١٤٥ ـ ١٢١٧م

الأديب الذى خلفت رحلاته أدباً رائعاً أفاد منه التاريخ الإنسانى

لقد عظم أدب الرحلة، واشتد ساعده فى القرن السادس للهجرة (الثانى عشر للميلاد) بفضل الإدريسى وابن جبير والهروىّ، إذ خلفوا لنا أدباً رائعاً أفاد منه التاريخ فائدة عظيمة. ومن أعظم هؤلاء الرحالة أثراً فى أدب الرحلة هو «ابن جبير»، الذى نعرض له فى هذه الصفحات لنرسم خطوطاً من حياته وسطوراً من رحلته.

دخل جدّه الأعلى «عبد السلام بن جبير» الأندلس سنة ١٢٣هـ وهو من كنانة ابن مدركة، وسكن أحفادُه بعده بالأندلس وتفرّقوا فى مدنها، فسكن أبو جعفر أحمد بن جبير «بلنسية» وهى إحدى العواصم العربية الكبيرة فى تلك البلاد تقع على أربع كيلو مترات من البحر، فى شرق الأندلس، يخطها نهر «وادى الأبيار» ـ وهو كبير تمخره السفن ـ وتملأ جنباتها الرياضُ والحدائق، ففى كل بقعة سحر وجمال. وثمارُها وفواكهها تنتشر فى كلّ حديقة، وهى منذ خيم الإسلام بعقرتها دارُ علم وتفكير، ومعقل عروبة وموطن بحث ودراسة.

وفى هذه المدينة الجميلة ولد لأبى جعفر غلام سمّاه «محمداً» وكناه «أبا الحسن»، ليلة السبت لعشر خلون من ربيع الأول سنة ٥٤٠ هـ، وترعرع الصبىّ فأخذ عن أبيه، وكان أبوه من كتّاب البلد، فنشأ على طريقته فى الأدب والعلم والفقه، ثم تنقل الصبى فى مدن الأندلس والمغرب، فروى عن ابن أبى العيش وابن الأصيلى وأخذَ العربيةَ عن الحجّاج بن يسعون فى مدينة «سبتة» وعُنى بالأدب،

فدخل فى صناعة النثر وفى نظم القريض، ونال بهما دنيا عريضة ومالاً كثيراً، ولكنه رفض ذلك وزهد فيه، كما قال المؤرخون. وقد انتقل أبوه إلى «شاطبة» فأصبح من كتابها ورؤسائها والمقدَّمين فيها.

وانتقل «محمد بن جبير» إلى غرناطة وسكن فيها، وهى مدينة ساحرة جميلة بوديانها وبيوتها وهضبتها العظيمة، وقصورها السامقة، وأبراجها العالية، ولبث فى هذه المدينة يكتبُ ويدرسُ، حتى دخلَ فى خدمة صاحب «غرناطة» أبى سعيد بن عبد المؤمن. ورحل عنه لحادثة غريبة يسوقها «المقَّرىّ» صاحبُ «نفح الطيب» خلاصتها أن صاحب غرناطة استدعاه ليكتب عنه كتاباً وهو على شرابه، فمدّ إليه يده بكأس فأظهر ابنُ جبير الانقباضَ وقال: يا سيدى ما شربتها قطّ، فقال: والله لتشربنّ منها سبعاً، فلما رأى العزيمةَ شرب سبعَ كؤوس، فملأ له السيد الكأس من دنانير سبع مرات وصبها فى حجره، فحملها إلى منزله، وأضمر أن يجعل كفارة شُربه الحجّ بتلك الدنانير. ثم رغب إلى السيد، وأعلمه أنه حلف بأيمان لا خروج له عنها أنه يحج فى تلك السنة، فأسعفه وباع ملكاً له تزوَّد به.

وسواء أصدقت الرواية أم كانت مخترعة، فهى تدل على زهد الرجل وتدينه ورصانته ومكانته فى قومه وموضعه من السلطان، وهو فى هذه السن.

وفصل ابن جبير عن «غرناطة» أول ساعة من يوم الخميس لثمان خلون من شوّال سنة ثمان وسبعين وخمسمائة، وهو فى الثامنة والثلاثين من عمره، وسافر معه أبو جعفر بن حسان وكان من رجال الطب والعلم والأدب. وعبر الرجلان البحر إلى «سبتة» بالشاطئ المغربى، ووجدا عنده سفينة من سفن مدينة «جنوة» تريد الإقلاع إلى «الإسكندرية»، فركبا فيها يوم الخميس ٢٩ شوال، وأقلعت السفينة من الثغر المراكشى قبالة «جبل طارق»، وسارت إلى شاطئ الأندلس ثم اتجهت إلى جزر «الباليار» وكان الفصل فى الخريف شديد الأنواء، فتمايلت السفينة، وعبث بها الموج، وحلّ بالركاب الفزع، ولكنّ الله سلم فبلغت جزيرة «ساردينيا» فنزل بها المسافرون وجددوا الحطب والزادَ والماء، وأقلعت بعد ذلك إلى جزيرة «صقلية» وكانت عواصف شديدة كذلك وأهوال عظيمة، وصفها ابن جبير، فقد كان يسجل يوماً فيوماً ما يقع له خلال السفر وما يشاهده أثناء ذلك على عادة أرقى الكُتاب والمؤلفين.

وفارقت السفينة «صقلية» فبلغت ثغر الإسكندرية يوم ٢٩ ذى القعدة، فاستغرقت الرحلة من «سبتة»، إلى الثغر المصرى شهراً كاملاً، رسمه ابن جبير رسماً ممتعاً من أجمل ما خلف أدب الرحلة فى وصف ما يحلّ بالمسافر من جزع وفرح ولذة وانقباض.

وحين نزل المسافرون إلى الإسكندرية، وصف ابن جبير ما كان من عمل السلطات المصرية فى تفتيش الركاب قبل ثمانية قرون.

فى كلام جميل ودقة فى التعبير، يصف الإجراءات الرسمية ـ كما نقول اليوم ـ فى إحصاء المال الذى يحمله المسافر والسؤال عن أحوال الركاب من النواحى المختلفة، كما تصنع الجمارك اليوم، لم يتبدّل الحال ولم تتغير الطريقة.

وينزل ابنُ جبير ورفيقه إلى الإسكندرية، ويطوفان فيها، فيصف رحالتنا آثارها ويذكر بعض أخبارها، ويستعرض المدارس والمساجد والمنارات، ويصف مشاهداته بنفسه، ويقول بعد ذلك:

«ومن أشرف هذه المقاصد أيضاً أن السلطان عيَّن لأبناء السبيل من المغاربة خبزتين لكل إنسان فى كلّ يوم بالغاً ما بلغوا، ونصَب لتفريق ذلك كل يوم إنساناً أميناً من قِبله، فقد ينتهى فى اليوم إلى ألفىْ خبزة أو أزيد بحسب القلة والكثرة».

وعرض ابنُ جبير لوصف الحالة العامة خلال حكم صلاح الدين فرأى أن أهل البلد فى نهاية من الترفيه واتساع الأحوال لا يلزمهم وظيف البتة . وهى ملاحظة دقيقة تدلُّ على عمق فى الفهم واتصال بالحياة الاجتماعية واهتمام بالشعب، وسؤاله عن أحواله. ورحل ابنُ جبير إلى القاهرة فوصف الآثار فيها والمشاهدَ المباركة، ودخل المساجد ورسم الورعَ والتقى والزهدَ، ورسم مشاهد أهل البيت، والأئمة العلماء الزهاد، كما عرض للمدارس والمستشفيات والأبنية والجزر والخلجان، وحال النيل والقناطر حوله، وصعد فى النيل إلى «قوص» ووصف المعابد، وطاف فى مدن الإقليم، وذكر الأيام والأشهر لارتحاله وسفره وعودته، وأثبت حال الأنواء والطقس، والشمس والقمر، وسجّل الأشهر العربية والغربية معاً.

وغادر ابنُ جبير مصر، قاصداً إلى الحج، فركب البحرَ، ووصف منه ما لم

يوصف قبله واصف فى مثل جماله وأسلوبه دقة وصدقاً، فقد استغرق سفر البحر ثمانية أيام وصف الأهوال التى عاناها من ضعف عدّة المركب واختلالها.

وأعظم ما فى هذه الحالة وصف ابن جبير لديار الحج ومناسكه، فقد أوغل فى التفصيل الجميل ورسم كلّ ما رأى، فهو يعرف أنه لهذا جاء، وأن أهله بالمغرب يتشوّقون إلى معرفة الديار ورسمها، ويتوقون إلى زيارتها، وتقصر أيدى الكثيرين منهم عن بلوغها، فكان من صفحاته فى الحديث عنها تاريخ مفصّل لأيام فى حال البلاد والأماكن والآثار والطرق، والشعب وحياته الاجتماعية، والأمراء وصلاح الدين الأيوبى، والعلماء ومجالسهم، والدروس وموضوعاتها.

وغادر ابن جبير مكة المكرّمة إلى «العراق» ضحوة يوم السبت الثامن من المحرّم، والحادى والعشرين من شهر أبريل، وذلك لأنه أقسم ألا يركب البحر الأحمر الملعون ثانية لشدّة ما لاقى من أهوال ومصائب، فآثر أن يعود عن طريق العراق فالشام.

ووصل «بغداد» ووصف أحياءها ومساجدها وأسواقها وحماماتها ومدارسها ومستشفياتها، وهاله من أهلها شدّة الرياء والعجب والكبرياء وقسا بذلك عليهم قسوة لا تبرّرها إلا ظروفه الخاصة، وشدّة تعبه. وزار تكريت والموصل، وانتقل منها إلى أرض الجزيرة الشامية، فدخل مدينة «رأس العين» فى الشمال من سوريا.

ودخل مدينة دمشق فقال:

«جنة المشرق ومطلع حسنه المونق المشرق، وهى خاتمة بلاد الإسلام التى استقريناها، وعروس المدن التى اجتليناها، قد تحلت بأزاهير الرياحين، وتجلت فى حلل سندسية من البساتين، وحلت من موضوع الحسن بالمكان المكين. وتزينت فى منصّتها أجملَ تزيين. وتشرفت بأن آوى الله تعالى المسيحَ وأمه - صلى الله عليهما - منها إلى ربوة ذات قرار ومعين، ظلّ ظليل وماء سلسبيل، تنساب مذائبه انسيابَ الأراقم بكلّ سبيل، ورياض يحيى النفوس نسيمها العليل، تتبرج لناظريها بمجتلى صقيل، وتناديهم هلموا إلى معرّس للحسن ومقيل، قد سئمت أرضها كثرةَ الماء حتى اشتاقت إلى الظماء، فتكاد تناديك بها الصمّ الصلاب، اركض برجلك هذا مغتسلٌ

بارد وشراب، قد أحدقت البساتينُ بها إحداقَ الهالة بالقمر، واكتنفتها اكتنافَ الكمامة للزهر. وامتدت بشرقيها غوطتها الخضراء امتدادَ البصر، فكلّ موضع لحظته بجهاتها الأربع نضرتها اليانعة قيد النظر، ولله صدق القائلين عنها إنْ كانت الجنةُ فى الأرض فدمشق لا شك فيها، وإنْ كانت فى السماء فهى بحيث تسامتها وتحاذيها».

وهذا رسمٌ بديعٌ يزينه السجع والإشارةُ اللطيفة والاقتباس الجميل وهو إنشاء ذلك العصر فى الأندلس وغير الأندلس.

وهكذا يُعجب ابنُ جبير بهذه الربوع الجميلة، ويفضّلها على بلاده فى القرن السادس، ويصفها وصفَ مخلص فى حبه، فينصح لأبناء المغرب أن يردوا مناهلَ المشرق وأن يعبوا منه وينهلوا، فتكون الوحدة العربية الكبرى، وينهض العرب بجملتهم، ويحلق النسر الجبار بجناحيه من مشرق ومغرب؛ ويعود إلى السماء العالية من حضارته، ويحتلّ مكانه فى العلم والأدب والثقافة. ولعل من أسباب الإعجاب الذى أبداه ابنُ جبير نظام الحكم وقوة السلطان، بفضل صلاح الدين الأيوبى الذى كان يضع أسس الوحدة للعرب منذ ذلك الحين، ويقف للاستعمار وقفة الأسد المناضل، معتمداً على الشعب، سائراً به نحو الحضارة والكمال.

وترك ابن جبير دمشق إلى «عكا» فقال: «ليلة الأحد التاسع من شهر سبتمبر العجمى ونحن بدمشق حرسها الله على قدم الرحلة إلى عكة فتحها الله، والتماس ركوب البحر مع تجار النصارى وفى مراكبهم المعدّة لسفر الخريف المعروف عندهم بالصليبية».

وركب الرجلُ فى أوائل شهر أكتوبر سنة ٥٨٠ (١١٨٤ م) المركب المنتظر بمرسى عكا، وفى الثامن عشر منه أقلع المركب وسار يتهادى فى انتظار الريح، يرفع شراعاً ويُنزل شراعاً، واستغرقت الرحلة إلى «مسينا» حوالى الشهرين، دخل المسافرون فيها أخطاراً وأهوالاً، وصف ابن جبير خلالها ما وقع من رعب وفزع، وصوّر البحر تصوير كاتب كبير، وذكر آلات الملاحة وتسيير المراكب وصفاً بليغاً بديعاً، فكان كراكب العود فى خضمّ الزعازع يعيش بين الأمل واليأس وبين القنوط والرجاء.

وأقلع الرحالة من «صقلية» على ظهر «مركب جنوى» حمله إلى قرطاجنة فمرسيليا ثم «لورقة» وذلك فى منتصف المحرم من سنة ٥٨١، فاستغرقت هذه الرحلة سنتين وثلاثة أشهر ونصفاً، رسمها يوماً بعد يوم فى كتابه: «تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار» وعرف بعد ذلك برحلة ابن جبير اختصاراً فى الاسم والعنوان.

ورحل ابنُ جبير ثانية إلى الشرق بعد أربع سنوات سنة ٥٨٥هـ وقد جاوز الخامسة والأربعين، حين عرف بأن صلاح الدين استولى على بيت المقدس سنة ٥٨٣هـ، ولما عاد من هذه الرحلة سكن بغرناطة ثم مالقة، ثم سبتة ثم فاس، منقطعاً إلى إسماع الحديث والتصوّف وتروية ما عنده، خلال عشرين سنة أو تزيد.

وخلال هذه الفترة، ماتت زوجته «عاتكة أم المجد بنت الوزير أبى جعفر الوقّشى» بمدينة «سبتة» وكان كلفه بها جمّاً فعظم وجده عليها، وأنشد فيها من الأشعار ما ملأ جزءاً سمّاه «نتيجة وجد الجوانح فى تأبين القرين الصالح» وهو فيما يذكره المؤرخون جملة مراث فى زوجه.

ومهما يكن من أمر فقد اشتدّ جزع الرجل وحزنه، فشد الرّحال إلى الشرق لينسى ويتعزّى وكانت رحلته إلى مكة ثم القدس ثم الإسكندرية وفيها وافته منيته وهو فى الرابع والسبعين من العمر، يوم الأربعاء ٢٧ شعبان سنة ٦١٤هـ، بعد أن خلّف فى أدبنا العربىّ هذه الرحلة الخالدة.

ولابن جبير شعر قريب من الجودة لا يرتفع إلى مستوى نثره وكلماته المشهورة وصل إلينا منه قليل لا ينفع فى حكم ولا يقنع فى موازنة، فلعل الزمان يكشف عن ديوانه. وعند ذاك يشتهر شعره كما اشتهرت رحلته ويستوى الشاعر والناثر فى هذا الأديب العبقرى.



ابن حزم

٩٩٢ ـ ١٠٦٤م

العالم والمؤرخ والفقيه

فى مزرعة خصبة من مزارع الأندلس، كان يقيم عالم شيخ قد تجاوز السبعين من عمره أقصاه الملوك عن قربهم إلى أن انتهوا به إلى هذه المزرعة وهو لا ينى عن نقدهم، حرقوا الكثير من كتبه وقطعوه عن الناس فلم ينثن عن لومهم وكلما زادوه إعناتاً زادهم عنفاً فى القول والقلم. والشباب من طلاب العلم ينتقلون إلى مستقره، لا يخافون عقاباً ولا يرجون من أولى الأمر ثوابا، لينتهلوا من ذلك المنهل والشيخ يحدثهم ويعلمهم الفقه والأدب والتاريخ ولا يدع المثابرة على العلم والمواظبة على التأليف حتى ينتهى أجله فى شعبان من سنة ٤٥٦هـ فتكون تلك المزرعة الخصبة مثواه الأخير.

ذلك العالم العنيد القوى هو على بن سعيد بن حزم وكان يسمى أبا محمد.

هو أبو محمد بن على بن أحمد بن سعيد بن حزم ويلقب بالقرطبى نسبة إلى موطن ولادته ونشأته، كما يلقب بالظاهرى نسبة إلى المذهب الفقهى الذى اشتهر به. وأصول ابن حزم تحيط به ظلمة كثيفة فيقال: إن أسرته تنحدر من أصل فارسى، حيث ينتهى نسبه إلى رجل من أهل فارس اسمه يزيد كان مولى ليزيد بن أبى سفيان ويقال: إن أسرة ابن حزم من أصل أسبانى وأن جده الأدنى كان حديث عهد بالإسلام ويبدو أن هذا القول هو الأقرب إلى الصواب، لأننا لا نعرف للموالى نسباً محققاً ولأننا لا نجهل ما كان من انتحال كثير من الأنساب العربية ما أمكن فإن لم يمكن فلتكن أنساب موالى العرب كل ذلك ليرتفع قدر منتحل النسب فيكون

فى طبقة الغالبين الفاتحين.

ومهما يكن من أمر، فأسرة ابن حزم كانت تعيش أولاً فى إقليم لبلة وفى بلدة كانت تسمى (منت ليثم) وأصبحت تسمى اليوم (منتيجار) أو «كاسا منتيخا» وكانت تلك الأسرة أسرة متواضعة تعيش على ما تغله الأرض من الرزق، ثم تطلعت عيونها إلى أضواء العاصمة وتحركت بهذا القانون الاجتماعى الذى يجذب الناس إلى العواصم فقررت الانتقال إلى قرطبة وكان ذلك فى زمن سعيد بن حزم جد عالمنا أبى محمد.

ولد على بن حزم سنة ٣٨٤هـ (٩٩٤م) ونشأ فى تلك الأسرة التى تعتبر إحدى الأسر الارستقراطية الجديدة التى كانت تعيش فى ترف وحسن مظهر وتأخذ مكانها فى أعلى مستوى بين الأسر القرطبية.

وقد قضى صاحبنا فترة صباه فى حريم قصر أبيه حيث عهد إلى النساء بتربيته وتحفيظه القرآن.

ولعل السبب فى ذلك ما كان قد أصيب به وهو صغير من مرض قلبى أو لعل السبب هو فرط التدليل أو الترف أو لعله شىء غير هذا وذاك فهذا لا يعنينا كثيراً، وإنما الذى يعنينا هو أن ابن حزم نشأ فى هذه الفترة من حياته بين حريم القصور. وكانت نشأته مترفة ناعمة وكانت إلى ذلك على كثير من المحافظة ورعاية الخلق القويم وقد أكسبته تلك البيئة النسوية كثيراً من الخبرة بأحوال النساء وأسرار نفوسهن، كما أتاحت له تجارب عاطفية فتحت قلبه الغض على الحب والعشق، كذلك أمدته تلك البيئة بكثير من قصص الغرام وأطلعته على عديد من أحوال العشق ووجهته منذ حداثته إلى البحث فى فلسفة الحب.

أما ترف البيئة ونعومتها وأرستقراطيتها، فقد طبعته على رقة المزاج، ونعومة المشاعر، وإباء النفس، كما وجهته التربية المحافظة إلى الأخذ بالسلوك القويم والبعد عن كل ما يشين، برغم ما كان فى صدر حياته من مخالطة لصنوف النساء فى بيت أبيه وفى غيره من البيوت.

وبعد الخامسة عشرة تقريباً تبدأ مرحلة جديدة من مراحل حياة ابن حزم وهى

مرحلة الخروج إلى الحياة والتحصيل والدرس والتعلم خارج البيت. وقد كان بدء هذه المرحلة حوالى سنة ٣٩٩هـ حيث خرج أبو محمد إلى مجالس العلماء فتردد على ابن الجسور وجلس إلى الرهونى وانضم إلى حلقات أبى قاسم المصرى وأخذ عن هؤلاء وغيرهم واتجه حينئذٍ نحو العلوم الدينية بنوع خاص وظل يواصل التحصيل فى قرطبة، برغم ما بها من أحداث أوائل الفتنة، حتى اضطرته أعمال العنف ومطاردة أنصار الأمويين إلى الهجرة فترك قرطبة سنة ٤٠٤هـ واختار مدينة المرية وهناك واصل درسه وتحصيله الذى بدأه فى قرطبة. ويبدو أنه فى المرية عنى بالدراسات الفلسفية والإسرائيلية، حيث كان فى هذه المدينة جماعة من المشتغلين بالفلسفة وخاصة من أتباع مسرة، كما كان بها أيضاً الإسرائيليون الذين اضطر ابن حزم إلى دراسة ديانتهم، لينجح فى مناظرتهم.

ولكن الظروف لم تترك ابن حزم يفرغ للعلم الذى أخذ نفسه بتحصيله كأحسن ما يكون التحصيل، بل دفعته إلى بعض النشاط السياسى الذى ربما كان يجرف المفكرين فى تلك الآونة عن رضا حيناً وعن سخط حيناً آخر فقد قبض على ابن حزم فى المرية لما اشتهر به من الولاء للأمويين وسجن بها حيناً.

ولم يطلقه من السجن إلا سقوط المستكفى وتقوض خلافته وخرج ابن حزم من السجن على عجز عن عمل أى شىء لنصرة بنى أمية وعلى مرارة مما لاقى من السياسة، وربما كان على عزيمة أيضاً للانصراف إلى العلم فهاجر بعد قليل إلى شاطبة فى شرق الأندلس وكان قد نضج علميّاً وفنيّاً وهنا ألف أعظم كتبه الأدبية «طوق الحمامة» ثم ألف أعظم كتبه العلمية «الفِصَل فى المللُ الأهواء والنِّحَل».

وصارت حياة ابن حزم خالصة للعلم وتنقلاً مستمراً بين أقاليم الأندلس المختلفة، وذلك لإشاعة علمه ونشر المذهب الظاهرى الذى تحول إليه وآمن به وقضى بقية حياته منافحاً عنه. فقد كان أول الأمر مالكيا كأكثر فقهاء الأندلس ثم مال إلى المذهب الشافعى حينا ثم تحول إلى الظاهرية فى قوة وإلى النهاية ولعل هذا التحول كان سبب نفرته مما تورط فيه الفقهاء من التأويل الكثير والتحوير الشديد والاستنباط سبباً فى دفعه دفعاً إلى التمسك بالظاهر والاحتكام إليه، لأنه شىء لا يمكن التلاعب به ولا المساومة عليه فكأن ظاهرية ابن حزم قد كانت رد فعل لظروف

عصره وأحوال مجتمعه وما عاناه فى فترة الفتنة من محنة خلقية وعقلية.

ومهما يكن من أمر، فقد أبحر ابن حزم خلال تنقلاته إلى جزيرة ميورقة وكان عليها أحمد بن رشيق نائباً عن مجاهد العامرى الذى كان يحكم جزر البليار ويؤثر البقاء فى دانية وإنابة ابن رشيق عنه فى ميورقة. وفى تلك الجزيرة نشر ابن حزم مذهبه وأحدث ضجة علمية هائلة فكثر تلاميذه ومؤيدوه، ومعارضوه.

وظل ابن حزم يواصل رسالته العلمية الكبيرة، حتى وافته منيته سنة ٤٥٦هـ، بعد أن عاش أكثر من سبعين عاماً قضى معظمها فى النشاط العلمى والأدبى.

وقد وضع ابن حزم كثيراً من المؤلفات فى فنون مختلفة ولو بقيت كلها لكان لها وحدها أكبر مكان فى المكتبة الأندلسية، ولكن أيدى الزمن عدت على بعض مؤلفات ابن حزم، واستطاع البعض الآخر أن يفلت من تلك الأيدى العادية وهذا البعض الباقى من أخصب وأدسم ما خلف الأندلسيون من تراث.

ففى الفقه والأصول ألف ابن حزم عدة كتب أهمها كتاب «الأبطال» الذى بسط فيه أبو محمد دقائق المذهب الظاهرى وله أيضاً كتاب «المحلى» الذى يناقش فيه أصول المذهب الشافعى ثم له كذلك كتاب «الخصال» الذى ضاع، والذى يغلب على الظن أنه كان شرحاً لأصول المذهب المالكى، ثم كتاب «الإيصال»، الذى أوجز فيه ابن حزم ما بسطه فى كتاب «الخصال».

وفى تاريخ الأديان خلف صاحبنا كتابه المشهور «الفصل فى الملل والأهواء والنحل»، وهو كتاب حافل بما فيه من تاريخ نقدى للأديان والفرق والمذاهب على اختلافها.

وفى الفلسفة ألف ابن حزم كتاباً فى مراتب العلوم والمنطق وفى نقد أبى بكر الرازى وقد ضاعت كلها، ولكن بقى لنا مما يستحق الذكر كتابه المسمى «الأخلاق والسير فى مداواة النفوس» وهو أشبه بسجل يوميات دون فيه ابن حزم ملاحظات منتزعة من تجاربه وخبراته فى الناس والحياة. وهذه الملاحظات قد صاغها ابن حزم فى تركيز ودقة فجاءت كأنها مبادئ عامة أو حكم بالغة.

وفى التاريخ خلف ابن حزم عدة رسائل وكتب ومن ذلك: كتاب «جمهرة أنساب

العرب» و«نقط العروس».

ولابن حزم أيضاً رسالته المشهورة فى «بيان فضل الأندلس وذكر علمائه»، وهى رسالة كتبها رداً على ما ورد فى خطاب بعث به ابن الريب التميمى القيروانى إلى أبى المغيرة عبد الوهاب بن حزم. وكان هذا العالم القيروانى قد ذكر «تقصير أهل الأندلس فى تخليد أخبار علمائهم ومآثر فضلهم وسير ملوكهم» فانبرى أبو محمد ابن حزم يذكر علماء الأندلس ويعدد أفضالهم ومؤلفاتهم، فالرسالة تعتبر ثبتاً لما ألفه الأندلسيون فى مختلف العلوم ولمن نبغ منهم فى شتى الفنون حتى أيام ابن حزم.

ولأبى محمد كذلك فى التاريخ «الإمامة والخلافة» و«فهرست» ما كان له من شيوخ ويبدو أنهما من كتبه الضائعة.

هذا ولم يكن ابن حزم عالماً مبرزاً فقط وإنما كان أديباً شاعراً وناثراً أيضاً. وقد مضت مؤلفات ابن حزم فى الميدان العلمى، أما مؤلفاته الأدبية فأهمها جميعاً كتابه «طوق الحمامة».



ابـن خلـدون

١٣٣٢ ـ ١٤٠٦م

المؤرخ والفيلسوف الاجتماعى

لقد ظهرت فى الماضى دراسات اجتماعية كثيرة، ولكنها لم تكن موجهة بفكرة علم إيجابى للمحادثات الاجتماعية، وإنما كانت تعود كلها إلى السياسة، وهى علم تقويمى للمجتمعات. فلما كان المجتمع مكوناً من بشر يتمتعون بالحرية فهو كائن ـ كما كانوا يعتقدون ـ على النحو الذى يريده له أعضاؤه، وبنوع خاص رؤساؤه. ولذا كانت مهمة المفكرين والفلاسفة الذين كتبوا عن المجتمع، أن يبينوا لأعضاء المجتمع ما ينبغى أن يريده.

تلك هى مهمة أفلاطون فى محاورتيه «الجمهورية» و«القوانين»، وكذلك من بعده أرسطو فى «السياسة» وفى العصور الحديثة «هوبس» وغيره.

وقد ظهر فى القرن الرابع عشر مفكر عربى خرج على هذه القاعدة، هو ابن خلدون إذ تصور دراسة المجتمع كعلم خاص أى أن تدرس الظواهر الاجتماعية دراسة «وضعية» كما تدرس العلوم للوقوف على طبيعتها وما يحكمها من قوانين، وعلى هذا البحث وقف دراسته فى كتابه «المقدمة» وأيد ذلك بقوله: «ليس التاريخ إلا سرداً بسيطاً للحوادث، وكان ينبغى أن يكون فحصاً يقظاً للقضايا المتعاقبة واستقصاء أسبابها البعيدة ومعرفة الصورة التى تبدو عليها».

وسوف نتعرض لسيرة مؤلف هذا الكتاب الرائد لنلمح مكونات هذه الشخصية الفذة.

هو عبد الرحمن أبو زيد ولى الدين بن خلدون الذى ولد بتونس ٢٧ مايو سنة ١٣٣٢م. ولما بلغ سن التعليم بدأ يحفظ القرآن وتجويده وطلب العلم. وقد تتلمذ على أبيه وعلى عدد كبير من أشهر علماء تونس لعهده. فدرس عليهم العلوم الشرعية والعربية والطبيعة والرياضيات وعلوم المنطق والفلسفة. وكان فى نيته أن يتفرغ للعلم كما فعل أبوه من قبل. ولكنه لما بلغ الثامنة عشرة من عمره عاقه عن متابعة دراسته حادثان: أحدهما وفاة أبيه ومعظم من كان يأخذ عليهم العلم من شيوخه من الطاعون الجارف الذى اجتاح العالم فى منتصف القرن الثامن الهجرى، وثانيهما هجرة معظم العلماء والأدباء الذين أفلتوا من هذا الوباء من تونس إلى المغرب الأقصى.

وقد تغير من جراء ذلك مجرى حياته الذى رسمه لنفسه، واتجه إلى تولى الوظائف العامة، وخوض غمار السياسة.

استأثرت بعد ذلك الوظائف الحكومية والمغامرات السياسية بأكبر قسط من وقته ونشاطه فى أثناء فترة طويلة استغرقت زهاء خمس وعشرين سنة من حياته.

غير أنه يبدو أن هذه الأمور لم تكن لتمثل مطامحه واستعدادته الحقيقية فى شىء. وأنه قد اندفع إليها اندفاعاً واضطر لخوض غمارها اضطراراً عن غير حب ولا رغبة.

ومن أجل ذلك كان يتحين الفرص التى كانت تتاح له فى أثناء هذه الرحلة ليعاود القراءة والاطلاع وتلقى العلم وتدريسه، وليرضى بذلك أكبر رغبة عميقة امتازت بها شخصيته الحقيقية، وأفاد منها التراث الإنسانى أكبر فائدة وسجلت اسمه فى عالم الخلود.

وقد أتيح لابن خلدون وهو بفاس أن يعاود الدرس والقراءة على العلماء والأدباء الذين كانوا قد نزحوا إليها من الأندلس ومن تونس، ويختلف إلى مكتبات فاس التى كانت حينئذٍ من أغنى المكتبات الإسلامية، فارتقت بذلك معارفه، واتسع اطلاعه، وسنحت له فرصة لإشباع رغباته الحقيقية ومطامحه الأصلية. وهكذا جمع ابن خلدون أرقى مناصب الدولة وأرقى مناصب العلم.

وعندما نزل تلمسان سنة ٧٧٦هـ عن له أن يتفرغ للقراءة والتأليف فغادرها إلى قلعة ابن سلامة (من بلاد الجزائر الآن)، وقضى هو وأسرته فى ذلك المقر المنعزل زهاء أربعة أعوام نعم فى أثنائها بالاستقرار والهدوء. وتفرغ فيها لمشروعه العلمى الخطير وهو «كتاب العبر، وديوان المبتدأ والخبر، فى أيام العرب والعجم والبربر، ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر» وقدم لهذا المؤلف ببحث عام فى شئون الاجتماع الإنسانى وقوانينه، وهو البحث الذى اشتهر فيما بعد باسم «مقدمة ابن خلدون».

وكان ابن خلدون حينئذٍ فى نحو الخامسة والأربعين من عمره، وقد نضجت معارفه، واتسعت دائرة اطلاعه، وارتقى تفكيره، وأفاد أيما فائدة من تجاربه ومشاهداته فى شئون الاجتماع الإنسانى على العموم، وخاصة لأنه قضى نحو ربع قرن فى غمار السياسة. وكان ذهنه المتوقد، وتفكيره الخصب، وملاحظته الشديدة، كان كل ذلك يحمل على التعمق فى تأمل هذه الظاهرات، والبحث عن أسبابها، فجاءت مقدمته هذه فتحاً كبيراً فى علوم البحوث الاجتماعية.

ويبدو أن نظرة الفاحص الناقد كان يعمل بنشاط خلال هذه الحياة المضطربة بحوادثها وأنه كان يعيش فى الوظائف وشئون السياسة بجسمه لا بروحه، وأن روحه كانت فى شغل عن ذلك كله بالتأمل فى شئون الاجتماع الإنسانى وتحصيل المعارف، وأن ذهنه الباحث الألمعى لا يفتأ يختزن المعلومات، وأن عقله الباطن كان لا ينفك يرتب الحقائق، ويوازن بينها، ويستخلص النتائج، وعندما تهيأ له شىء من هدوء البال واستقرار الحياة تفاعلت تلك الملاحظات المختزنة وبدت النتائج التى انتهت إليها العمليات العقلية اللاشعورية فأشرقت من خلال ذلك بحوث المقدمة إشراقاً، وتدفقت الآراء والأفكار تدفقاً فى صورة دعت إلى دهشته هو نفسه، كما دعا مثلاً إلى دهشة كثيرة من العباقرة والمخترعين. وكان ابن خلدون فى معظم ما يكتبه فى مقامه المنعزل بقلعة ابن سلامة يكتب من حفظه ومن ذاكرته وبالرجوع إلى مذكراته وإلى المراجع القليلة التى أتيح له الحصول عليها فى أثناء ذلك وإلى ما عسى أن يكون لديه من كتب فى مكتبته الخاصة إن كانت له مكتبة خاصة حينئذ.

ثم ترك أهله بتونس وأبحر إلى الإسكندرية ثم قصد بعد ذلك إلى القاهرة.

وكانت القاهرة حينئذٍ موئل التفكير الإسلامى فى المشرق والمغرب، وكان لسلاطينها المماليك شهرة واسعة فى حماية العلوم والفنون فى المدارس العديدة التى أنشأوها وفى الجامع الذى أنشئ من قبلهم فى عهد الفاطميين. وكان صيت ابن خلدون قد سبقه إلى القاهرة، وكان المجتمع المصرى يعرف حينئذٍ الكثير عن شخصيته وسيرته وعن بحوثه الاجتماعية والتاريخية. فقد كان للوراقين (أصحاب المكتبات) فى هذا العهد نشاط كبير فى نسخ المؤلفات ونشرها فى مختلف البلاد.

ومن أجل ذلك لقى ابن خلدون من أولياء الأمور فى القاهرة ومن علمائها وخاصة أهلها أحسن استقبال وأروعه؛ وهوت إليه أفئدة كثير من الناس، والتف حوله عدد كبير من المثقفين ينهلون من علمه ويفيدون من بحوثه. وأخذ يلقى دروسه ومحاضراته فى الجامع الأزهر.

وتوفى ابن خلدون فجأة فى ١٦ مارس سنة ١٤٠٦م وكان حينئذٍ فى وظيفة قاضى قضاة المالكية فى مصر.

من هذا العرض السريع لهذه الحياة الطويلة العريضة الحافلة بالعمل والإنتاج نستطيع أن نلمح مكونات هذه الشخصية الفذة، وأن نجملها فى هذه العقلية الممتازة، والذكاء اللماح، والقراءات المستوعبة للتراث الثقافى الذى حفلت به الفترة التى سبقت مجىء ابن خلدون، بالإضافة إلى البيئة الطبيعية التى عاش فيها، وإلى جولاته الواسعة فى ربوع البلاد العربية شرقيها وغربيها، ومخالطته للساسة والقادة مع اشتراكه الفعلى فى صنع الأحداث وتدبيرها وتسنمه ذروات المناصب الخطيرة فى مختلف بلدان هذا العالم.



ابـن داود الظاهـرى

٨٦٨ ـ ٩٠٩م

الفقيه والعالم والشاعر

هو محمد بن داود بن على بن خلف الأصفهانى، المشهور بأبى بكر الأصفهانى فقيه وعالم وشاعر.. نستطيع أن نعده من عشاق العرب، مع أن عهد العشاق العرب أموى ومكانهم البوادى - وأبو بكر هذا عباسى وعاش ومات فى القرن الثالث الهجرى؛ ولكنه عشق فعف وعانى ما كان يعانيه أولئك العشاق، وكان من حصيلة عشقه أن ألف كتاباً لا نظير له فى الكتب وهو كتاب «الزهرة» فى الحب ومعانى الغزل التى حومت عليها قوافى الشعراء فى الأدب العربى منذ الجاهلية حتى عصره.

وأبو بكر الأصفهانى هو ابن داود الظاهرى الفقيه المجتهد، الذى ينسب إليه مذهب أهل الظاهر وهم الذين يأخذون بظاهر الكتاب والسُّنة ويعرضون عن تأويل ورأى وقياس، وكان داود أول من جهر بهذا الرأى وكان على علم، زاهداً كثير الورع وانتهت إليه رياسة العلم ببغداد وكان من عقلاء الناس، حتى قيل فيه: «كان عقل داود أكبر من علمه» وله تصانيف كثيرة عددها صاحب الفهرست فى زهاء صحيفتين. ومن أقواله: «خير الكلام ما دخل الأذن بغير إذن».

وقيل فى داود الظاهرى أنه أصفهانى الأصل، من بليدة قرب أصفهان وقيل بل هو عراقى وأمه الأصفهانية، وأياً كان فقد كان مولد داود الظاهرى فى الكوفة ومنشؤه وشهرته ببغداد وفيها توفى.

وقد نشّأه أبوه على مذهبه وخرجه فى مدرسته فلما أينع، فشت له فى بغداد

شهرة علم وأدب ونبغ ووقع منه الناس على عقل راجح وأدب جم، يقول المسعودى فى حقه: «وكان ممن علا فى رتبة الأدب وتصرف فى بحار اللغة وتفنن فى موارد المذاهب وأشفى على أغراض المطالب وكان علماً فى الفقه منفرداً وواحداً فيه فريداً».

وبعد أن توفى أبوه، تصدر للاشتغال والفتوى وجلس مكان أبيه فى حلقته، وعمره إذ ذاك خمس عشرة سنة فتعجب الناس واستصغره أكثرهم وأرادوا اختباره فدسوا له رجلاً فقالوا: «إذا جلس فأته واسأله عن حد السكر ومتى يكون الإنسان سكران؟» فلما أتاه الرجل ـ والمجلس حاشد ـ فقال: يا أبا بكر أخبرنى متى يكون الإنسان سكران؟ أجابه أبو بكر من فوره فقال: «إذا عزبت عنه الهموم وباح بسره المكتوم» فاستحسن ذلك منه وعلم موضعه من العلم وشرح جوابه من عقله وتمكنه وأدبه ما أراد مختبروه... أن ما قاله لحد دقيق وفصل لطيف بين الصاحى وبين السكران فى بيان موجز وسجع مرسل فكلامه كما قال أبوه قبلاً: يدخل الأذن بغير إذن.

وكان أبو بكر ممن تنبه إلى ما يقوله الحسين بن منصور الحلاج فى ذلك الوقت وأفتى بكفره وندد به ولكنه توفى قبله فلم يعش إلى سنة تسع وثلاثمئة ليراه مقتولا مصلوباً.

ذكر الفقيه الشافعى أبو العباس الحضرى قال: كنت عند أبى بكر محمد بن داود فجاءته امرأة فقالت له: «ما تقول فى رجل له زوجة لا هو ممسكها (أى لا يقدر على نفقتها) ولا هو مطلقها» فقال: «اختلف فى ذلك أهل العلم فقال قائلون: تؤمر بالصبر والاحتساب، ويبعث على التطلب والاكتساب وقال قائلون: يؤمر بالإنفاق وإلا يحمل على الطلاق». قال أبو العباس فلم تفهم قوله وأعادت فسألته فقال: «يا هذه قد أجبتك عن مسألتك وأرشدتك إلى طلبتك ولست بسلطان فأمضى ولا قاض فأقضى ولا زوج انصرفى رحمك الله..».

قال المسعودى: ألف أبو بكر محمد بن داود فى عنفوان شبابه وقبل كماله وانتهائه الكتاب المعروف «بالزهرة»، ثم تنامت فكرته وبسقت قوته فصنف الفقهيات ككتابه فى «الوصول إلى معرفة الأصول» وكتاب «الإنذار»، وكتاب «الأعذار والإبحار» وكتابه المعروف بـ«الانتصار على محمد بن جرير وعبد الله بن شرشير، وعيسى بن إبراهيم الضرير». قال ابن خلكان: وله غير ذلك فمن كتبه ما ذكره الصفدى فى

(الوافى بالوفيات) وهى: مختار الأشعار والإيجاز فى الفقه والبراعة والتقصى فى الفقه واختلاف مسائل الصحابة والفرائض والمناسك والانتصار لأبيه من الناشئ المتكلم.

فأغلب كتبه فقهى علمى والأدب منها قليل ولكن كتاب الزهرة يعدل كتباً كثيرة، فأسلوبه عجيب وتبويبه فريد وما فيه من شعر وخبر بليغ كريم وطريف.

ونستطيع من تأمل هذه اللمحات من أخبار ابن داود أن نتصور صورة متكاملة لشخصيته الفذة، فهو فقيه ولكن فقهه لم يحل بينه وبين المشاركة فى الأدب واللغة والتبريز فيهما، وبين معرفة الفلسفة اليونانية وعلوم الحكمة. وبرغم تدينه وخلقه فإن العاطفة كانت تملأ قلبه وتستولى على فؤاده، فهو بذلك نمط فريد بين أبناء عصره خالف نمط الفقهاء المحافظين والأدباء المستهترين وجمع بين فضائل الدين والخلق وبين وحدة الثقافة ولطف الذوق فهو مثال للعالم المسلم فى ثقافات عصره البعيد عن الرياء وهو صورة للذكاء المتقد والعاطفة الدافقة.

لم تطل بابن داود الحياة فتوفى فى سن الثانية والأربعين على ما يذكر الخطيب البغدادى: فقد ذكر أنه توفى سنة ٢٩٧هـ بعد وفاة أبى يوسف القاضى، صاحب الإمام أبى حنيفة صاحب المذهب، أما المسعودى فقد ذكر وفاة ابن داود فى سنة ٢٩٦هـ.

وبذلك طويت حياة حافلة بالبحث والدرس متقدة بالمشاعر والأحاسيس ويكفينا قول ابن سريج عنه: ما آسى إلا على تراب أكل لسان محمد بن داود!



ابـن رشـد

١١٢٦ ـ ١١٩٨م

أعظم حكماء القرون الوسطى
وأكبر فلاسفة الإسلام

ابن رشد أعظم حكماء القرون الوسطى على رأى الكثيرين ومن أكبر فلاسفة الإسلام، وهو مؤسس الفكر الحر، جرىء ومنطقى، حصر جهده فى بادئ الأمر فى أرسطو، فدرس مؤلفاته دراسة عميقة متحرياً دقائقها وهو لم يقف عند هذا الحد بل عمل على شرحها وخرج بشروح لم يُسبق إليها، وقد مضى فى شروحه على طريقة النقد وفى أسلوب خاص وبذلك أورث الإنسانية علم أرسطو كاملاً بريئاً من الشوائب على رأى «دى بور».

ولقد اطلع «بيكون» على مؤلفات ابن رشد ودرسها دراسة عميقة واستفاد منها فوائد جليلة كان لها أثر كبير فى نتاجه واتجاهات تفكيره وكان معجباً بابن رشد إعجاباً دفعه إلى الاعتراف: بـ «أن ابن رشد فيلسوف متين متعمق صحح كثيراً من أغلاط الفكر وأضاف إلى ثمرات العقول ثروة لا يستغنى عنها بسواها وأدرك كثيراً مما لم يكن قبله معلوماً لأحد وأزال الغموض من كثير من الكتب التى يتناولها بحثه...».

امتاز ابن رشد بالنقد، وكان أثره بالغاً عند اليهود والمسيحيين فقد نقد بطليموس فى فلكه كما نقد شروح إسكندر فردوس وغشتيوس وكذلك نقد ابن سينا وهاجمه ورد على الفارابى والغزالى، وكان شديداً فى نقده ورده قاسى اللهجة ولكن القلم سما به فى هذا إلى أعلى درجات الكمال الفكرى.

وهكذا نشأ مذهب الرشدية للأخذ بالعقل عند البحث وعدم الاعتماد على الروايات الدينية.

كان ابن رشد مخلصاً للحق إلى أبعد الحدود يسعى إلى الحقيقة ويعمل جادّاً على الوصول إليها والأخذ بها دون اعتبار القائل أو الدين. وكان يدعو إلى قبول الآراء الصحيحة سواء أجاءت من مسلم أم غير مسلم.

ويرى كثيرون من الفلاسفة وأعيان الفكر أن فلسفة ابن رشد تركت أكبر الأثر فى أوربا وأخرجتها من ظلمات التقليد إلى نور العقل والفكر ولهذا نجدهم يضعونه (أى ابن رشد) مع أفلاطون وأرسطو وكانط فى صف واحد فى الفلسفة العقلية.

رأى ابن رشد من دراساته الدينية والفلسفية وفى حملة الغزالى على الفلسفة أن الإخلاص للحق يوجب عليه أن يدافع عنها وهنا برقت له رسالته فى الحياة فقام يدعو إلى الانتصاف للفلسفة ورد الاعتبار لها وإحيائها والتوفيق بينها وبين الشريعة.

ويتبين من الآراء التى بثها فى كتبه أنه كان بعيداً عن التصوف يتقيد بالعقل ولا يسير إلا على هداه، وكان من ذلك أن اصطدم بوجهة النظر الدينية فى بعض المسائل فنشأ عداء بينه وبين رجال الدين أدى إلى اضطهاده فى أواخر أيام حياته.

وكان ابن رشد ينفر من علم الكلام الإسلامى لكنه كان يرى فى الدين ضرباً من الحق وقد ذهب إلى ما ذهب إليه «اسبينوزا» فيما بعد من أن الوحى يرمى إلى إصلاح الناس وتحسين أحوالهم لا إلى تعليمهم فقط، وأن غرض الشارع ليس تلقين العلم بل أخذ الناس بصالح الأعمال والطاعة وهو ينظر إلى الدين بعين الرجل السياسى (كما يقول دى بور) ويرى فيه وسيلة فعالة للإصلاح لما يهدف من غايات خلقية سامية فهو يؤمن بالمجتمع ولا يرى السعادة إلا فيه وأن سعادة الفرد فى سعادة المجموع ومصلحة الدولة يجب أن يكون لها الاعتبار الأول وهو فوق مصلحة الفرد، ولهذا لا عجب إذا رأيناه ينتهز الفرص ليوجه حملاته على الحكام الجاهلين لأنهم لا يقدرون الصالح العام ولا يهتمون إلا بمصالحهم الخاصة مهملين مصلحة المجتمع الذى يعيشون فيه.

ولعل هذا كله يعود إلى روحه العلمى الصحيح، فقد سما به هذا الروح فجعله

من أشد الناس تواضعاً وأخفضهم جناحاً وأقلهم أنانية واستغل نفوذه عند المسئولين والملوك والأمراء فى الصالح العام، ولم يطلب جاهاً ولا مالاً لنفسه بل كان يتجه إلى خير المجموع من أهل بلده ووطنه الأندلس ومن هنا يتجلى أن فلسفته العملية كانت تتجه نحو الخير العام الشامل فدعا إلى الاهتمام بصالح الجماعة وأن على الإنسان أن يأخذ بنصيب فى إسعاد المجموع ولا يقف الأمر عند هذا الحد، بل ويدعو النساء إلى القيام بخدمة المجتمع والدولة قيام الرجال، وهو يرى أن حالة العبودية التى نشأت عليها المرأة قد أتلفت مواهبها وقضت على مقدرتها العقلية ولهذا قل أن تجد المرأة ذات فضائل أو على خُلق عظيم وهن عالة على أزواجهن.

حياة ابن رشد

ولقد ولد الفيلسوف ابن رشد فى سنة (١٢٢٦م) فى أسرة عربية أصيلة استقرت بالأندلس واشتهرت بالجاه والعلم فقد تولى ثلاثة من أفرادها فى أجيال متتابعة منصب قاضى القضاة فى قرطبة وهم الجد والأب والحفيد وكان الحفيد أكثرهم شهرة وأبقاهم ذكراً فى تاريخ الفكر الإنسانى، ولا تقف شهرته عند حدود العالم الإسلامى القديم والحديث، بل امتدت إلى النطاق العالمى منذ القرن الثانى عشر الميلادى حتى اليوم فإذا قيل الفيلسوف القرطبى أو الشارح الأكبر لأرسطو عرف الناس من هو.

وكان فيلسوفنا أكثر الناس استقلالاً فى الرأى واعتداداً بما يؤمن أنه الحق، كما أنه كان أكثر ميلاً إلى الاجتهاد منه إلى التقليد وقد وصفه ابن الآبار فقال: إنه لم ينشأ مثله فى الأندلس كمالاً وعلماً وفضلاً، ومع أنه كان عظيم المرتبة شريف الأصل عريق النسب فقد كان من أشد الناس تواضعاً وأخفضهم جناحاً وربما كشف عن خلقه ودينه أن المحنة لم تترك فى نفسه أثراً عميقاً، بل كان الأمر الذى حز فى نفسه هو أن غوغاء قرطبة أخرجوه من المسجد الكبير هو وابنه وهما يتهيآن لصلاة العصر.



ابن سينا

٩٨٠ ـ ١٠٣٦م

العالم الذى احتل مكاناً سامياً فى تقدم الفكر والطب والفلسفة

ابن سينا من الخالدين الذين يحتلون مكاناً سامياً فى تاريخ تقدم الفكر والطب والفلسفة، وهو من أصحاب الثقافة العالية والاطلاع الواسع ومن ذوى المواهب النادرة والعبقرية الفذة. وعلى الرغم من عدم امتداد حياته، إلا أنها كانت عريضة تفيض نشاطاً وحيوية وتحفل بالإنتاج والتأليف والإبداع.

لقد كان إنتاجه متنوعاً وغزيراً، فكتب فى الفلسفة والطب والطبيعيات والإلهيات والنفس والمنطق والرياضيات والأخلاق، ووضع فيها ما يزيد على مائة مؤلف ورسالة، يعتبر بعضها موسوعات ودوائر معارف، إذ جمع فيها شتات الحكمة والفلسفة وما أنتجه المفكرون الأقدمون، وأضاف إليها إضافات أساسية ومهمة جعلته من الخالدين المقدمين فى تاريخ الفكر والعلم، مما دفع البروفيسور «جورج سارتون» إلى الاعتراف بأن « ... ابن سينا أعظم علماء الإسلام ومن أشهر مشاهير العلماء العالميين...».

ولقد سحرت عبقرية ابن سينا المستشرقين والعلماء، والشرق والغرب على السواء، فلقبه معظمهم بأرسطو الإسلام وأبقراطه، وجعله دانتى بين أبقراط وجالينوس، وقال دى بور: « ... وكان ابن سينا أسبق كُتاب المختصرات الجامعة فى العالم..» ويرى فيه مثلاً للرجل الواسع الاطلاع والمترجم الصادق عن روح عصره، وإلى هذا يرجع تأثيره العظيم وشأنه فى التاريخ. كما كان «مونك» يرى فى ابن

سينا أنه من أهل العبقرية الفذة ومن الكتاب المنتجين. أما «أوبرفيك»، فيقول: «إن ابن سينا اشتهر فى العصور الوسطى وتردد اسمه على كل شفة ولسان، ولقد كانت قيمته قيمة مفكر ملأ عصره، وكان من كبار عظماء الإنسانية على الإطلاق».

لقد أجمع علماء الشرق والغرب على تقدير ابن سينا وتمجيده، واستقوا من رشح عبقريته وفيض نتاجه، فكان من الذين ساهموا مساهمة فعالة فى تقدم العلوم الطبية والفلسفية والنفسية.

سيرة الشيخ الرئيس ابن سينا بقلمه

هو أبو على الحسين بن عبد الله على بن سينا، وهو وإن كان أشهر من أن يذكر وفضائله أظهر من أن تسطر ـ قد ذكر من أحواله ووصف من سيرته ما يغنى غيره عن وصفه، ولذلك نقتصر من ذلك على ذكر ما قد ذكره هو عن نفسه، قال الشيخ الرئيس:

«إن أبى كان رجلاً من أهل بلخ، وانتقل منها إلى بخارى فى أيام نوح بن منصور، واشتغل بالتصوف، وتولى العمل فى أثناء أيامه بقرية من ضياع بخارى، ثم انتقلت إلى بخارى، وأحضرت معلم القرآن ومعلم الآداب، وأكملت العشر من العمر، وقد أتيت على القرآن وعلى كثير من الأدب حتى كان يقضى منى العجب.

وأخذ أبى يوجهنى إلى رجل كان يتتبع العقل ويقوم بحساب الهند حتى أتعلم منه، ثم صار إلى بخارى أبو عبد الله النائلى وكان يدعى المتفلسف وأنزله أبى دارنا رجاء تعلمى منه.

ثم ابتدأنا بكتاب ايساغوس على النائلى، ثم أخذت أقرأ الكتب على نفسى، وأطالع الشروح حتى أحكمت علم المنطق، وكذلك كتاب اقليدوس، فقرأت من أوله خمسة أشكال أو ستة عليه، ثم توليت بنفسى حل بقية الكتاب بأسره، ثم انتقلت إلى المجسطى، ولما فرغت من مقدماته، وانتهيت إلى الأشكال الهندسية ـ قال النائلى فور قراءتها: حلها بنفسك، ثم اعرضها علىّ لأبين لك صوابه من خطئه، فارقنى النائلى متوجهاً إلى كاركنج، واشتغلت أنا بتحصيل الكتب من النصوص والشروح من الطبيعى والإلهى، وصارت أبواب العلم تتفتح على.

ثم رغبت فى علم الطب، وصرت أقرأ الكتب المصنفة فيه وعلم الطب ليس من العلوم الصعبة، فلا جرم أنى برزت فيه فى أقل مدة حتى بدأ فضلاء الطب يقرأون علىّ علم الطب، وتعهدت المرضى، فانفتح على من أبواب المعالجات المقتبسة من التجربة ما لا يوصف، وأنا مع ذلك اختلف إلى الفقه وأناظر فيه، وأنا فى هذا الوقت من أبناء ست عشرة سنة، ثم توفرت على العلم والقراءة سنة ونصف السنة، فأعدت قراءة المنطق وجميع أجزاء الفلسفة وفى هذه المدة ما نمت ليلة واحدة بطولها، ولا اشتغلت النهار بغيره، وكل حجة كنت أنظر فيها أثبت مقدمات قياسية، وأرتبها، ثم نظرت فيما عساها تنتج وراعيت شروطها، حتى تحقق لى حقيقة الحق فى تلك المسألة، وكان سلطان بخارى فى ذلك الوقت نوح بن منصور الذى اتفق له مرض أتعب الأطباء فيه، وكان اسمى اشتهر فيه بالتوفر على القراءة، فأجروا ذكرى بين يديه، وسألوه إحضارى، فحضرت، وشاركتهم فى مداواته، وتوسعت بخدمته، فسألته يوما الإذن لى فى وصول دار كتبهم ومطالعتها وقراءة ما فيها من كتب الطب، فأذن لى؛ فدخلت دارا ذات بيوت كثيرة فى كل بيت صناديق كتب».

ثم صار الشيخ بعد ذلك من حاشية علاء الدين المقدمين، فظل الشيخ الرئيس يخدم علاء الدولة لما لقيه عنده من حسن التكريم، فبقى معززاً مكرماً، وكان كثير الرحلات كثير النشاط.

وأخيراً وصل إلى همذان، وقد ضعفت صحته، ويقال: إنه اغتسل وتاب وتصدق بماله على الفقراء، ورد المظالم إلى أهلها، وأعتق مماليكه، وعكف بقية حياته على قراءة القرآن، وكان يختمه مرة كل ثلاثة أيام، واستمر على هذا الحال حتى توفى فى همذان فى يوم الجمعة من شهر رمضان سنة ٤٢٨ هجرية ١٠٣٦ ميلادية وهو فى الثامنة والخمسين من عمره.

وضع ابن سينا مؤلفات فى الطب جعلته فى عداد الخالدين. وقد يكون كتابه «القانون» من أهم مؤلفاته الطبية وأنفسها، اشتهر كثيراً فى ميدان الطب وذاع اسمه وانتشر انتشاراً واسعاً فى الجامعات والكليات. وشغل هذا الكتاب علماء أوروبا ولا يزال موضع اهتمامهم وعنايتهم. وقد ترجم إلى اللاتينية وطبع فى أوروبا خمس عشرة مرة باللاتينية ما بين ١٤٧٣ و١٥٠٠م، وبقى بفضل حسن تبويبه

وتصنيفه وسهولة مناله الكتاب التدريسى المعول عليه فى مختلف الكليات الأوروبية حتى أواسط القرن السابع عشر للميلاد.

وفى هذا الكتاب جمع ابن سينا ما عرفه عن الطب فى الأمم السابقة إلى ما استحدثه من نظريات وآراء وملاحظات جديدة، وما ابتكره من ابتكارات مهمة، وما كشفه من أمراض منتشرة الآن، مما أدى إلى تقديم الطب خطوات واسعة جعلت بعضهم يقول: كان الطب ناقصاً فكمله ابن سينا!

وكذلك ضمن ابن سينا كتاب القانون شرحاً وافياً لكثير من المسائل النظرية والعملية، كما أتى فيه على تحضير العقاقير الطبية واستعمالها. وقرن ذلك ببيان عن ملاحظاته الشخصية.

وفى كتاب القانون ظهرت مواهب ابن سينا فى تصنيفه وتبويبه للمعلومات الطبية، وما كشفه من نظريات جديدة فيها، وأبرزها فى قالب منطقى. فقد كان قوى الحُجة، قاطع البرهان، وهذا ما جعل كتاباته شديدة التأثير فى رجال العلم فى القرون الوسطى وما جعل السير «وليم أوسلر» يقول عن كتاب القانون: «إنه كان الإنجيل الطبى لأطول فترة من الزمن....».



ابـن طفيـل

١١٠٠ ـ ١١٨٥م

المفكر العظيم الذى ترك اثاراً خالدة في ميدان الفلسفة

فى القرن الثانى عشر للميلاد ظهر فى الأندلس مفكر عربى عظيم ترك آثاراً خالدة فى ميدان الفلسفة هو ابن طفيل، من أصحاب الكفايات النادرة، ومن جبابرة المفكرين فى القرون الوسطى فى رأى الكثيرين من مؤرخى العلوم، شغل منصب الحجابة عند حاكم غرناطة وتبوأ مركز الوزارة عند الأمير ابن يعقوب يوسف عبد المؤمن صاحب المغرب. وكان لهذا الأمير الفضل الأكبر فى بروز مزايا ابن طفيل العقلية، إذ شمله بعطفه وأحاطه برعايته وسهل له استغلال مواهبه التى جعلت من ابن طفيل عالماً فلكياً رياضياً وطبيباً وفيلسوفاً وأديباً من الطراز الأول.

نقد ابن طفيل بطليموس ونقد فلسفة الفارابى وابن سينا وابن رشد والغزالى. وكان فى كثير من الأحايين صائباً فى نقده مما يدل على أنه ذو بصيرة نافذة وعلى أنه كان مستقلاً فى آرائه واتجاهاته الفلسفية. فهو ـ أى ابن طفيل ـ بعد أن اطلع على فلسفة الفلاسفة العرب وغير العرب، وبعد أن وقف على آرائهم ونظرياتهم، خرج بمذهب خاص به وضعه فى قصة سماها «حى بن يقظان» وهى من أروع ما كُتب فى القرون الوسطى وأحسن ما تفخر به الفلسفة العربية. وقد قال عنها الدكتور سارطون: «إن رسالة حى ين يقظان من أجمل الكتب المبتكرة فى موضوعها التى ظهرت فى القرون الوسطى».

* * *

هو أبو بكر محمد بن عبد الملك بن محمد بن محمد بن طفيل القيسى، فهو ينتسب إلى قبيلة قيس، تلك القبيلة التى بلغت من الشهرة حدا جعل اسمها يطلق على ما سوى اليمنيين من العرب. وقد ولد فى وادى آش - وهى بلدة بالقرب من غرناطة فى أوائل القرن السادس الهجرى.

هذا كل ما يذكره التاريخ عن طفولته وشبابه، لكن ما المركز الاجتماعى الذى كانت تشغله أسرته؟ كيف قضى طفولته؟ وأين قضاها؟ كيف تعلم؟ وعلى من تعلم؟ كل ذلك يهمله التاريخ: إذ يمضى سريعاً فيضعه فى غرناطة دارساً للطب ثم يضعه فى منصب أمير الأسرار لحاكم ولاية غرناطة، ثم كاتم أسرار لدى الأمير أبى سعيد حاكم طنجة وهو أحد أولاد عبد المؤمن، ثم يمضى التاريخ سريعاً فيضعنا أمام ابن طفيل طبيب أبى يعقوب يوسف صاحب المغرب بل صديقه ووزيره.

وقد أدى ابن طفيل، عن طريق هذه الصلة، حق الزمالة العلمية خير أداء، فكان يجلب العلماء من جميع الأقطار، ويحض الملك على إكرامهم وتهيئة الجو المناسب لهم.

وهو الذى نبه الملك ووجه نظره إلى ابن رشد «فمن حينئذ عرفوه ونبه قدره عندهم».

فى رحاب هذا الملك عاش ابن طفيل عيشة هادئة مطمئنة. كان فيها الطبيب، وكان فيها المستشار العلمى، وهو الذى حفز ابن رشد - تحقيقاً لرغبة أبى يعقوب - على العمل الذى قام به من تلخيص كتب أرسطو وشرحها.

ماذا أنتج ابن طفيل فى فترته هذه الهادئة المطمئنة؟ إن المؤرخين يحدثوننا عن «تصانيف فى أنواع الفلسفة من الطبيعيات والإلهيات وغير ذلك». ويحدثوننا عن رسالة فى النفس، وعن رسائل تبودلت بينه وبين ابن رشد فى الطب، ويذكر البطروجى الفلكى وابن رشد أن ابن طفيل وفق لنظام فلكى يخالف النظام الذى وضعه بطليموس.

يقول الدكتور أحمد أمين بحق «نحن لو قارنا بين ابن سينا وابن طفيل من الناحية الأدبية، وجدنا أن ابن طفيل أرقى من ابن سينا بكثير من حيث اللغة والأدب: فعبارة ابن طفيل مشرقة، وعبارة ابن سينا مغلقة غامضة، ويظهر أن

ابن طفيل كان مثقفاً ثقافة أدبية أرقى من ثقافة ابن سينا ففى كثير من عبارات ابن سينا وألفاظه ما يدل على أنه كان يستقى معلوماته اللغوية من المعاجم، لا من كتب الأدب، فجاءت بعض الأحيان نابية. أما ابن طفيل فيستقى معلوماته اللغوية والأدبية من كتب الأدب والمثقفين بها، فجاءت عبارته أنصع وأبلغ».

وإذا كان ابن طفيل أديباً ناثراً، فقد كان شاعراً أيضاً، وإذا كان نثره يمتاز على نثر ابن سينا، فقد كان شعره يمتاز على شعر ابن سينا أيضاً، وقد كان فى شعره صاحب مزاج، ذلك أنه يتكسب به. ولذلك اقتصر شعره تقريباً على العواطف والفلسفة.

هذا النزر اليسير هو كل ما نعلم عن حياة ابن طفيل، وعن آثاره التى بادت بيد أنه، لحسن الحظ، قد بقى أثره الخالد «حى بن يقظان». وهو قصة بلغت من القوة حد الروعة، فى أسلوب جزل سلس وقد حوت آراء ابن طفيل فى أهم المشاكل الفلسفية، ولا نبالغ إذا قلنا أنها مذهب فلسفى كامل تتجلى فيه الدقة بكل معانيها. وقد صور فيها ابن طفيل «حى بن يقظان» وقد نشأ فى جزيرة منعزلة عن العالم، لا أثر فيها لبنى البشر، فأخذ ينظر ويتأمل ويستنتج متدرجاً من المحسوس إلى المعقول، ومن الجزئيات إلى الكليات، حتى وصل إلى تكوين فكره عن الله وعن الملأ الأعلى، ثم أخذ فى الرياضة الروحية حتى وصل إلى طور الولاية. ثم شاءت الظروف فى أن يصل إلى جزيرته عابد متدين بدين سماوى، أراد العزلة ليتفرغ للعبادة، فالتقى به حى بن يقظان. وبعد تفاهمهما وأخذ كل منهما عن الآخر، التزم حى بن يقظان ما ذكره له العابد من شعائر دينه. وبعد محاولة فاشلة لهداية المدينة التى نشأ فيها العابد عاد حى إلى جزيرته واستقر فيها إلى أن أتاه اليقين.

هذا، فى كلمات، مجمل القصة.

ولقد استمر ابن طفيل فى صحبة أبى يعقوب إلى سنة ٥٨٠هـ حيث توفى أبو يعقوب.

ولما قام بالأمر من بعده ولده أبو يوسف يعقوب الملقب بالمنصور مكث ابن طفيل فى صحبته، بيد أن حياته لم تطل بعد صديقه، فقد وافته المنية بعد وفاة أبى يعقوب بسنة واحدة أى سنة ٥٨١هـ.

ابن عربي

١١٦٥ ـ ١٢٤٠ م

من رجال التصوف الأفذاذ الذين تركوا ثروة ضخمة من الآثار

ينفرد كتاب «الفتوحات المكية» من بين كتب ابن عربى العديدة بأنه ألصق هذه الكتب كلها بمؤلفه، فهو إلى جانب مادته الغزيرة فى العلوم الإنسانية والإسلامية وعلوم الأوائل، مرآة تنعكس عليها سيرة المؤلف الشخصية وحياته الروحية، كما تنعكس عليها ثقافته الواسعة التى استمدها إما مباشرة من العلماء والصوفية الذين تتلمذ عليهم أو صحبهم أو لقيهم عرضاً فى أسفاره أو راسلهم فى الأندلس أو المغرب أو المشرق العربى، وأما من الكتب التى عثر عليها فى البلاد التى زارها، ولا تجد مؤلفاً آخر غير «الفتوحات» يمدك بشتى التفاصيل عن كل هذا، كما يلقى الضوء على ما خفى من معالم شخصية ابن عربى ومغامراته الروحية وتجاربه الصوفية.

ويتصل الكتاب من ناحية أخرى اتصالاً وثيقاً بأكبر عدد من مؤلفات ابن عربى، لا من حيث ذكر أسمائها وحسب، بل من حيث ما يذكر عن موضوعاتها والظروف التى لابست تأليفها، وتاريخ ومكان ذلك التأليف، والحكم عليها فى أغلب الأحيان.

ولما كان كتاب «الفتوحات» آخر وأوسع كتاب ألفه وعالج منه شتى الموضوعات والمسائل التى عالجها على انفراد فى كتبه الأخرى، كان منها بمثابة الخلاصة العامة والثمرة الناضجة لكل ما كتب. وعلى كل من يتصدى للكتابة عن «الفتوحات» أن يمهد لذلك بالكلام عن مؤلف «الفتوحات» وعن مؤلفاته الأخرى لانعكاس كل من هذين الأمرين على الآخر.

سيرة ابن عربى

هى سيرة كريمة لرجل من رجال التصوف الأفذاذ، الذين تركوا ثروة ضخمة من الآثار والأراء، ضمنها عدداً لا يكاد يحصى من كتبه التى عدت عليها عوادى الزمان، فما ضاع يعد أضعافاً مضاعفة لما بقى منها.

هى سيرة «محيى الدين بن عربى» الذى عاش فى الفترة التى تجمع بين منتصف القرنين السادس والسابع الهجريين، هذه الفترة التى كانت زاخرة بالأدب والتصوف، فى بيئة من أخصب بلاد العالم الإسلامى رقة وذوقاً وأدباً وتصوفاً، هى بيئة الأندلس، التى على رباها نشأ عاهل التصوف العظيم، ثم خطت قدماه تذرع البلاد شرقاً وغرباً، بحثاً عن المعرفة، وارتياداً للحكمة.

هى سيرة «ابن عربى» الذى سطع نجمه فى أفق الثقافة الإسلامية الصوفية حيّاً وميتاً، ووجد من الأنصار والخصوم من يناصرون ويناوئون، وشغل بآرائه وأفكاره العقول والأذهان، وأثار ثائرة قوم وإعجاب آخرين، وظلت كتبه إلى ذلك الوقت منبعاً فياضاً وكنزاً دفيناً يهرع إليها طلاب المعرفة ورواد الثقافة وعشاق الروح ومحبو الفلسفة وجامعو الحكمة.

هو الشيخ أبو بكر محمد بن على الملقب بمحيى الدين بن عربى المرسى الحاتمى الصوفى الفقيه الظاهرى، الذى ولد فى مرسية فى الجنوب الشرقى من الأندلس سنة ٥٦٠هـ، وهو من سلالة عربية صميمة ومن أسرة عرفت فى الأندلس بالتقوى والورع، وكان بعض أفرادها من الصوفية، تلقى مبادئ العلوم الدينية فى مدينة لشبونة ثم فى أشبيلية التى كانت من أكبر مراكز التصوف فى الأندلس فى عهده، وقضى فيها نحواً من ثلاثين سنة، وتلقى العلوم عن مشيختها الذين كان لهم أثر غير قليل فى كثير من التقدير والإكبار. والظاهر أنهم كانوا من بسطاء الزهاد الذين قصروا هممهم على الناحية العلمية من الطريق الصوفى ولم يكن لهم كبير حظ فى التصوف النظرى، ومع أن ابن عربى اتخذ من أشبيلية مقرّاً له هذه الفترة الطويلة من حياته، فإنه كان يرتحل عنها إلى بلاد أخرى فى الأندلس، زائراً متجولاً مرتاداً للعلماء، ثم يعود إليها. زار «قرطبة» وهو شاب ولقى بها الفيلسوف «ابن رشد» الذى كان قاضى المدينة إذ ذاك. وفى سنة ٥٩٨هـ هجر الأندلس وبلاد

المغرب جميعاً، وذهب إلى المشرق ليقضى فريضة الحج، ولكنه لم يعد منه. وأغلب الظن أن رحلته إلى المشرق كانت فراراً من الأندلس والمغرب وجوهما الصاخب دينيّاً وسياسيّاً، وما كان يسود هذا الجو من تزمت من جانب فقهاء المالكية واضطهاد للمفكرين الأحرار من جانب أصحاب الحكم.

ولقد زادت همة «ابن عربى» فى طلب العلوم وكانت له عزيمة لا تعرف الكلل، وتكبد فى سبيل تحصيله كثيراً من المشاق، وكان كالنحلة دائب الانتقال من روض إلى روض، حتى جمع فى ذلك ذخيرة شهد له بها القاصى والدانى.

فقد زار مصر سنة ٦٠٣هـ ولم تطب إقامته بها لأن أهل مصر لم يحسنوا وفادته، فقد كان سبباً فى إثارة ثائرة الفقهاء عليه حتى أوغروا عليه صدر السلطان العادل، وهموا بأن يبطشوا به لولا أن قيض الله له من كان سبباً فى إنقاذه من هذه الفتنة التى أوشكت أن تعصف به. ولما رحل عن مصر زار كثيراً من بلاد المشرق كبيت المقدس ومكة وجهات أخرى من الحجاز وبغداد وبعض مدن بلاد الروم، ثم استقر به المقام فى دمشق التى أقام بها إلى أن توفى ليلة الجمعة ٢٨ ربيع الآخر سنة ٦٣٨هـ ودفن فى جبل قاسيون.

مكانته العلمية وشهادة العلماء

تلك هى سيرة ذلك البطل الذى أطلق عليه عارفو فضله لقبين لهما دلالتهما العظيمة:

أما اللقب الأول فهو «الشيخ الأكبر» وهذا اللقب لم يطلق عليه إلا بعد أن اجتمعت له أصول الرياسة ومقومات القيادة الروحية، وتخرج على يديه الكثيرون من تلاميذه الذين كانوا يجتمعون حوله بالمئات فى كل مكان يحل فيه، يتحلقون حوله ويستمعون إلى محاضراته، وينصتون إلى آرائه وأذواقه فى شعره ونثره، فيجدون فى ذلك بلسماً شافياً لجراحهم.

وكان هو - نفسه - سلوكاً وتصرفاً وقولاً وعملاً وآداباً وأخلاقاً - فى الذروة العليا من الكمال الإنسانى الذى بلغ به مراتب أهل الفضل وجعل شيوخ عصره يجلونه ويكبرونه ويعترفون له بالمكانة العظيمة والمنزلة الرفيعة.

من أجل ذلك كله أطلق عليه لقب «الشيخ الأكبر».

أما اللقب الثانى فهو «سلطان العارفين» وهو لقب يكاد يكون متلازماً مع اللقب السابق، فلم يستحق ابن عربى لقب «الشيخ الأكبر» إلا بعد أن تبوأ عرش المعرفة، وأدرك من الأسرار ما عز على غيره، واستطاع أن يشير إلى حقائق تاهت فى الطريق إليها العقول، وتفرقت العزائم، وأدلى بمعانٍ رائعة وحكم بالغة، تدل على رسوخ قدمه وعلو كعبه وسعة معرفته.

وهذه التقديرات إن دلت على شىء فإنما تدل على ما وصل إليه الشيخ الأكبر من تألق ومقدرة.

ومن أجل ذلك أطلق عليه «سلطان العارفين» وهو جدير بهذا اللقب، لأنه لم يترك صغيرة ولا كبيرة فى هذا الطريق الصوفى الغاص بالعقبات والمفاوز والمتاهات إلا وأدلى فيها ببيان وافٍ، وعبارات رائعة نظماً ونثراً. واتسعت معرفته فشملت غير العلوم الصوفية براعة ودقة وفهماً وأداء.

هذه سيرة الشيخ الأكبر محيى الدين بن عربى سلطان العارفين.

تراث ابن عربى

وضع ابن عربى مائتين وواحدا وخمسين مؤلفاً ما بين كتاب ورسالة حسبما ورد فى مذكرة كتبها سنة ٦٣٢هـ، أو خمسمائة كتاب على حد قول عبد الرحمن جامى فى «نفحات الأنس» أو أربعمائة كما يقول الشعرانى فى «اليواقيت والجواهر». وقد ذكر له بروكلمان نحواً من مائة وخمسين مؤلفاً لا تزال باقية ما بين مطبوع ومخطوط.

ويمكن تصنيف مؤلفات ابن عربى فى سبع مجموعات على النحو الآتى:

المجموعة الأولى: كتب التصوف: وهى ثلاثة أنواع:

١ - نظرية **٢ - عملية** **٣ - تعليمية**

المجموعة الثانية: كتب الحديث، ومعظمها مختصرات لكتب أخرى كصحيح البخارى أو مسلم.

المجموعة الثالثة: كتب التفسير، وأهمها تفسيره الصوفى الذى بلغ فيه إلى سورة الكهف وتوفى ولم يكمله.

المجموعة الرابعة: فى السيرة النبوية.

المجموعة الخامسة: فى الأدب ـ بما فى ذلك الشعر الصوفى.

المجموعة السادسة: فى العلوم الطبيعية: كالفلك وعلم التنجيم.

المجموعة السابعة: فى علوم الأسرار.

كان هذا فى الشطر الأول من حياته وهو الشطر الذى قضاه فى الأندلس وبلاد المغرب وقضى وقتاً منه ببلاد المشرق، أما الشطر الثانى من حياته وهو الذى قضى معظمه بدمشق ومكة، فقد ظهر فيه إنتاجه الناضج الخصب فى ميدان التصوف بوجه خاص مثل كتابه «فصوص الحكم» و«الفتوحات المكية».



ابن عساكر. على بن الحسن

١١٠٥ ـ ١١٧٦م

إحدى القمم الشامخة فى التأليف التاريخى العربى

هو على بن الحسن بن هبة الله، أبو القاسم، ولد فى دمشق سنة ٤٩٩هـ/ ١١٠٥م، وكانت أسرته أسرة اشتهرت فى دمشق بالعلم والتقوى لذلك أقبل ابن عساكر منذ صباه على العلم والتعلم، فأخذ عن أهله، وعن عدد كبير من شيوخ دمشق، ولم يقتصر عمله على ذلك، بل عمل على مراسلة علماء عصره فى العراق وخراسان، وكان الجامع الأموى أهم المراكز التى تردد إليها ابن عساكر للسماع من الشيوخ والتزام حلقات تدريسهم، وبالإضافة إلى الجامع الأموى أقبل على محاضرات عدد من مدارس دمشق وزوايا التعليم فيها، كما كان يزور الشيوخ فى بيوتهم ويأخذ عنهم.

وعندما بلغ ابن عساكر العشرين من عمره، فقد والده، فتحللت ارتباطاته الأسرية بعض الشىء، فقرر الرحلة فى طلب العلم، وخاصة الحديث النبوى الشريف الذى سيطر على اتجاهاته منذ البداية، فاتجه نحو العراق، لأنها كانت ما زالت مركز الثقافة الأول فى العالم الإسلامى، وفيها كانت المدرسة النظامية نشطة للغاية، بحيث اعتبرت أعظم جامعات العالم الإسلامى، وأرفعها مكانة، وأعمقها تأثيراً، ذلك أنها ضمت نخبة الشيوخ وكبار العلماء، كما أن بغداد حوت آنئذٍ فى خزائنها جل النتاج الفكرى المدون بالعربية.

وأقام ابن عساكر فى بغداد مدة سنة حيث عاد إلى دمشق فأقام قليلاً، ومن

هناك توجه إلى الحجاز، وفى الحجاز قضى فريضته فى الحج والزيارة والتقى بعدد من العلماء من أهل الحجاز، ومن جاء لأداء فريضة الحج، فأخذ عنهم، ومن جديد قرر التوجه إلى العراق، وأقام هذه المرة خمس سنوات هناك، درس خلالها فى النظامية، وزار مدن العراق فلقى بها العلماء وأخذ عنهم.

وعاد مجدداً إلى دمشق، وقد ملك طاقات علمية كبيرة، فلم يعد تلميذاً فقط بل وصل إلى حالة يمكنه فيها من العطاء وذلك بالإضافة إلى الأخذ، وشعر ابن عساكر بحاجته إلى مزيد من التحصيل، لذلك قرر مجدداً التوجه شرقاً، فذهب إلى العراق سنة ٥٢٩هـ، حيث أقام قليلاً، ثم اتجه إلى خراسان، فزار كبريات المدن هناك مثل: همذان، والرى، وأصبهان، ونيسابور، وبيهق، وتبريز، وسرخس، ولقى العلماء وأخذ عنهم.

وفى سنة ٥٣٣هـ أنهى رحلته وعاد إلى بغداد، ومضى إلى دمشق حيث قرَّ به القرار، وبدأ يحدِّث فى دمشق ويعلم، وذلك بعد شىء من التردد، ويمكن أن نعتبر الفترة الواقعة ما بين سنة ٥٣٣ وسنة وفاته فى ٥٧١هـ هى فترة العطاء الخصب فى حياة ابن عساكر، حيث صنف عدداً كبيراً من الكتب، ووقف وقته كله على العلم، فأعرض عن مغريات الدنيا، وصرف وجهه عن المناصب والوظائف، واحتقر المال واعتبره من توافه الحياة التى ترفع عنها، ولهذا أخذ نفسه بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، فحظى بمكانة رفيعة للغاية بين أهل دمشق، واحترمه الناس جميعاً من عوام وأصحاب السلطان.

وجاءت وفاة ابن عساكر، أيام صلاح الدين الأيوبى، وقد سار صلاح الدين الأيوبى فى جنازته حاسر الرأس متأسفاً على فقدانه.

مصنفاته:

ذكر له الذهبى ما يزيد على الأربعين مصنفاً، وتنصب على التاريخ والفقه والحديث، ويرد بعضها على المناوئين للمذهب.

ومن أبرز هذه المصنفات وأشهرها:

١ ـ تاريخ دمشق ـ وقد عنى مجمع دمشق بنشره.

٢ ـ تبيين كذب المفترى فيما نسب إلى أبى الحسن الأشعرى.

٣ ـ مختصرات أماليه الطاهرية بدمشق.

ولم يتأت خلود ابن عساكر وشهرته من مؤلفاته العظيمة هذه، بل بسبب تصنيفه تاريخ مدينة دمشق، فهو أوسع كتاب صنف لمدينة، وهذا الكتاب يشكل بحد ذاته ثروة رائعة فى التراث العربى.

لقد نال كتاب ابن عساكر شهرة كبيرة، لهذا ذيل عليه عدد من الكتاب، كما اختصره عدد آخر أو انتخبوا منه، إنما المنتخبات والمختصرات لا تُغنى عن الكتاب نفسه.

إن كتاب ابن عساكر ليس تاريخاً لمدينة دمشق وحدها أو بلاد الشام فقط، إنه تاريخ لرجالات العالم الإسلامى مشرقه ومغربه، فيه تتجلى وحدة هذه الأمة وتفاعل أحداثها، فالذين ذكرهم ابن عساكر من غير أهل الشام هم أكثر بكثير من الشاميين، وعلى هذا تكمن أهمية كتاب ابن عساكر، وخلوده ليس لكونه أرخ لأعرق مدينة فى التاريخ فقط، ولكنه لأنه أرخ لرجالات خير أمة أُخرجت للناس.



ابن قتيبة الدَّيْنَوَرى
٨٢٨ ـ ٨٨٩م
الأديب والمؤرخ العربى متشعب الثقافة

إن الذى يذكر الجاحظ وعلمه وفضله وكتبه لا يستطيع أن يقف عنده، بل لابد له أن ينطلق مباشرة إلى عالم آخر من علماء العربية ومفكر من مفكرى الإسلام ومؤلف واسع الباع عميق الإدراك متشعب الثقافة متنوع أسباب المعرفة، هو أبو محمد عبد الله بن مسلم المعروف بابن قتيبة الدينورى. وإنما يذكر ابن قتيبة إذا ذكر الجاحظ لأن الجاحظ كان مفكر المعتزلة وخطيبهم. وابن قتيبة خطيب أهل السُّنة ومفكرهم. ومن هنا قيل إن ابن قتيبة لأهل السُّنة مثل الجاحظ للمعتزلة.

وابن قتيبة لم يعمر طويلاً كما عمر الجاحظ وإنما كانت حياته ثلاثاً وستين سنة مليئة بالعلم والمعرفة والإنتاج، فقد ولد ببغداد سنة ٢١٣هـ إلا أنه سكن الكوفة بعض الوقت، وتوفى ببغداد على أرجح الروايات سنة ٢٧٦هـ. وإذا كان الجاحظ قد ألف خلال القرن الذى عاشه ثلاثمائة وستين كتاباً، فإن ابن قتيبة قد ألف ثلاثمائة كتاب أكثرها من المستوى الرفيع الذى تزدان به المكتبة العربية ويتشرف به الفكر الإسلامى.

ومن الأمور التى تدعو إلى الإعجاب أن ابن قتيبة على كثرة ما ألف ونفاسة ما كتب لم يكن متفرغاً للكتابة والتأليف كل الوقت، بل إنه اشتغل بالقضاء فترة من حياته فى مدينة دينور، وهو من أجل ذلك قد لصق به لقب الدينورى.

لقد كان ابن قتيبة دائرة معارف بشخصه تماماً كما كان الجاحظ الذى لا نستبعد أن يكون رآه. إذ أنه فى السنة التى توفى فيها الجاحظ كان ابن قتيبة يناهز الأربعين عاماً. ومعنى ذلك أنه كان يقرأ للجاحظ وإن اختلف معه فى جوهر التفكير

الدينى، ولكنهما من حيث طرق أبواب المعرفة والتأليف فيها نجد لكل منهما أثراً علمياً فى الموضوع الواحد. فكلاهما كتب عن القرآن والقراءات وعن الحديث. وإن اختلف مفهوم كل منهما عن الآخر. وكلاهما ألف فى الأدب والنقد والحيوان، وإن كان ابن قتيبة مال إلى التخصص فألف فى الخيل وحدها دون بقية أنواع الحيوان. وكلاهما كتب أيضاً عن النبوة. وكلاهما أيضاً كتب عن النبات، فلابن قتيبة كتاب بهذا الاسم، وللجاحظ كتاب باسم: النخل والزرع.

هذا وربما وجدنا لابن قتيبة كتباً لم يطرق الجاحظ أبوابها مثل كتاب الأشربة أو كتاب الأنواء والجراثيم وحكم الأمثال والتقفية وغير ذلك.

على أننا لا نطلب من كل من العالمين الجليلين أن يكون كل واحد منهما فى عناوين كتبه وموضوعاتها صورة من صاحبه، فإن واحداً منهما والحال كذلك سوف يكون مقلداً وسوف يكون الآخر أصيلاً. إلا أن واقع الحال هو أنه كان لكل من الجاحظ وابن قتيبة فكره المستقل الأصيل وموضوعاته التى تخصص فيها وقدم فيها الجديد من أسباب العلم والفكر من موضوعات المعرفة مع اختلاف شديد بين الطبيعتين والمذهبين.

هذا وإذا كنا قد ذكرنا للجاحظ كتاباً أو أكثر للتسوية بين العرب والعجم فإن ابن قتيبة مع كونه غير عربى يكتب كتابين فى التحمس للعرب والدفاع عنهم وإثبات فضلهم، الأول هو: الرد على الشعوبية، وهو مطبوع، والثانى هو: فضل العرب على العجم وهو لا يزال مخطوطاً.

إن ابن قتيبة إذا كان قد ألف زهاء ثلاثمائة كتاب فإن له بين أيدينا أربعة عشر كتاباً مطبوعاً وثلاثين كتاباً مخطوطاً منتشرة فى مختلف مكتبات العالم أورد أكثرها بروكلمان ومحقق كتاب الشعر والشعراء ومحقق أدب الكاتب.

على أننا قد نجد من الضرورى أن نشير إلى أهم كتب ابن قتيبة المطبوعة البالغة عددها أربعة عشر كما ذكرنا وهى:

١ ـ عيون الأخبار.

٢ ـ الشعر والشعراء. ٣ ـ أدب الكاتب.

ابن ماجد

١٤٢٠ ـ ١٤٨٩م

الربان الماهر... أمير البحر العربى

لقد ساد الاعتقاد لفترة طويلة من الزمن بأن المؤلفات عن البحر والملاحة الفلكية لم تكتب على الإطلاق إلى أن اكتشف فى العشرينيات من القرن الماضى مخطوط عربى قديم يرجع عهده إلى القرن الخامس عشر الميلادى كانت مكتبة المخطوطات بباريس قد حصلت عليه فى عام ١٨٦٠ من أستاذ جزائرى تولى التدريس فى مدرسة اللغات الشرقية بباريس فى ذلك الوقت وظل المخطوط المذكور منسياً فى أرشيف المكتبة تحت رقم ٢٢٩٣ رغم إشارات عابرة عنه حتى الثلث الأول من القرن العشرين حين قام المستشرق الفرنسى الألمعى جبرييل فراند بالتحقق من قيمته العلمية فنشره لأول مرة بين السنوات ١٩٢١ ـ ١٩٢٣.

ويحتوى هذا المخطط على تسعة عشر مؤلفاً من الملاحة الفلكية وفنون البحر لربان عربى من عمان يدعى شهاب الدين أحمد بن ماجد السعدى أو النجدى كما كان يُسمى عاش فى أواخر القرن التاسع.

ويعتبر هذا المخطوط فى الواقع أهم وثيقة فى الجغرافيا الفلكية والملاحية وصلتنا من العصور الوسطى على الإطلاق وتنحصر أهميته فى أنه أقدم الوثائق الجيدة التى وصلتنا والتى دونت عن الملاحة وفنون البحر فى البحار الجنوبية بين الساحل الشرقى لأفريقيا وبلاد الصين بلغة من اللغات كما أنه يرد فيه لأول مرة ذكر اسم لعلم جديد هو «علم البحر» بمعناه الواسع مما نعرفه اليوم باسم علم الاقيانولوجيا ولهذا أثره الكبير فى تاريخ العلوم.

ثم إن هذه الوثيقة لتلقى كثيراً من الضوء على مقدار ما بلغه العرب من تقدم فى فنون البحر والملاحة حتى القرن الخامس عشر وعلى مدى تأثر البرتغال بالفكر العربى وبالتعاليم والتقاليد الملاحية العربية بشكل عام وفى المحيط الهندى بشكل خاص وفضلاً عن ذلك فإن هذه الوثيقة تحتوى أيضاً على كثير من المصطلحات العلمية والفنية التى تعتبر فى حد ذاتها ثروة كبرى للغة العربية فى الوقت الذى نسعى فيه لتعريب العلوم.

ولقد عثر فى دمشق فى عام ١٩١٩ على نسخة أخرى من المخطوط المذكور قام بالتعليق عليها ومقارنتها بنسخة باريس المستشرق جبرييل فراند أيضاً، وفى مكتبة باريس أيضاً مخطوط آخر برقم ٢٥٥٩ يحتوى على خمس رسائل ملاحية للشيخين أحمد بن ماجد وسليمان المهرى يرجع عهده لمنتصف القرن السادس عشر الميلادى ولكنه ليس بنفس القيمة التى عليها مخطوط ابن ماجد وحده.

ولقد عثر الأستاذ كراتشكوفسكى المستشرق الروسى بمكتبة الاستشراق فى لينينجراد على ثلاث «أراجيز» أخرى لابن ماجد لم يسبق نشرها قام بنشرها والتعليق عليها الأستاذ تيودور شوموفسكى الذى نشر كتابه باللغة الروسية فى عام ١٩٥٧.

ويقال إن ثمة رسالة لابن ماجد بجدة وأخرى بالموصل أيضاً وثالثة بفيينا.

* * *

وينحدر ابن ماجد نفسه من أسرة ربابنة فقد كان أبوه ربانا يلقب بربان البرين (أى بر العرب وبر العجم) وقد دون هو الآخر تجاربه الملاحية فى مصنف ضخم هو (أرجوزته الحجازية) التى تضم أكثر من ألف بيت فى وصف الملاحة فى البحر الأحمر وكان جده هو الآخر ملاحاً مشهوراً.

ولا يعرف على وجه التحقيق تاريخ ميلاد هذا الربان الماهر والمعلم القدير ولا تاريخ وفاته إلا أن الثابت أن نشاطه ينحصر فى النصف الثانى من القرن الخامس عشر الميلادى، كما أنه درس الحساب وهو بعد صبى صغير.

ومن الثابت أيضاً أن مؤلفنا قد تجاوز الستين من عمره وشهد أوائل القرن العاشر الهجرى وقد وجدنا فى أرجوزته المسماة «ضريبة الضرايب» ما يعزز ذلك.

ولا ترجع شهرة الربان العربى إلى كونه مؤلفاً ترك للتراث العربى ذخيرة مهمة من المؤلفات العلمية والتكنولوجية عن البحر وفنون الملاحة فحسب، بل إنه كان أيضاً المرشد لسفينة فاسكو دى جاما البرتغالى من ثغر ماليندى على خط عرض ٣ درجات جنوب خط الاستواء على الساحل الشرقى لأفريقيا إلى كلكتا فى عام ١٤٩٨م. وقد اعترفت حكومة البرتغال نفسها بذلك الأمر مؤخراً فأقامت نصباً تذكارياً فى ماليندى يخلد هذه المناسبة..

مؤلفات ابن ماجد

باستثناء كتاب الفوائد فإن أغلب مؤلفات ابن ماجد الأخرى كتبها بالشعر بعضها قصائد طويلة والأخرى قصيرة وكثيرة منها يصف المسالك الملاحية فى المحيط الهندى وبحاره وأطرافه وخلجانه وكذلك فى أرخبيل الملايو وبحر الصين ونحن نورد قائمة من المعروف منها كما يلى:

١ ـ كتاب الفوائد فى أصول علم البحر والقواعد.

٢ ـحاوية الاختصار فى أصول علم البحار.

٣ ـ الأرجوزة المعربة التى عربت الخليج البربرى من رأس حافونى إلى باب المندب.

٤ ـ قبلة الإسلام فى جميع الدنيا.

٥ ـ أرجوزة كنز المعالمة فى علم المجهولات فى البحر والنجوم والبروج.

٦ ـ أرجوزة فى النتخات لبر الهند وبر العرب.

٧ ـ الأرجوزة المسماة بميمنة الأبدال.

٨ ـ أرجوزة مخمسة.

٩ ـ أرجوزة فى عدة الشهور الرومية.

١٠ ـ الأرجوزة المسماة «ضريبة الضرايب».

١١ ـ الأرجوزة المنسوبة لعلى بن أبى طالب.

١٢ ـ الأرجوزة الملكية (من مكة لجدة إلى فرتك لكالكوت ودايول وكنكن

وجوزرات والأطواح وهراميز).

١٣ ـ الأرجوزة المسماة نادرة الأبدال فى الواقع وذبان العيوق.

١٤ ـ أرجوزة بر العرب فى خليج فارس.

١٥ ـ أرجوزة القسمة الجمة على أنجم بنات نعش.

١٦ ـ القصيدة الذهبية.

١٧ ـ الأرجوزة المسماة بالفائقة فى قياس الضفدع.

١٨ ـ البليغة فى قياس السهيل الرامح.

١٩ ـ فصل فى معرفة قياس المارزة.

٢٠ ـ فصل فى معرفة النتخة الجاه. عشرة فى أرض جوازرات.

٢١ ـ فصل فى معرفة البلدة فى أرض جوزرات.

٢٢ ـ فصل فى معرفة البلدة على جاه عشرة.

٢٣ ـ فصل فى معرفة المنتخ.

٢٤ ـ فصل فى معرفة البلدة إذا كان من داخل الباب.

٢٥ ـ فصل فى معرفة البلدة جوزرات على جاه عشرة ربع من المازرة.

٢٦ ـ فصل فى معرفة دائرة القطب من روس بحر العرب.

٢٧ ـ ٢٩ ـ ثلاث أزهار هى: «الراهنامات» التى حققها شوموفسكى عام ١٩٥٧ وهى على الترتيب: الأرجوزة السفالية وأرجوزة بر الهند وسيلان والصين والأرجوزة التائية فى تصريف المجارى من جدة إلى عدن.



ابن مسكويه

٩٤١ـ ١٠٣٠م

من الأسماء المضيئة التى صنعت الحضارة الإنسانية

ابن مسكويه من الأسماء المضيئة التى صنع أصحابها ملامح شتى فى وجه الحضارة الإنسانية بصفة عامة والحضارة الإسلامية بصفة خاصة.

إنه المفكر الإسلامى والعالم الجليل الذى يُعد من أبرز علماء الأخلاق فى العالم أجمع بشهادة الغربيين قبل الشرقيين.

وعلى الرغم مما تعرض له فى صدر حياته من بعض المتاعب المالية والأزمات النفسية، إلا أنه استطاع بالجد والمثابرة والصبر الطويل أن يحقق لنفسه مكانة مرموقة فى مجتمعه وينجز العديد من الأعمال التى أضافت إلى التراث الإنسانى كنوزاً فكرية وعلمية، كانت لها آثارها البعيدة على مسيرة الحضارة الإنسانية.

فابن مسكويه.. فيلسوف وأديب ومؤرخ وعالم كيمياء.. اشتهر فى عالم الفلسفة بفلسفته الأخلاقية، فله فى هذا الصدد كتاب «تهذيب الأخلاق»، وكتاب «الفوز الأصغر» و«مجموعة من الحكم» نقلها عن حكماء الهند وفارس واليونان، والعرب.

كان مولعاً بالتاريخ وذلك لما يتضمنه من التجارب الإنسانية على توالى العصور فقام بتأليف كتابه المعروف باسم «تجارب الأمم».

هو «أبو على بن يعقوب الملقب بابن مسكويه».. وهى لفظة مركبة تركيباً أعجمياً ومعناها: «رائحة المسك» وهذا كناية عما تميز به شخصه من خصال

حميدة فاضلة... وهو ينتمى إلى أسرة ذات جاه وعراقة. كان والده يعيش فى سعة وترف لكن هذا الوالد سرعان ما فارق ابنه، وودع الدنيا وهو لم يزل فى عمر الشباب.. الأمر الذى جعل «فيلسوفنا» لم يحاول أن يعتمد فى تعليمه على أستاذ بعينه.. فلا يذكر التاريخ أنه كان يتلقى العلم على واحد من الأساتذة، ولم يقتنع بالذهاب إلى المدرسة لتلقى دروسه، وإنما آثر أن يعمل نفسه بنفسه.. كان حبه للحقيقة يدفعه دائماً إلى الاجتهاد، وتكبد مشقة التحصيل.. وساعده على ذلك، طبيعة العمل الذى كان يؤديه، فقد عمل أميناً لمكتبات قصور الأمراء التى تردد عليها خلال سنين طويلة.. ومن ثم، كان «الكتاب» بالنسبة إليه «ينبوع الثقافة» و«المعلم» و«الجامعة» التى تربى فيها.

عاش «ابن مسكويه» فى ظل دولة بنى بويه التى بلغت أوج مجدها وعظمتها فى زمن الخليفة «عضد الدولة»، فكان يشرف على مكتبات أمرائها المكدسة بالكتب النادرة التى أثرى منها ثقافة، وفكراً، وعلماً.

قضى فيلسوفنا فترة من عمره فى رحاب الخليفة «عضد الدولة» الذى كان شغوفاً بالكشوف العلمية، وبما أبدعه العلماء، خصوصاً فى دنيا الكيمياء.. ولقد كان ابن مسكويه يركز اهتمامه - فى بادئ الأمر - على الكيمياء، فكانت آنئذٍ شغله الشاغل، حيث راح يستخلص النتائج من خلال عملية مزج المواد وخلط عناصرها، عارضاً هذه النتائج على الخليفة. فكان بذلك يشبع فضوله الشديد فى هذا الشأن، حتى إن الخليفة كان يتناول طعامه فى حين يقف ابن مسكويه إلى جانبه ليسأله عن تلك العناصر التى تتألف منها الأطعمة، وعن منافعها ومضارها!

ولئن كانت علوم الكيمياء قد شغلت ابن مسكويه فترة من حياته، إلا أنه لم يكتف بها، ولم يتوقف عندها، وإنما راح يشق طريقه إلى الفلسفة، وينهل من معينها ويضعها فى موضعها الصحيح اللائق بها.. فقد كانت - فى زمنه - تمثل نوعاً من المعارف النظرية: من منطق، وطبيعة، ورياضيات وسياسة وأخلاق واقتصاد.

اطلع ابن مسكويه على نتاج العقل اليونانى، ودفعه إعجابه بأفلاطون إلى قراءة كل كتبه.. وقد زاد إعجابه بأرسطو. كذلك تأثر بنتاج فلاسفة الإسلام.. ومنهم الكندى والفارابى وابن سينا.

كان شاهدا على عصره

وإذا كانت الحياة قد ازدهرت فى حكم «بنى بويه»، وعم الرخاء والتقدم، إلا أن هذا لم ينف ما أصاب هذه الحياة من فساد وانحراف وفوضى!! فقد غرق الناس فى ملذاتهم ومتاعهم، وعبثهم. وجاء فيلسوفنا لكى يكون شاهداً على عصره الذى فقد قيمة الأخلاق وأضاع مثله العليا!!

فظهر هذا الفيلسوف كرد فعل لهذه السيئة التى انحدرت إليها البلاد فكانت فلسفته الأخلاقية، أصدق تعبير عما يحتاج إليه مجتمعه من قيم، ومبادئ، وفضائل، ومن هنا كانت أغلب كتاباته فى الدعوة إلى إصلاح النفوس وتوجيهها إلى حياة أفضل. فنراه يحدثنا فى هذا الصدد فى كتابه «تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق» فهو يرى أن الناس إما أخيار بالطبع، أو أشرار بالطبع، أو لا أخيار ولا أشرار، لكن التطبيع الاجتماعى يجعلهم أخياراً أو أشراراً.. وهو يعنى بالشخص الخير.. الشخص الذى تصدر عنه الأفعال الإنسانية.

أما علم الأخلاق، فهو عنده ذلك الذى يبحث فيما يجب أن تكون عليه أخلاق الإنسان فى الجماعة... لهذا، كانت محبة الناس فى نظره إنما هى أساس كل الفضائل.. وهو يرى أن «أحكام الشريعة» لو فهمت فهماً صحيحاً لأصبحت أشبه بالركيزة التى يقوم عليها مذهب أخلاقى قوامه محبة الإنسان للإنسان.

وقد ألف ابن مسكويه كتباً كثيرة فى الفلسفة والتاريخ لم يصلنا منها إلا ما يأتى:

١ ـ كتاب «تجارب الأمم فى التاريخ»، وقد استغرق هذا المؤلف ستة مجلدات كبيرة.

٢ ـ كتاب: آداب العرب والفرس: وهو فى ستة مجلدات.

٣ ـ كتاب الفوز الأكبر: وهو فى الفلسفة وما يتعلق بها.

٤ ـ كتاب تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق: وهو من كتبه الهامة.

ابـن المقفـع

٧٢٤ ـ ٧٥٩ م

صاحب ذخائر الحكمة البشرية

فى كل دور من أدوار حياة الإنسان طائفة من المفكرين، يعجب بهم، ويحذو حذوهم، حتى إذا ما اجتاز ذلك الدور، تضاءلت قيمهم أمامه، وأخذ يضحك من نفسه لأنه كان يوماً ما معجباً بهم يردد آراءهم وينشد أشعارهم. ولكن هناك قلة من المفكرين يعجب بهم الإنسان فى مختلف أدوار حياته، وكلما تقدمت به السن وازداد نضجه العقلى ازداد إعجابه وتضاعف. ومن هؤلاء الأفذاذ القلائل عبد الله ابن المقفع (١٠٦ هـ ـ ١٤٥هـ).

ظهر ابن المقفع فى عصر يتطلع إلى كل جديد، وينزع إلى التخير وإلى تلقف الثقافات الجديدة. فظهر على عصره بقوة ثقافته واطلاعه على الثقافات الأخرى وهكذا كان قوة سيطرت على مجتمعه وكان لها أصداء وأصداء عبر الدهور والأزمان.

وأن من تتبع الحركة التى قام بها الرجل وجد لها أثراً ضخماً فى الفكر الأدبى والفلسفى والسياسى والتشريعى والقضائى عند العرب.

أما فى الفكر الأدبى فكان لما نقله ابن المقفع من أراء ومذاهب أثر واسع فى تفكير الأدباء والشعراء وفى توجيه التأليف عند العرب. وقد عُنى الشعراء عناية كبيرة بكتب ابن المقفع فنظموا بعضها كما فعل إبان اللاحقى وغيره بكليلة ودمنة. واغترفوا من حكمتها وآرائها ما ظهر بوضوح فى شعر كلثوم بن عمرو بن أيوب المعروف بالعتابى. وفى شعر المتنبى وأبى العلاء وغيرهم، وقد انبثت آراؤه فى العقل والمرأة والحيلة والرأى والمال فى الأدب العباسى كله تقريباً. وعرف الكتاب

من ابن المقفع طريقة الترجمة الفنية، وضرورة الأخذ بثقافات مختلفة وتوسيع نطاق المعارف والوقوف على ما للغير من علوم وآداب، واستناروا بابن المقفع فى ما هو من طريقة التحليل والجدل والكتابة الفنية الراقية، وراحوا يقتفون آثاره فى ما هو من الجمع لأقوال الحكماء والعلماء وغيرهم، حتى أن نفراً من العلماء مثل ابن قتيبة، وابن عبد رَبِّهِ، والطرطوشى، وابن حزم، وغيرهم ساروا على خطى ابن المقفع، ثم لم يقفوا عند هذا الحد بل أخذوا منذ عهد ابن المقفع تقريباً يحذون حذوه فى تأليف ما يماثل كليلة ودمنة.

وأما فى الفكر الفلسفى فقد ظهر أثر ابن المقفع فى ما كتبه الفارابى وابن سينا وغيرهما فى الفلسفة المدنية، فأقوالهما فى السياسة والولاة والأصدقاء وما إلى ذلك تذكر بأقوال كليلة ودمنة. ولقد استعار أخوان الصفاء اسمهم من باب الحمامة المطوقة، كما أنهم اقتبسوا طائفة من الأفكار المبسوطة فى كتب ابن المقفع وقد جاء فى الرسالة الرابعة من العلوم الناموسية والشرعية شىء كثير من أراء ابن المقفع فى الصداقة.

وأما فى الفكر الاجتماعى فقد دعا ابن المقفع إلى الإصلاح فى البلاط وفى القضاء وفى الخراج وفى كل ما يتعلق بالراعى والرعية، فنرى الخلفاء بعد المنصور يعنون باختيار صحابتهم، فتصبح البطانة بعد قليل ـ ولاسيما فى عهدى الرشيد والمأمون ـ معروفة بالعلم وحسن الرأى، ومؤلفة فى كثير من عناصرها على ما كان ابن المقفع يرمى إليه.

دعا ابن المقفع إلى إصلاح القضاء فإذا المحاولات تبذل بعده لإيجاد قانون يسير عليه القضاة.

ودعا ابن المقفع إلى الإصلاح فى أمر الخراج، فإذا الخلفاء يسمعون صوته، وإذا الرشيد يدعو أبا يوسف الفقيه (صاحب وتلميذ الإمام أبى حنيفة) لوضع كتاب فى الخراج.

وهكذا كان لابن المقفع فضل جم على العقل العربى وأثر بليغ فى عالم الفكر.

* * *

ولد روزبه بن دازوبه نحو سنة ٧٢٤م ـ ١٠٦هـ فى قرية بفارس اسمها «جور» وهى فيرزو أباد الحالية. ومعنى اسمه بالفارسية «المبارك». وكان اسم أبيه دازوبه وكان دازوبه متولياً خراج فارس من قِبل الحجاج فضربه الحجاج بالبصرة لمال احتجنه حتى تقفعت يده فعرف بالمقفع ـ وهناك رواية أخرى تقول ان اسمه: ابن المقفِّع بكسر الفاء المشددة لأن أباه كان يعمل القفاع ويبيعها. والقول الأول والذى بفتح الفاء المشددة هو المشهور بين العلماء. وعرف ابنه بعده بابن المقفع، ولما أسلم روزبه سمى عبد الله وكنى بأبى محمد.

هذا من جهة اسمه وأصله. أما نشأته فكانت فى فارس إلى جنب أبيه، يسعى فى تحصيل الثقافة الفارسية ويدين بالزرادشتية على مذهب المجوس ثم انتقل إلى البصرة وكانت مباءة رجال العلم والأدب، وفيها المربد منتدى الأدباء والشعراء، واتصل بآل الأهتم وهم أهل فصاحة، فكان مولى لهم يغترف من بلاغتهم ويتصل بالأعراب ويقومٍ لسانه على نطقهم، وهكذا تعلم العربية وتدرب على أساليب الفصاحة والبلاغة، واجتمع عاملان مهمان: عامل الثقافة الفارسية وفيها ثقافة اليونان والهنود، وعامل الفصاحة العربية، فقابل العالم الجديد بسلاحين قويين: سلاح الفكر وسلاح اللسان.

آثار ابن المقفع...

لم يعمر ابن المقفع طويلاً، ولم يتح له من الوقت ما ينصرف فيه إلى إبراز كل ما فى عبقريته من غنى، وقد ترك لنا مع ذلك من الآثار ما يشهد له بالنضج العقلى والعمق الفكرى، ونحن نستطيع أن نقسم آثاره إلى ثلاثة أقسام:

أما القسم الأول ففى التاريخ وما إليه وهو يحتوى:

١ ـ كتاب «خداينامه» أو «حداينامك» ومعناه «كتاب الملوك أو «كتاب السادة» فى تاريخ ملوك الفرس.

٢ ـ كتاب «آيين نامه» فى عادات الفرس ونظمهم ومراسيم ملوكهم.

٣ ـ كتاب «التاج» فى سيرة أنوشروان.

٤ ـ كتاب «الدرة اليتيمة والجوهرة الثمينة» فى أخبار السادة الصالحين.

٥ ـ كتاب «مزدك».

أما القسم الثانى من آثاره ففى الفلسفة، وقد نقل ابن المقفع عن الفارسية أيضاً ثلاثة كتب لأرسطو فى المنطق وهى:

١ ـ كتاب «قاطيغورياس» فى المقولات العشر.

٢ ـ كتاب «بارى أرمينياس» فى العبارة.

٣ ـ كتاب «أنا لوطيقا» فى تحليل القياس.

ونقل كتاب «ايساغوجى» أو المدخل لغرفوريوس الصورى.

وأما القسم الثالث ففى الأدب والاجتماع والسياسة والإخوانيات، ومرجعه إلى:

١ ـ **رسالة الصحابة:** فى نقد نظام الحكم ووجوه إصلاحه، ودستوراً من الدساتير الاجتماعية.

٢ ـ **الأدب الكبير والأدب الصغير:** وقد أطلق عليهما ابن المقفع اسم «الأدب» لأنهما يتناولان أموراً أخلاقية فى جوهرها.

ويتضح لنا أن الأدبين الكبير والصغير من ذخائر الحكمة البشرية، وأن الحكمة فيهما قائمة على أساس عقلى لا يخلو من صبغة دينية، وأنها من ثم ذات نزعة فلسفية عميقة المرمى، بعيدة الأغوار، وأنها عميقة العلم بالنفس البشرية ونزعاتها المختلفة، وبالسياسة البشرية والاجتماع البشرى، وأنها ذات نزعة مثالية.



ابـن منظـور

١٢٣٢ ـ ١٣١١م

صاحب أشهر المعاجم العربيـة

عانت مصر فى ظل الخلافة الفاطمية منذ أيام الخليفة المستنصر من العديد من الأزمات الاقتصادية والسياسية، ونظراً لطبيعة الخلافة الفاطمية العقائدية فإنها لم تتمكن من أداء دور ثقافى شامل، وإحداث نهضة عامة فى مصر، بل حدث العكس، لكن ما أن سقطت الخلافة الفاطمية حتى تحررت مصر، وشرعت فى أداء دور سياسى وحضارى واقتصادى قيادى، ولم يعد أزهر القاهرة داراً عقائدية طائفية، بل صار مصدر إشعاع للمعرفة الشاملة لكل العرب والمسلمين، وتجلت صور النهضة فى مصر أثناء العصرين الأيوبى والمملوكى بعدة ميادين، فقد امتلأت القاهرة بالعلماء، خاصة بعد سقوط بغداد، وصارت القاهرة محج العلماء ودار هجرتهم من كل مكان، وصنعت إنجازات كبيرة على صعيد الفقه، والطب، والتاريخ والعلوم والآداب واللغة، ويكفى فخراً أن قاهرة العرب الجديدة كانت دار ابن منظور أشهر المعجميين العرب صاحب لسان العرب.

وابن منظور هو: محمد بن جلال الدين مكرم بن نجيب الدين أبو الحسن على ابن أحمد بن أبى القاسم بن حبقة بن محمد بن منظور، نسب إلى جده السابع وانتهى بنسبه إلى الصحابى الأنصارى رويفع بن ثابت، ورويفع هذا ولاه معاوية بن أبى سفيان طرابلس سنة ست وأربعين، وشارك فى فتوح أفريقيا، ومات فى برقة وكان يليها لمسلمة بن مخلد.

ولد ابن منظور كما هو مرجح فى القاهرة، ويروى أن ولادته كانت فى طرابلس

الغرب، وقد يكون هذا، فطرابلس ألحقها صلاح الدين بمصر، وليس هذا بالمهم، بل الأهم هو أن ابن منظور نشأ فى القاهرة وفيها نال علومه، وفيها عمل ونال شهرته.

وأسرة ابن منظور كما أورده ابن منظور بنفسه فى ثنايا ومقدمات بعض كتبه، كانت أسرة تتمتع بمكانة اجتماعية رفيعة وتشارك فى الأعمال الثقافية.

وأن ابن منظور فقد والده وله خمس عشرة سنة من العمر، وأن طفولته كانت مشغولة بالعلم والتحصيل، ويبدو أنه بعد وفاة والده تابع ابن منظور اهتماماته، فجلس إلى الشيوخ جلوساً منتظماً، ولم يشر ابن منظور لشيوخ فى مصنفاته، فهو كان شديد الاعتداد بنفسه مهتماً بها دون غيرها، حتى إنه كان ينال بشكل مباشر أو غير مباشر من بعض معاصريه أو شيوخه وسواهم، ممن تناول كتبهم واختصرها، ذلك أن ابن منظور اهتم باختصار العديد من الكتب وتهذيبها.

أجاد ابن منظور علوم اللغة واستوعبها، فكان أديباً، عالماً، وشاعراً له نظم حسن، كما أنه كان غزير الإنتاج، إنما دونما إبداع، فهو قد اختصر كتب غيره، وشغل نفسه بنسخ بعضها، وطابع الاختصار هو الذى غلب عليه.

ولا شك أن هذا استغرق منه وقتاً وجهوداً كبيرة، ومما لا شك فيه أن جهوده هذه كلها، بذل أضعافها حين عمل على إخراج كتاب لسان العرب أعظم معاجم اللغة العربية وأغناها وأشهرها فى نفس الوقت، ومن مبدأ الاختصار قام ابن منظور بصنع كتابه هذا، لكن مع فارق بالطريقة وطبيعة العمل.

وعُمِّر ابن منظور حتى جاوز الثمانين، ولقد عاش عمره كله يقرأ ويكتب، لكنه قبل مبارحته لهذه الدنيا بسنوات فقد بصره، فتابع حياته يسمع ويلقن، ولا شك أن عدد الذين استفادوا منه كبير، رغم أن البعض تمنى مقاطعته أو أظهر تحرجاً فى صحبته لما أصابه من غلو فى تشيعه كاد يخرجه إلى الرفض.



ابـن النفيـس

١٢١٠ ـ ١٢٨٨م

العالم الذى رفع من شأن العلم على مر الأجيال

كان ابن النفيس إماماً فى الطب لا يضاهى فى ذلك ولا يدانى استحضاراً واستنباطاً. هذا ما قاله أحد معاصريه.

صنف فى المنطق والفلسفة وأصول الفقه والعربية والحديث وعلم البيان. وله فى هذا كله رسائل نفيسة وتآليف قيمة.

وكان لتضلعه فى هذه الألوان المختلفة من المعرفة أكبر الأثر فى قوة الاستيعاب عنده وفى التوسع فى ميادين الفكر والعلم والطب. ولم يكن هذا هو الذى حلق به فى أجواء العبقرية والنبوغ، بل إن سر عبقريته ونبوغه يكمن فى مزايا لم يحملها غيره من معاصريه أو من كثير من الذين أخذ عنهم ودرس عليهم.

فقد كان مستقلاً فى التفكير والرأى، يعتمد فى استنتاجات على العقل والملاحظة والتجربة. وقد أشرب روح النقد مما دفعه إلى مخالفة الأراء الشائعة المتداولة ومعارضة الفلاسفة والحكماء من الذين سبقوه.

كان يمحص الآراء ويدرسها ويسلط عليها عقله ومنطقه وخبرته، فإذا خرج بصحتها أخذ بها، وإذا لمس فيها الخطأ أو الشذوذ بيّن فسادها ودعا إلى نبذها وإهمالها.

ولعل استقلاله هذا وروح النقد ـ التى كان يحملها ـ كانا من العوامل التى جعلت ابن النفيس يسبق عصره فى العلاج والتطبيب العلمى فجاء بأراء ونظريات

هى فى الواقع فتح فى ميدان الطب وعلم وظائف الأعضاء.

لقد كشف «ابن النفيس» الدورة الدموية، وقال: «إن الدم ينقى فى الرئتين» قبل «سرفيتوس» بثلاثة قرون.

لقد كان الشائع فى زمن ابن النفيس الرأى الذى قال به جالينوس وابن سينا، وهو «... إن الدم يتولد فى الكبد ومنه ينتقل إلى البطين الأيمن فى القلب ثم يسرى بعد ذلك فى العروق إلى مختلف أعضاء الجسم فيغذيها، وإن بعضه يدخل البطين الأيسر عن طريق مسام فى الحجاب الحاجز حيث يمتزج بالهواء الذى يأتى من الرئتين. وكان هذا المزيج يسمى بالروح الحيوى الذى ينساب فى الشرايين إلى مختلف أنحاء الجسم. والظاهر أن هذا الاعتقاد جاء مصداقاً للحقيقة الآتية: وهى أن عروق الموتى تكون عادة طافحة بالدم مملوءة به فى حين تكاد الشرايين أن تكون خالية منه. على أننا نعلم الآن السبب فى ذلك يعود إلى أن النبضات الأخيرة للقلب تنضح بالدم من الشرايين.. ولكن الأطباء فى العصور الوسطى والقديمة لم يدركوا هذه الحقيقة ولم يعرفوا شيئاً عن الدورة الدموية..».

ولقد قام ابن النفيس يعارض هذه الآراء وينقدها حتى ولو كانت من جالينوس أو ابن سينا.

ولم يقف عند هذه الحدود، بل خطا خطوات إيجابية وخرج من ملاحظاته وخبراته ودراساته إلى أن الدم ينساب من البطين الأيمن إلى الرئة، حيث يمتزج بالهواء ثم إلى البطين الأيسر، وهى الدورة التى نسميها اليوم بالدورة الدموية الصغرى.

وهكذا أصبح ابن النفيس الإمام الأول «لهارفى» الطبيب البريطانى الشهير، الذى خطا فى المسألة خطوة جديدة، وكشف سنة ١٦٢٨ الدورة الدموية الكبرى من البطين الأيسر إلى الشرايين، ومنها إلى الأوردة ثم البطين الأيمن.

* * *

ولد ابن النفيس فى دمشق إبان حكم الأيوبيين لها، وكانت كعبة للعلم والعلماء آنذاك بها بيمارستان أى مستشفى يضم أعظم الأطباء، وعلى رأسهم مهذب الدين عبد الرحيم على المسمى «بالدخوار» أستاذ ابن النفيس ونظرة إلى ما وصف به

«الدخوار» وما كتب عنه تعطينا ضوءاً عن نشأة ابن النفيس وثقافته.

ففى كتاب «مسالك الأبصار فى أخبار ملوك الأمصار» كتب مؤلفه عن «الدخوار» يقول: «كان فى الحكماء علماً، وفى الإثبات الحكم قلماً، وكان لفروع الطب شجرة يكاد زيتها يضىء «وكأنه جالس أرسطاطاليس».

وقال عنه ابن أبى أُصَيْبِعَة: «كان رحمة الله أوحد عصره، وفريد دهره، وعلامة زمانه، فاق أهل زمانه فى صناعة الطب، وحظى عند الملوك، ونال من جهتهم من المال والجاه ما لم ينله غيره من الأطباء، وولاه السلطان الكبير رئاسة أطباء ديار مصر بأسرها وأطباء الشام».

وقد أوصى الدخوار بأن يحول بيته ومكتبته بعد مماته إلى مدرسة للطب لقبت بالدخوارية.

وتتلمذ ابن النفيس كذلك على عمران الإسرائيلى، وكان طبيباً ذائع الشهرة، زامل الدخوار فى البيمارستان الكبير.

وكانت طريقة تعليم الطب تمتاز بالتدقيق فى فحص المرضى، وبمتابعة مظاهر المرض فى تطورها، واستجابتها للعلاج، وإبداء الرأى سواء من الأساتذة أو الطلبة، كل حسب ما يرى، وما يمليه عليه فكره وعقله. وتلك هى الطريقة «الإكلينيكية» الصحيحة التى ابتدعها العرب لفترة طويلة قبل أن يأخذها عنهم الغرب.

وفى هذا الجو العلمى الصحيح المبنى على الخبرة، والأصالة فى التفكير والبحث والتنقيب، وإبداء الرأى بحرية تامة نشأ ابن النفيس.

ثم عمل ابن النفيس فى مصر بالمستشفى الذى أقام صرحه الناصر صلاح الدين الأيوبى والمسمى «بالناصرى»، وتدرج فى مناصبه إلى أن أصبح رئيساً لأطبائه، وفتح باب داره على مصراعيه لطلاب العلم والعلماء، وكان يحضر مجلسه الخيرة من أهل العلم.

ولقد درس ابن النفيس كتب جالينوس وابن سينا، ولكنه كان يمحصها، ويحكم فيها عقله، ويبعد عن تلاميذه الأقوال التى يشك فى صحتها، ولا أدل على ذلك من قوله: «وأما منافع الأعضاء فإنما يعتمد فى تعريفها على ما يقتضيه النظر المحقق،

والبحث المستقيم، ولا علينا أوافق ذلك الرأى من تقدمنا أو خالفه».

كان ابن النفيس كثير التأليف، فقد روى أنه قال: «لو لم أعلم أن تصانيفى تبقى مدة عشرة آلاف سنة ما وضعتها». وكان ملماً بكل ما كتب قبله وموهوباً بقوة نقدية نادرة فى ذاك الوقت، فقد اشتهر بانتقاده لجالينوس الذى لم يجرؤ على نقده إلا قلة من العلماء، وبالعكس فإنه كان يعظم كلام أبقراط، وقيل: «إنه شرح كتبه كلها وإن لأكثرها شرحين، مطولاً ومختصراً»، وكان يجل ابن سينا «ويحفظ كليات القانون ولا يشير على مشتغل بغير القانون»، وهو الذى جسر الناس على هذا الكتاب.

وكان كريماً بمعلوماته وأوصى بوقف داره وما جمعه من الكتب للبيمارستان المنصورى وقد يكون استعداده لمشاركة تلاميذه فى معلوماته السبب فى أنه قيل عنه إنه: «الحبل الذى لا يعلق به إلا الفريق السالم، لم يبق إلا من اغترف منه غرفة بيده وأخذ منه حلية لمقلده». كما قيل إنه «كان لا يحجب نفسه عن الإفادة ليلاً ولا نهاراً».

ومن المؤسف حقاً أنه لم يبق من سيل كتاباته إلا النزر اليسير، ولعل سبب قلة ما وصل إلينا منها أنها كانت ـ بسبب كبر أحجامها ـ مما يصعب استنساخه، وربما كشف المنقبون فى خزائن الكتب فى المستقبل عن شىء مما ضاع منها.

على أننا نعرف منها الآتى:

١ ـ كتاب الشامل فى الطب.

٢ ـ كتاب المهذب فى الكحل.

٣ ـ كتاب المختار من الأغذية.

٤ ـ شرح فصول أبقراط.

٥ ـ شرح تقديمات المعرفة.

٦ ـ تعليق على كتاب الأوبئة لأبقراط.

٧ ـ شرح تشريح جالينوس.

٨ ـ شرح مسائل حنين بن إسحق.

٩ ـ شرح القانون، وقيل أنه شرح «فى عشرين مجلداً شرحاً حل فيه المواضع الحكمية».

١٠ ـ شرح مفردات القانون.

١١ ـ كتاب موجز القانون.

١٢ ـ تفاسير العلل وأسباب الأمراض.

١٣ ـ شرح «الهداية فى الطب».

١٤ ـ شرح تشريح القانون: وهو فى نظرنا مفخرة الطب العربى.

ويمكن اختصار ما ألفه ابن النفيس فى غير الطب على الوجه الآتى:

فى النحو: «طريق الفصاحة».

فى القانون: «شرح لكتاب التنبيه فى فروع الشافعية لأبى إسحق إبراهيم الشيرازى».

فى المنطق: «شرح كتاب الهداية فى الفلسفة لابن سينا» وهو كتاب يتناول المنطق. وقد قيل إنه شرح كتاب الهداية فى الطب لابن سينا ولعل هذا خطأ فى النسخ إذ يبدو أنهما كتاب واحد، ومما يؤسف له أنه لم يصل إلينا لا كتاب ابن سينا ولا شرح ابن النفيس له.

ـ «شرح الإشارات» وهو كتاب ابن سينا الرئيسى فى المنطق.

فى العلوم الدينية:

١ ـ «الرسالة الكاملية فى السيرة النبوية».

٢ ـ «مختصر فى علم أصول الحديث».

٣ ـ «فاضل بن ناطق».

ابن الهيثم. أبو على الحسن

٩٦٥ ـ ١٠٣٩م

من أكبر العلماء العرب

وصلت الحضارة العربية ذروتها فى العطاءات العلمية خلال القرنين الرابع والخامس للهجرة، ففى النصف الأول من القرن الخامس وجد أقطاب المعارف العلمية لدى العرب يتقدمهم ثلاثة رست على عواتقهم هذه المعارف ومثلوها خير تمثيل وهم: ابن سينا، البيرونى، وابن الهيثم، ومع أن الثلاثة كانوا ذوى ثقافة موسوعية، إلاّ أن كل واحد منهم غلب عليه اختصاص أو اختصاصان، فابن سينا كان طبيباً وفيلسوفاً قبل كل شىء، والبيرونى كان فلكياً فى المقام الأول، وابن الهيثم كان عالم الضوء ومهندس العرب الأول.

وابن الهيثم هو: أبو على محمد بن الحسن بن الهيثم، ولد فى مدينة البصرة، وفى البصرة نشأ ونال ثقافته حتى أتم تحصيله وظهرت أولى علامات عبقريته، ومن البصرة طارت شهرة ابن الهيثم، حيث انكب على أعمال التصنيف، ويبدو أنه تسلم بعض الأعمال الديوانية فى البصرة لبعض الوقت، وعلى قاعدة علماء عصره ارتحل ابن الهيثم فزار بغداد والأهواز ومناطق أخرى والتقى بالعلماء، وركز جهوده على علوم الهندسة، وأعلن عدة آراء هامة منها: «لو كنت بمصر لعملت فى نيلها عملاً يحصل به النفع، فقد بلغنى أنه ينحدر من موضع عال وهو فى طرف الإقليم المصرى».

ومن أهم مؤلفاته فى البصريات «كتاب المناظر». و«كتاب المرايا المحرفة بالقطوع»، و«كتاب المرايا المحرفة بالدوائر»، وفى الرياضة «شرح أصول إقليدس فى

الهندسة والعدد»، و«الجامع فى أصول الحساب»، و«تحليل المسائل الهندسية» و«تحليل المسائل العددية».

يقول الأستاذ مصطفى نظيف: إن ابن الهيثم فى أخذه بالاستقراء واعتماده على المشاهدة قد سبق بيكون بعدة قرون. ويضعه فى مقدمة علماء الطبيعة التجريبية، وقد تناولت تجاربه ضوء القمر، وضوء الكواكب، واستقصى أحوال الإضاءة الشديدة والإضاءة الضعيفة. ثم يجمل الأستاذ نظيف رأيه فى ابن الهيثم بقوله: «إنه عالم اجتمعت فيه صفات العالم بالمعنى الحديث فى عالم الطبيعة النظرية والتجريبية والتطبيقية، من طراز «كلفن» ـ ويقول إنه أبطل علم المناظر الذى وضعه اليونان، وأنشأ علم الضوء بالمعنى الحديث. وأن أثره فى هذا العلم لا يقل عن أثر نيوتن فى علم الميكانيكا».

وابن الهيثم فى ميدان علم الطبيعة. إن لم يكن من طراز الطبيعيين فى الجيل الحاضر. فإنه من غير شك من طراز علماء الطبيعة فى القرن التاسع عشر. وبحوثه المبتكرة فى علم الضوء تجعله فى مقدمة الأعلام الأفذاذ فى تاريخ هذا العلم علم الضوء، لقد أبطل علم المناظر القديم وأنشأ علم الضوء بالمعنى الحديث. فأبطل النظرية اليونانية القديمة التى كانت تقول بأن الرؤية تحصل من انبعاث شعاع ضوئى من العين إلى الجسم المرئى وأحل محلها أن الرؤية تحصل من انبعاث الأشعة من الجسم إلى العين التى تخترقها الأشعة فترتسم على الشبكية وينتقل الأثر من الشبكية إلى الدماغ بواسطة عصب الرؤية، لتحصل الصورة المرئية للجسم، وهو أول من قال بأن العدسة المحدبة ترى الأشياء أكبر مما هى عليه، وله بحوث فى تكبير العدسات مهدت لاستعمالها فى إصلاح عيوب العين وهو أول من شرح تركيب العين وبين أجزاءها، وسماها بأسمائها التى نستعملها اليوم كالشبكية، والقرنية، والسائل الزجاجى، والسائل المائى.



أبو بكر الرازى

٨٦٥ ـ ٩٢٥م

حَجة الطب فى أوربا وصاحب أكبر موسوعة طبية عربية

الرازى حُجة الطب فى أوروبا حتى القرن السابع عشر للميلاد ويعده معاصروه طبيب المسلمين غير مدافع.

ظهر فى منتصف القرن التاسع للميلاد، واشتهر فى الطب والكيمياء والجمع بينهما وهو فى نظر المؤرخين من أعظم أطباء القرون الوسطى كما يعده غير واحد أنه أبو الطب العربى.

قال عنه صاحب الفهرست: «... كان الرازى أوحد دهره وفريد عصره قد جمع المعرفة بعلوم القدماء لاسيما الطب». وسماه ابن أبى أصيبعة بجالينوس العرب.

ولد أبو بكر محمد بن زكريا الرازى فى الرى من أعمال فارس والرازى نسبة إلى الرى وهى نسبة على غير قياس.

ويقول البيروني في إحدى رسائله: إن الرازى ولد في الرى وتوفي بها، وكان منذ صغره يميل إلي العلوم الأدبية ويقول الشعر مولعاً بالموسيقي.

وكان للرازى منزلة رفيعة فى الطب وأطلق عليه (أبو الطب العربى)، كما كان يدعى (جالينوس العرب) لأنه ابتكر فى الطب أشياء لم يسبق إليها من ذلك أنه استخدم الموسيقا لوناً من ألوان العلاج لبعض الأمراض، كذلك كان من أول الذين عرفوا أثر الضوء فى حدقة العين وأنه يساعد على اتساعها ليلاً وانكماشها نهاراً

وقد استغل هذا الكشف فيما قام به من بحوث عصبية وفى مداواة أمراض الحصبة وكان صاحب الفضل على طب الأطفال إذ جعله فرعاً من الطب قائماً بذاته وكتب فيه كتابة مستقلة وكان يسلك فى علاج المرضى مسلكاً علمياً يشهد له بالنبوغ والعبقرية فلم يكن يسمح لمرضاه بتناول العقاقير الطبية - إلا بعد قيامه بتجربتها على الحيوان، ومما يروى عنه أنه عندما أراد أن يقدم مركبات الزئبق كملين لبعض المرضى جرب الدواء الذى أعده على قرد، فلما أثبتت التجربة نجاح الدواء بدأ يعطيه للمرضى. وكان نبوغه فى علوم الكيمياء من الأسباب التى عاونته على إعداد الأدوية بنفسه فكان يعمل طبيباً وصيدلياً فى وقت واحد من أجل ذلك نراه يفسر شفاء المريض بأنه نتيجة تفاعل كيميائى يحدثه الدواء فى جسم المريض. وهو أول من استخدم مركبات الرصاص فى صنع المراهم وأول من توصل إلى استخدام الخيوط المصنوعة من أمعاء الحيوانات فى خياطة الجروح المفتوحة بعد انتهاء العمليات الجراحية ويبين الرازى السر فى ذلك فيقول: «إن الخيوط المصنوعة من الأمعاء يمتصها الجسم فتصير جزءاً منه». وهو أول من قام بمعالجة الحمى بالماء البارد فسبق بذلك أطباء العصر الحديث، إذ لا يزال الماء البارد إلى اليوم علاجاً نافعاً لبعض أنواع الحميات وإلى ذلك كله كان من أوائل الأطباء الذين تنبهوا إلى العدوى الوراثية وأول من وصفوا بدقة ووضوح أمراض الجدرى والحصبة وميزوا بينها. ويقول البروفسور «بوشو» الفرنسى: «لقد وصف الرازى ضرباً من الجدرى يظهر بصورة على سطح الجسم بيضاء متلاصقة كأنها بقعة من الدهن».

وقد نبغ فى الفحص الطبى نبوغاً منقطع النظير فى زمانه فكان فى الصف الأول من أطباء العرب بل من أطباء العالم فى عصره الذين يمتازون بدقة الملاحظة السريرية وهى التى تقوم على دراسة سير المرض وتتبع حالة المريض. وسجل المستشرق (مايرهوف) للرازى ما يقرب من ثلاث وثلاثين ملاحظة سريرية وله فضلاً عن ذلك ابتكارات طبية أخرى تعد من أسس المعالجة الحديثة فى الأمراض التناسلية والولادة وجراحة العيون، وقد أشرنا من قبل إلى براعته فى تشخيص الأمراض وقد سجل فى كتبه كثيراً من ذلك فيما قاله فى تشخيص بعض الحميات وكانت قد أصابت أحد مرضاه.

وقد ترك الرازى مؤلفات كثيرة فى الطب تمتاز بقيمتها العلمية الكبيرة وهى تعد جزءاً عظيم الشأن من التراث العربى الخالد فى الطب والكيمياء، وقد ذكر ابن النديم فى الفهرست ما يقرب من مائتى كتاب ورسالة منها ومن هذه الكتب كتاب الشكوك على (جالينوس) وكتاب فى أن الحمية المفرطة تضر بالأبدان وكتاب الفالج وكتاب هيئة العين وكتاب هيئة القلب وكتاب كيفية الاغتذاء وكتاب خواص الأشياء وكتاب تقسيم الأمراض وأسبابها وعلاجها وكتاب دفع مضار الأغذية وكتاب ما يعرض فى صناعة الطب. ومن كتبه التى نالت شهرة عظيمة كتابه «المنصورى» ويتناول فيه وصفاً دقيقاً لتشريح أعضاء الجسم كلها كما يضمنه بحوثاً على جانب كبير من الأهمية الطبية فى بيان قُوَى الأغذية والأدوية ومواد الزينة والتقطير وطائفة كبيرة من الإرشادات الصحية الطبية العملية التى كشفت عنها تجاربه.

وكان كلام الرازى فى نشأة مرض الجدرى نقطة انطلاق للبحوث المستمرة التى أدت إلى كشف الميكروب فيما بعد، ولو أن الرازى عرف «المجهر» فى زمانه لكان بلا شك صاحب الفضل الأول فى كشف الميكروب ولعرف (الميكروب) باسمه ونسب إليه بدلاً من نسبته إلى (باستور). ويتميز طبيبنا العربى الكبير بقدرته العجيبة على ملاحظة أعراض الأمراض ووصفها وصفاً دقيقاً.

وللرازى آراء طبية عظيمة القيمة فى هذه الصناعة وهى مبعثرة فى كتبه غير أنها فى جملتها تكون دستوراً طبياً يعترف به الطب الحديث اليوم ولا يزال ينتفع بتطبيق الكثير مما تضمنه ذلك الدستور الطبى.

ومما يدل على عبقريته الطبية إشارته إلى اختلاف خطوط عروض البلدان وأثر ذلك فى العلاج ومزاج الجسم فقال بانتقال الكواكب الثابتة فى الطول والعرض تنتقل الأخلاق والمزاجات وباختلاف عروض البلدان تختلف المزاجات والأخلاق والعادات وطباع الأدوية والأغذية حتى يكون ما فى الدرجة الثانية من الأدوية فى الرابعة وما فى الرابعة فى الثانية، وقال: «إذا استطاع الحكيم أن يداوى بالأغذية دون الأدوية فقد وافق السعادة».

ولم يكن نبوغ الرازى مقصوراً على الطب وحده فقد أضاف إليه نبوغه فى الكيمياء وعلم أعداد الأدوية (الاقرباذين) والصلة قوية بين علوم الطب والكيمياء.

واستطاع الرازى أن ينتفع فى الطب بمعلوماته فى الكيمياء.

ويقول: «هانزشيدر» فى كتابه روح الحضارة العربية: «عرف المترجمون اللاتينيون الرازى ويعد بحق أكبر طبيب بين المسلمين وهو فى الطب تلميذ «جالينوس» ولكنه فى الوقت نفسه ذو اتجاه تجريبى دقيق فقد كان مستعيناً بمركزه مديراً لبيمارستان بغداد - بالملاحظات (الإكلينكية) ويصف تجارب صيدلية دواء للمرضى ولكنه يحاول فى الوقت نفسه أن يعالج الأمراض بوصفات صحية وقائية ونظم للتغذية.

ذلك طبيب من أطباء العرب يعترف بفضله الغربيون وقد كانوا أحرص على إنكار فضله منهم إلى الاعتراف بهذا الفضل لولا عظمة الطبيب ولولا بقية من الأمانة العلمية فهل بعد ذلك يمكن أن يتسرب الشك إلينا فنفقد الثقة بأنفسنا..؟!



أبو حيان التوحيدى

٩٢٢ ـ ١٠٢٣م

فيلسوف الأدباء وأديب الفلاسفة

«أبو حيان التوحيدى فيلسوف الأدباء، وأديب الفلاسفة، فرد الدنيا الذى لا نظير له ذكاء، وفصاحة، وفطنة، ومكنة».

هكذا كان يقول عنه ياقوت الحموى.

أما آدم متز فيقول عنه فى كتابه «الحضارة العربية فى القرن الرابع عشر»: «ربما كان التوحيدى أعظم كُتاب النثر العربى على الإطلاق».

لقد انحطت الدولة العباسية فى أواخر القرن الثالث للهجرة، وانقسمت إلى دويلات صغيرة آل أمرها إلى جماعات من متغلبى الأعاجم كالأتراك والفرس والديلم، فجرد الخليفة العباسى من كل سلطة فعلية، وأصبحت المملكة الإسلامية ميداناً للأهوال والمآسى.

والقرن الرابع الذى عاش فيه أبو حيان التوحيدى أو الذى عاشه أبو حيان التوحيدى، كان أعجوبة الأعاجيب فى انقسام الملك وانتشار الفوضى وذيوع الفتنة والاضطراب.

إزاء هذا الانحطاط السياسى كنت تجد رقياً فى الحياة العقلية، فكأن العلوم والفنون لا ترقى إلا فى عصور الفوضى والاضطراب.

فى هذه الفترة من الزمن عاش أبو حيان على بن محمد بن العباس التوحيدى، وتكاد حياته تكون مجهولة، إذ لم يصلنا من أخباره إلا النزر اليسير، حتى إن ياقوتا

الرومى، وهو المعروف بسعة الاطلاع والبحث والتنقيب عجب من أن أحداً «لم يذكر التوحيدى فى كتاب، ولا دمجه ضمن خطاب» فلم نعرف شيئاً عن أصله ونشأته ومكان ولادته، حتى إن آراء المؤرخين - ومنهم ياقوت - فى هذا السبيل جد متضاربة فمن قائل إنه بغدادى، ومن قائل إنه شيرازى أو نيسابورى، أو واسطى، ويقول الذهبى إنه «نزيل نواحى فارس» دون تعيين الزمان والمكان، وإذا ما تقصينا جميع ما قيل عن التوحيدى، وأحصينا ما تفرق من أخباره أمكننا القول أنه ولد فى بغداد من أبوين فقيرين، إذ كان أبوه يبيع نوعاً من التمر يقال له التوحيد.

يقول مرجليوث فى «دائرة المعارف الإسلامية» إن التوحيدى صرف القسم الأكبر من حياته فى بغداد، حيث درس النحو على أبى سعيد السيرافى، ويظهر لنا أن أثر أبى سعيد فى تلميذه يتعدى النحو إلى غيره من العلوم والمعارف والأفكار والآراء، فأبو سعيد عالم فذ شارك بكافة أنواع المعرفة فى عصره مشاركة واسعة ومتينة، وكان يدرس القرآن والقراءات، وعلوم القرآن والنحو والفقه والفرائض والحساب والكلام والبلاغة والشعر والعروض والقوافى، حتى تعدت شهرته بغداد إلى أطراف البلاد.

ومن يتدبر نفسية التوحيدى، ويطلع على آرائه الأدبية وأفكاره الفلسفية يظهر له انعكاس آراء السيرافى وأفكاره فى عقلية تلميذه، ويندر أن نجد أستاذا ومريداً تشابها فى الفكر والعاطفة مثلهما.

وهناك أستاذ آخر، كان له أثر فى تكييف شخصية التوحيدى الفكرية وهو على ابن عباس الرومّانى، وهو من أئمة اللغة والأدب جمع بين علم الكلام والعربية وكان مشاركاً فى جميع العلوم.

وتلقى التوحيدى الفقه الشافعى على القاضى أبى حامد المروروزى الذى يعده ابن خلكان من أئمة الفقه الذى لا يشق له غبار فيه.

ودرس التوحيدى الفلسفة والمنطق على عالمين عظيمين، انتهت إليهما رياسة أصحاب هذين العلمين وهما يحيى بن عدى وأبو سليمان السجستانى.

وهناك شيوخ آخرون قرأ عليهم التوحيدى كان أثرهم فيه أقل وضوحاً ممن

تقدم ذكرهم أمثال أبى محمد جعفر الخلدى وكان «رئيساً من رؤساء المتصوفة وورعاً زاهداً»، وأبى الحسين محمد بن أحمد بن إسماعيل بن سمعون وكان وحيد عصره فى الكلام على الخواطر، وحسن الوعظ، وحلاوة الإشارة، ولطف العبارة»، وكان يقال له «الناطق بالحكمة»، وغيرهما.

وهكذا فقد أتيح للتوحيدى أن يتصل بأكبر علماء عصره، ومفكرى زمانه مما أكسبه ثقافة موسوعية نرى أثرها فيما وصل إلينا من آثاره.

آثار أبى حيان التوحيدى

لم يتبق من آثار التوحيدى إلا النزر القليل.

ومهما يكن من أمره، فإن ما تبقى من آثاره يدل على حياة فكرية خصبة، وفعالية وافرة فى التأليف.

١ ـ الآثار الأدبية

ـ «الإمتاع والمؤانسة»: فى ثلاثة أجزاء وهو من أهم كتب التوحيدى وأجلها خطراً. وهو مصدر ثمين لدراسة أدب التوحيدى من جهة والحياة الفكرية والاجتماعية زمن بنى بويه من جهة أخرى، ولا نجد أبلغ من عبارة القفطى فى وصفه حين قال: «هو كتاب ممتع على الحقيقة لمن له مشاركة فى فنون العلم، فإنه خاض كل بحر، وغاص كل لجة».

ـ الصداقة والصديق

ـ الهوامل والشوامل

ـ بصائر القدماء وسرائر الحكماء: فى ١٠ أجزاء.

ـ ذم الوزيرين.

ـ النوادر.

ـ تقريظ الجاحظ.

ـ رسالة الحنين إلى الأوطان.

- رسالة علم الكتابة.

(ب) الآثار الفلسفية:

- المقابسات.
- رسالة فى ضلالات الفقهاء فى المناظرة.
- المحاضرات والمناظرات.
- الإقناع.
- التذكرة التوحيدية.

(جـ) الآثار الصوفية:

- الإشارات الإلهية والأنفاس الروحانية.
- الحج العقلى إذا ضاق الفضاء عن الحج الشرعى.
- الزلفى.
- رسالة فى أخبار الصوفية.

(د) كتب التراجم والجدل

- رسالة فى بيان ثمرات العلوم.
- رسالة الإمامة.
- المناظرة بين أبى سعيد السيرافى ومتى بن يونس القنائى.

أبو العلاء المعرى

٩٧٣ ـ ١٠٥٧م

رهين المحبسين وصاحب رسالة الغفران

تنفرد «رسالة الغفران» بمكانة خاصة، نقلتها من نطاق الأدب العربى إلى النطاق العالمى.

وحتى القرن الثالث عشر الميلادى، لم يكن المعروف عنها يتجاوز كلمات قصاراً ذكرها مؤرخو أبى العلاء فى ترجمته.

ولكن فى القرن التاسع عشر، بدأ اسم رسالة الغفران يتردد فى الأوساط الأدبية بأوروبا، مقترناً بالكوميديا الإلهية لدانتى، على سبيل لمح شبيه بينهما أولاً، ثم على سبيل المقارنة المنتهية إلى أن دانتى متأثر بأبى العلاء، وقد يكون قلده وأخذ عنه!

لكن نص الرسالة لم يعرف علىٰ صورة ما، حتى شهر يوليو عام ١٨٩٩، حين نشر المستشرق الإنجليزى «نيكلسون» فى «المجلة الأسيوية الملكية: "J. R. A. S" أنه ظفر بمخطوطات عربية، أهمها رسالة الغفران.

وفى هذا الكتاب قرر بلاسيوس بعد دراسة واسعة متخصصة استغرقت ربع قرن: «أن أصولاً إسلامية من بينها رسالة الغفران، قد كونت أسس الكوميديا الإلهية». وقد ترجم بلاسيوس فصولاً من الغفران، قابلها على نصوص من الكوميديا الإلهية.

وأحدث الكتاب دوياً فى العالم الأوربى، وأخذت رسالة الغفران من ذلك الحين، مكانها فى دراسات المستشرقين، وتتابعت البحوث والمقالات الخاصة بها، تأييداً

لنظرية أسين بلاسيوس أو معارضة لها. وفى عام ١٩٤٩ نشرت مكتبة الرسل بالفاتيكان فى روما كتاباً للمستشرق الإيطالى «تشيروللى» عنوانه: كتاب السلم - يعنى المعراج - ومسألة المنابع العربية الإسبانية للكوميديا الإلهية».

وفى هذا الكتاب يؤيد تشيروللى نظرية بلاسيوس بنشر نصوص إسلامية، وجدت مترجمة إلى اللاتينية والفرنسية فى المكتبة الأوربية قبل دانتى، وذيل هذه النصوص بفصل خاص عن «دانتى والإسلام» فيه كلام على تأثر دانتى بالغفران، والمعراج وغيرهما من الآثار الإسلامية التى نقلت إلى أوربا عن طريق أسبانيا.

وكان لهذه الشهرة العالمية لرسالة الغفران، صداها فى الشرق، وكما حدث فى أوربا، بدأ اسم الرسالة يتردد مقترناً بكوميديا دانتى على سبيل التشبيه، ثم على سبيل المقارنة والقول بالأخذ والاقتباس.

صاحب الرسالة

ولكن... ماذا عن صاحب رسالة الغفران؟.

إنه أبو العلاء، أحمد بن عبد الله بن سليمان المعرى التنوخى.

ولد بمعرة النعمان، من أعمال حلب، وينتمى إلى قبيلة تنوخ «وهى من أكثر العرب مناقب وحسباً ومن أعظمها مفاخر وأدبا» وقد نزحت جماعة منها إلى المعرة من قديم. فكان منهم بنو سليمان، أجداد أبى العلاء.

وبدأ خطوته على الطريق المهيأ لمثله، مرجوا لمستقبل مرموق، بما تلقى من ميراث سلالته العريقة فى الفضل والعزة والعلم والأدب.

ولكنه ابتلى بصدمة فادحة قبل أن تستقيم خطوته على الدرب: اعتل فى سنته الرابعة علة الجدرى، فما برئ منها إلا بعد أن شوهت وجهه بندوب لا برء منها، وذهبت بنور بصره فأسدلت بينه وبين الدنيا حجاباً أسود لا أمل فى انحساره حتى آخر العمر.

ومن ذلك الحادث الملم، فى الطفولة الباكرة، بدأت رحلة أبى العلاء فى هذه الدنيا وقصته معها.

ولكن لم تفل هذه الكارثة من حد عزيمة المعرى ولم تثبطه عن التطلع إلى أعالى الأمور واستجلاء غوامض الفنون، وآزره على نوال بغيته ذكاؤه المفرط وحافظته النادرة وعقله الجبار مع ذلك الطبع الذى يكاد يسيل رقة وصفاء.

فقد قرأ القرآن على أئمة من شيوخ القراءات، وسمع الحديث من أبيه وجده وجدته، وجماعة من محدثى بلده فى زمانه. وتلقى علوم العربية على أبيه، وعلى جماعة من أصحاب «ابن خالويه» فظهر من مخايل نجابته وفطنته ما جعل أباه يمضى به إلى حلب حيث تلقى النحو على إمام العربية فى حلب: محمد بن سعد النحوى، راوية الشاعر أبى الطيب المتنبى.

ومن عهد صباه الغض، ظن أبو العلاء أنه اهتدى إلى سلاحه فى معركة الوجود، وعرف طريقه على الدرب: مواهبه تعوضه عن عجزه، ونور العلم يمنحه الضياء.

وفى اعتداد وإصرار صمم على أن يتحدى محنته ويشق سبيله لا يعوقه فقد البصر، وبلغ المدى فى مكابرته، فرئى فى صباه يلعب النرد والشطرنج ويأخذ فى فنون الجد واللهو كما يفعل لداته المبصرون!

وبدأ كأن الدنيا لا تتسع له، لفرط طموحه واعتداده بمواهبه.

وأملى له القدر حيناً، فمضى فى شبيبته على غلوائه، يبهر أهل بلده بنادر ذكائه وسعة علمه ومواتاة شاعريته، ويسرف فى أخذ نفسه بالتفتح للدنيا والإقبال على الحياة مع الولع بالعلم والجد فى طلبه.

وفيما هو حائر بين اليأس والأمل، مات أبوه فنفذت الطعنة إلى صميم كيانه، وفقد الشاب الضرير من كان له أباً وصديقاً وقائداً ومرشداً. فتركته اللطمة فى مهب الريح لا يقر له قرار.

وفى غربته النفسية، اتجه تفكيره إلى بغداد، عاصمة الدنيا آنذاك، فشد الرحال ليجد نفسه فى دوامة الموج الهادر لمجتمع العاصمة.

ولكنه تزود للرحلة بأسلحته التى يملكها: ذكاء شبه أسطورى، وفقه عميق لعلوم العربية والإسلام، وموهبة أدبية أصيلة متنوعة.

ولكن أبا العلاء صدم فى بغداد حين وجد أن معركة وجوده فى العاصمة الكبرى تحتاج إلى أسلحة أخرى لا يملكها من الدهاء والمكر والحيلة والنفاق!

كانت رحلة حاسمة، فصلت ما بين شطرين متميزين من حياته: ذهب إلى بغداد متفتح الأمل بعيد الطموح، وانسحب منها بعد عام وبعض عام، منكسر القلب مهزوماً، فلزم بيته فى المعرة، وقد صمم على أن يعتزل الدنيا والناس، وعاش رهين محبسيه - العمى والعزلة - نحو نصف قرن، يقاوم حبه للدنيا فى بسالة، ويروض بشريته على أقسى ضروب الحرمان، حتى أراحه الموت فى عام ٤٤٩هـ من محنة الوجود وهم المكابدة.

وبعد... فإن يكن أبو العلاء قد امتحن بعمى البصر، فقد بقى له نور البصيرة.

وإن يكن قد عاش فى سجن موصد، فقد أرهفت العزلة وجدانه، ومنحته صفاء الذهن ووضوح الرؤية، فكان البصير الذى خبر الدنيا كما لم يخبرها الغارقون إلى أذقانهم فى خضمها، المعتزل الذى خاض معركة الحياة كما لم يخضها الضاربون فى غمارها.

وإلى آخر عمره، ظل يخوض معركته الشريفة الباسلة فى مجاهدة شغفه بالدنيا وتعلقه بها، وفى رفض الظلم والبغى والتضليل والأثرة والنفاق.



أبو فراس الحمدانى

٩٣٢ ـ ٩٦٧ م

الشاعر الملك والملك الفارس

هو الحارث بن سعيد بن حَمدان بن حمدان الحمدانى، ينتمى بعمومته إلى تغلب فربيعة الفرس، وبخؤولته إلى تميم فمضر الحمراء لقوله:

لمْ تَتفرَّقْ بنا خُؤولٌ　　　فى العزِّ أخوالنا تَميمُ

وكنيته أبو فراس، ولد على الأرجح فى الموصل حيث كان أبوه وأسرته وقُتل أبوه وعمره ثلاث سنوات، فنشأ أبو فراس يتيماً تحتضنه أمه، ويعطف عليه ابن عمه سيف الدولة أخو ناصر الدولة.

فلما قام عرش الحمدانيين فى حلب سنة (٩٤٤م) كان شاعرنا فى جملة من ضمهم بلاط سيف الدولة من آل حَمدان، فشب فى كنف ابن عمه يشمله حنانه ورعايته، فرسخت محبته فى قلبه صبيّاً، وميزه سيف الدولة بالإكرام عن سائر قومه لما رأى من نجابته ومحاسن أخلاقه.

ولقى أبو فراس فى الحضرة جمهرة من كبار العلماء والأدباء، فتخرَّج عليهم فى اللغة والشعر والرواية حتى برع. ولما بلغ أَشدّه أخذ سيف الدولة يستصحبه فى غزواته، ويمرسه بمواقف الأهوال، فخرج فارساً مغواراً، بصيراً بمواقع الطعن والضرب، فحارب الروم، وسطا على القبائل الثائرة بابن عمه؛ فأذل كعباً وكلاباً، ونُميراً وقُشيراً، وأصبح لا يطيب له غير مقارعة الكتائب، وملاقاة الأبطال، والذود عن حياض الملك، حتى إذا استخلفه الأمير على أعماله، ولم يستصحبه فى غزوة غزاها، تكدر وتوسل إليه أن لا يحرمه صحبته.

صفاته وأخلاقه

كان أبو فراس طويلاً بديناً، تبدو عليه دلائل القوة والبطش، وقد وصف نفسه فقال:

متى تُخلفُ الأيامُ مثلى لكم فتًى، وطويلَ نِجادِ السيفِ، رَحبَ المقلَّدِ[(١)]

وشاب وهو فى العشرين:

وما زادَتْ على العشْرينَ سِنِّى فما عُذْرُ المَشيبِ إلى عِذارى؟[(٢)]

وأصابته طعنة فى خدِّه فبقى أثرها:

ما أنسَ قَولَتَهُنَّ يومَ لَقيننى أزرى السِّنانُ بوجهِ هذا البائسِ[(٣)]

ووصفه الثعالبى فقال: «كان فرد دهره، وشمس عصره، أدباً وفضلاً، وكرماً ونبلاً، ومجداً وبلاغة وبراعة، وفروسيّة وشجاعة».

وكان كغيره من أبناء الملوك يميل إلى اللهو والعبث والسماع، ولكن حياته كانت سلسلة حروب وغزوات، وأسر واعتقال، فلم يُتَحْ له أن يتنعّم بمخضرِّ العيش، ويرتوى بماء الشباب. فكان يفترض اللذات افتراضاً فإذا سنحت له شرب وطرب، ولها وعبث، ودلف إلى بيوت الخمّارين:

وقُمْنا نَسْحَبُ الرَّيْطَ، إلـى حانة خَمَّـــارِ[(٤)]
ومَا فى طَلَبِ اللَّهْـــوِ، على الفِتيانِ، مِنْ عارِ

آثاره...

ولأبى فراس ديوان جمعه ابن خالويه بعد موته، وأورد له الثعالبى فى يتيمة الدهر طائفة حسنة من مختاراته، ولاسيما الروميات.

والشعر عن أبى فراس ألهُوَّة يتلهّى بها، وبلسم يداوى به كلومه، وقِمَطْر يجمع

(١) طويل نجاد السيف: كناية عن طول القامة، رحب المقلد: كناية عن سعة ما بين المنكبين.

(٢) العذار: الشعر النابت على جانب الوجه المحاذى للأذن.

(٣) قوله: ما أنس: مجزوم لأنه فعل الشرط وجوابه محذوف. أزرى: حقر.

(٤) الريط: جمع ريطة وهى كل ثوب لين رقيق يشبه الملحفة.

فيه مفاخره. وقد أغناه الله عن السؤال بعزة الملك، ونعيم الدولة، فلم يصطنع المدح ولا الهجاء، وإنما مدح قومه وعشيرته وهذا فخر لا مديح.

ومدح بعض أصدقائه من آل ورقاء وسواهم، وهذا من نوع الإخوانيات. فالمدح والهجاء لا حظ لهما فى شعر أبى فراس، وما القصيدة التى هجا بها العباسيين، ومدح العلويين، إلاّ من النوع السياسى، اندفع إليه شاعرنا بعاطفة التشيع لعلى وأبنائه.

ولم تكن حياته المضطربة لتسمح له بأن يفتنَّ فى وصف مشاهد الطبيعة، وأسباب اللهو، فلم يترك فيه شيئاً يستحق الذكر..

وكذلك الرثاء لم يكن له يد فيه، فقد ماتت أخته فرثاها، لم يحسن رثاءها. وماتت أخت سيف الدولة، فأراد أن يرثيها فكان رثاؤه مواساة لأخيها، ورثى ابن سيف الدولة فما تم له الإحسان. ومات سيف الدولة فلم يقل فيه شيئاً على ما بينهما من مودّة وقربى. وما كان لأبى فراس أن يقصر فى الرثاء، وهو شاعر عاطفى، والرثاء قوامه العاطفة؛ ولعلَّ تعوده ركوب الأهوال والمخاطر جعله يستهين الموت فما يرتاع له، ولا يرى فيه ما يبعث على الجزع؛ فكان يستقبل مصائب الدهر فى شىء من الأنفة والاستكبار، وحبس عاطفته فلم يطلق لها العنان فى التفجع. وربما كان سكوته عن رثاء سيف الدولة مسبباً عما وقع بينهما من جفاء من أجل الفداء.

وأجمل شعره ما جاء فى مفاخره ورومياته.

ولأبى فراس غزل يأتى به مرة فى صدور مفاخره وإخوانياته، وأخرى مستقلاّ فى مقطّعات صغيرة. ويختلف عن غيره من متغزّلى المولِّدين بأنه لم يتعهر فيه.

ولا يُستغرب الفخر من شاعر كأبى فراس، تحلى بأشرف صفاته ومعانيه: فمن فروسيَّة وشجاعة، وإباء وعفة، إلى نسب رفيع وحسب كريم، إلى شاعرية جوّادة، وبيان ساحر. فإذا افتخر أمعن فى وصف شجاعته وإقدامه، وبلائه فى الحروب، وباهى الناس بآبائه وأعمامه وجدوده، وعدَّد أيامهم وحروبهم، ومدح سيف الدولة، وذكر مناقبه، وفاخر به لأنه ابن عمه ومربيه. وله رائية طويلة تبلغ مائتى بيت وخمسة عشر بيتاً، تكاد تشتمل على جميع خصائصه فى الفخر؛ أكثر فيها من ذكر

الغزوات والوقائع. ولو عنى بالوصف والتصوير، كما عنى بسرد الأخبار، لترك ملحمة من فرائد الشعر القصصى. ووصفُ المعارك والجيوش والعُدد ضعيف فى شعر أبى فراس على الإجمال، فقد كان همّه فى تعداد انتصاراته، والإدلال بشجاعته وكرمه، وعفته وحلمه.

منزلته...

قال الصاحب بن عبّاد: «بدئ الشعر بملك، وختم بملك». يعنى امرأَ القيس وأبا فراس. وقال الثعالبى: «وشعره مشهور سائر بين الحسن والجودة، والسهولة والجزالة، والعذوبة والفخامة، والحلاوة والمتانة، ومعه رواء الطبع، وسمة الظرف، وعزة الملك. ولم تجتمع هذه الخلال قبله إلاَّ فى شعر عبد الله بن المعتز. وأبو فراس يُعدّ أشعر منه عند أهل الصنعة ونقدة الكلام».

وقد حُقّ لأبى فراس أن يستوى على الدرجة الرفيعة مع الشعراء، ولكن الأدباء المتقدمين لم يلتفتوا إليه كل الالتفات لأسباب منها أن معاصرته لأبى الطيب أخفتت صوته، كما أخفتت أصوات غيره من أصحاب الشعر، إلا أن أبا فراس كان أظهر منهم لمكانته فى دولته. ومنها أن المتقدمين كانوا يبنون مقاييس الفحولة على المدح والهجو؛ فمن لم يُشهر بهما لا يُعَدُّ فى الفحول. ولم يكن بأبى فراس حاجة إلى هذين الفنين فلم يصطنعهما، فانحدرت منزلته بعض الشىء ولم يعدّوه فى الطبقة الأولى، ولكنهم ختموا به الشعر، وفضّلوه على ابن المعتز.

وجدير بنا أن ننصف أبا فراس فنقول: إنه جيد الشعر فى حماسياته، مبدع فى رومياته، شاعر العاطفة فى كلتيهما. وهو الشاعر الملك، والملك الفارس.



أبـو نـواس

٧٦٢ ـ ٨١٤ م

أمير المستهترين ورائدهم

من غريب المصادفات أنه لما استقرت موازين الأدب فى العصر الحديث، برزت ناحية جديدة لم يفطن لها الكُتاب القدامى، وهى الواقعية فى الأدب، وأثرها فى الأثر الفنى ومنزلته فى موازين النقد والخلود.

وهنا تبرز خطورة الأثر الأدبى الذى تركه الحسن بن هانئ للأجيال التى أتت بعده فى ديوانه، فقد استبق المذهب الواقعى المعاصر بأجيال وأجيال وكان أجرأ شاعر عربى فى موازين الخلود والإبداع.

وأنت تدرس فنون الأدب والشعر فى حياة أبى نواس، إنما تدرس ناحية من نواحيه وطرفاً من حياته فليس أثره فى تاريخ الأدب العربى ليقوم على شعره فحسب وإنما يقوم ـ وبالتأكيد ـ على ما اختطه من سبل جديدة فى الحياة، وعلى ما درج عليه من مخالفة الأخلاق القائمة فى عصره، وعلى ما سيره بين الناس من شعر يؤيد مذاهبه ويروج لها فى أسلوب رائع وشعر رقيق.

وإذا كان الإنجليز لا يتحرجون فى الإفادة من بعض كبار كتابهم وشعرائهم مع إنكارهم لأخلاقهم ومذاهبهم (كأوسكار وايلد) مثلاً، وإذا كان الفرنسيون يجلون (أندريه جيد) وهو من يعلم القارئ خطراً فى الأدب وشهرة فى العالم، مع شذوذه وغرائبه.

وإذا كان الإيطاليون يتباهون بشاعرهم (دانونزيو) مع تهوره واستهتاره، فلسنا نجد سبباً يمنعنا من التحدث عن أبى نواس على النحو الذى وصفنا، وهو أمير

المستهترين ورائدهم.. وقد شق لنفسه الطريق إلى حياة الانفلات من المقاييس الأخلاقية قبل الوجوديين المعاصرين وقبل الجميع.

إن القداسة التى نتغنى بها، والتى نحاول أن ندعو لها ونحارب المفكرين المجددين فى سبيلها لا تنفى الأمر الواقع.. من أننا نغالط أنفسنا ونتجاهل مسئولياتنا.. فمكافحة الرذيلة لا تكون بإخفاء أخبارها وإنما تكون بنشرها وإذاعتها.. ليعرف الشباب مواطن الخطر ومكامن الشر، فمهما اشتدت نزوات الشر عند أمة من الأمم، فأنت تجد أبداً فيها قوماً يدعون إلى الخير ويحاولون الإصلاح ويقولون بالرجوع إلى النهج القويم والمثل العليا.

إن فى تاريخ العرب والإسلام من قصص الإصلاح الاجتماعى والدعوة إلى الخير والخلق القويم ما لا مثيل له عند أمم العالم كله، وليس يضير الأدب العربى فى كثير ولا قليل أن يظهر فيه شاعر على غرار (أبى نواس) استهتاراً ومجوناً وتكالباً على اللذة، فالأمة التى تخلق العبقريات الأخلاقية خليقة بأن تخلق العبقريات المستهترة أيضاً، لتنتظم عندها مقاييس العبقرية، وليستطيع الأديب وهو يكتب تاريخ الأدب أن يؤديه على أحسن ما يكون وأنبل ما يكون وأصدق ما يكون.

حياة أبى نواس....

ليس فيما جاءنا عن نسب أبى نواس ما يصح الاقتناع به والاطمئنان إليه، فالأقوال فيه متضاربة والاختلاف غير قليل، على أن المشهور عنه أنه الحسن بن هانئ بن عبد الأول بن الصباح، وأن جده كان مولى من جند مروان بن محمد وهو من أهل الشام، وأن أمه فارسية من الأهواز.

وكانت ولادته فى الأهواز من فارس، ذلك أن أباه هانئا انتقل إليها مع الجيش للرباط، فتزوج فيها جلبان، فولدت له عدة أولاد منهم الحسن ومات أبوه وهو طفل فانتقلت به أمه إلى البصرة وله من العمر سنتان. فنشأ هناك ولما شب أسلمته إلى عطار يبرى عود البخور.

ولكن نفسه ما كانت لترضى هذه الصنعة، وبها نزوع شديد إلى الأدب، فكان لا يفتر عن مخالطة أهل المسجد، والأدباء المجان، وأخذ يتردد على باب أبى عمرو

ابن العلاء. وكان الرواة والشعراء يجتمعون عنده فاتصل بهم وهو فى العقد الأول من عمره فاكتسب منهم أدباً وعلماً ولكنهم أضروا بأخلاقه.

ولم يكن له من بسطة العيش ما يقيه الحاجة فيصون ماء وجهه، فكان أصحاب المجون إذا أرادوا الخروج إلى نزهة استأجروه بدينار فيحمل لهم أدواتهم ويبقى معهم حتى يعودوا.

قدم أبو نواس بغداد وسنه أربت على الثلاثين، ومقاليد الخلافة فى يدى هارون الرشيد فأتيح له أن يتصل به فقربه الرشيد وأحبه وأنعم عليه. وتغاضى عن فسقه وسكره واستهزائه بأحكام الدين. وعفا عنه مراراً وأطلقه من سجنه على أنه لم يخصه بذاته، فلقد كان الرشيد شديد الحرص على وقار الخلافة، شديد الحفاظ على تقاليد الدين، ولاسيما أمام الرعية، فلم ير من الحكمة أن يجعل الشاعر الخليع مختصّاً بقصره، لذلك لم يحظ أبو نواس الحظوة والتى كان يأملها عند الرشيد، فتفرغ لمصاحبة المجان فكانوا يجتمعون فى سوق الكرخ أو فى روضة أو فى منزل، فيتذاكرون الشعر ويشربون الخمر ويستمتعون بأنواع الملذات التى ألفتهم.

عرف أبو نواس أولاد الخلفاء منذ قدومه بغداد وهو شاب. فنادم أولاً ولد المهدى ولازمهم، فلم يلق مع أحد من الناس غيرهم. ثم نادم القاسم بن الرشيد ولكنه لم يلبث أن فارقه وتقرب من أخيه الأمين، وكان يومئذٍ صبيًاً يدرس النحو واللغة على الكسائى.. وزاده اتصالاً بولى العهد أن الرشيد أمر الكسائى أن يحضر أبا نواس لينشد الأمين الشعر النادر ويعلمه الغريب.. فلزمه شاعرنا ولم يفارقه، وراقت الأمين صحبة أبى نواس فاتخذه نديماً. وشاطره اللهو والمجون فانحطت أخلاقه فى صباه، وكان انغماسه فى العبث والفسوق من الأسباب التى أضاعت ملكه.

ولما بويع بالخلافة بعد أبيه جعل الشاعر فى بطانته فكان ألزم له من ظله. ولا ريب فى أن خلافة الأمين كانت أسعد أيام أبى نواس وإن لم يطل عهدها أكثر من خمس سنوات، وخمس سنوات شىء يذكر فى عمر الشاعر المتنعم. على أنها لم تخل بعض الأحيان من تنغيص، إذ كان الخليفة يضطر إلى حبسه على أعين الناس، حين يتهم لديه بالكفر والفجور والمجاهرة بشرب الخمر.

توبته وزهده وموته

ولما قتل الأمين وظفر المأمون بالخلافة، أصاب أبا نواس شئ من الجزع والقنوط وتنكر له الدهر فتبرم بالحياة وسئم ملاذها وغرورها، وأبى أن يتقرب من المأمون أو يمدحه، وكان المأمون قد جعل مقر الخلافة فى خراسان، ولبث هناك نحواً من ست سنوات حتى استتب له الأمر فى بغداد فانتقل إليها.

وكان بوسع الشاعر أن يتصل به ويستميله بالمديح، ولكن اليأس الذى ساوره بعد مقتل الأمين جعله يزهد فى الحياة الدنيا، وتراءى له شبح الموت فراعه وأحس أن قواه تحطمت من كثرة فسوقه واستهتاره ففزع إلى ربه يستغفره، وأقلع عن المجون وشرب الخمر، وتنسك حتى هلك وهو على أشد ما يكون من الندم. وكانت وفاته فى بغداد وله من العمر نحو من أربع وخمسين سنة.

آثار أبى نواس

لأبى نواس ديوان شعر مختلف لاختلاف جامعيه، فإنه عنى بجمعه رهط من الأدباء. وهذه المجموعة تتضمن أكثر من ثلاثة عشر ألف بيت رتبت على اثنى عشر باباً.

وجمع ابن منظور صاحب لسان العرب تاريخ أبى نواس ونوادره وشعره ومجونه فى كتاب سماه «أخبار أبى نواس»، وقد طبع الجزء الأول منه فى مصر سنة ١٩٢٤ مضبوطاً بالشكل مشروحاً بعض الشرح.

وكتب الأدب حافلة بأخبار أبى نواس وأشعاره لشدة اهتمام الناس برواية شعره، فإنهم كانوا يتفكهون به ويؤثرونه على أشعار القدماء، فسار على الأفواه كل مسير، فرويت له فى مصر أشعار لم يعرفها أهل العراق، وضاعت له قصائد لم يبق منها شئ أو بقى بيت أو بيتان، ونحل شعراً كثيراً لم ينحل مثله أحد، ذلك أنه سلك طريقاً جديداً فى الشعر: فإن أكثر أشعاره فى اللهو والتشبيب والمجون. وكان فى عصره طائفة من المجان يذهبون مذهبه وليس لهم من الشاعرية والشهرة مثله، فأصبح الناس يلحقون به كل شعر فى الخمر والمجون لم يعرف صاحبه ولم يعن الرواة بشعره.

أحمد أمين

١٨٨٧ ـ ١٩٥٤م

الباحث الأدبى

كريم النفس، سمح الخلق، وضاح الجبين، تعكس صفحة وجهه صورة لما يعمر قلبه الكبير من صفاء وإيمان، أثرى المكتبة العربية بما قدمه من إنتاج قيم يضيف إلى معلومات قارئه معارف ومفهومات جديدة فى مختلف العلوم والآداب.

وأرخ بأسلوبه الرائع عهداً مجيداً للعلماء، وكيف تحظى بحوثهم بتقدير الأدباء، فأنت تقرأ الكتاب الذى يعالج فيه كتابة التاريخ فتراه من ناحية الأسلوب كأنه نموذج للأدب الرفيع، ومن ثم جمعت آثاره بين عمق العالم. وشاعرية الفنان.

تقرأ الكتاب فلا تود أن تتركه حتى تفرغ منه..

ولا تدعه إلا لتبدأ فى الرجوع إليه...

ومع هذا فأنت تقرأ العلم!! تقرأ الفلسفة أو التاريخ وقد تعودت أن تقرأهما بأسلوب العلماء!!

تقرأ قصة الفلسفة اليونانية قصة الرجل الأول الذى ينظر فى الكون حائراً، ما هذا؟! ولم هذا؟! وكيف هذا؟! ويرتقى ذلك الإنسان. ويقطع المراحل، وتتعاقب الأجيال ـ وتتصل الحلقات حتى تصل إلى العصر الذى نعيش فيه مسجلة لمختلف الفلسفات ونموها وتطورها وذلك فى عرض فنى ليس بعده غاية لفنان، ومع هذا المزج بين العلم والأدب وما يتطلبه ذلك من شمول العالم وتمحيصه، وانفعال الأديب وتوثبه يقدمه صاحبه بمقدمة متواضعة يقول فيها: (إنه كان يقرأ، ويلخص ما قرأه،

وها هو يطبع ما لخص).

يقول هذا وهو يؤدب الفلسفة لينتفع بها الأدباء فيفلسفوا الأدب...

وتقرأ «فيض خاطره» أو «حياته» فتظن أن الرجل قد وقف حياته على الأدب الخالص.

ويغوص فى أعماق الأدب الشعبى فيضع (قاموس اللغة والتقاليد والتعابير) ذلك القاموس الذى كنا فى أشد الحاجة إليه، والذى كان يحتاج إعداده ووضعه إلى عدة رجال، وعلى طريقته فى التواضع يسميه (قاموس) ولكننا نسميه دائرة المعارف الشعبية. فهو لم يدع شاردة ولا واردة مما يضطرب على ألسنة الشعب فى السوق والبيت والحارة إلا وضمنه الكتاب، هذا بالإضافة إلى اهتمامه بالأمثال والأساطير والصور المتنوعة لحياة الشعب.

وكان على تواضعه الشديد يعرف لنفسه قدرها.. سأله مرة أحد الصحفيين عن أثر تعيينه عميداً لكلية الآداب فكان جوابه: «إننى أصغر من أستاذ، ولكنى أكبر من عميد...».

ويطيب له أن يكشف عن حياته فيقول: «كنت فى بدء حياتى العملية كثير الفراغ، أصرفه فى القراءة والكتابة فألفت «فجر الإسلام وضحاه».. ثم قل فراغى لاشتغالى بكثرة المجالس واللجان، فأنا عضو فى المجمع اللغوى، وفى مجلس دار الكتب ومجلس كلية الآداب، ودار العلوم، ورئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر.. والجامعة الشعبية، ومذيع فى الراديو.. وكل هذه أكلت من وقتى، وبعثرت زمنى، ووزعت جهدى مع قلة فائدتها فيما أعتقد ولو استقبلت من أمرى ما استدبرت لرفضت كل هذه الأمور، ولفرغت لإتمام سلسلة فجر الإسلام وضحاه وظهره وعصره فقد كان ذلك أجدى وأنفع وأخلد، ولكن للظروف أحكام...».

ويتحدث عما يروقه فى الأدب فيقول: «أكثر ما يعجبنى فى الأدب ما غزر معناه، ودق مرماه، ولذلك لا يهتز قلبى لأكثر شعر الطبيعة فى الأدب العربى لبنائه على الاستعارة والتشبيه لا على حرارة العاطفة».

يمثل «أحمد أمين» مرحلة دقيقة من مراحل تاريخ الأدب المعاصر فى مصر، فهو الأزهرى الذى تخرج فى الأزهر ومدرسة القضاء الشرعى وانتقل من القضاء

إلى التدريس فى الجامعة، ثم انتقل إلى حياة التأليف والكتابة، وتعلم اللغة الإنجليزية بعد أن ارتفعت سنه، وترجم منها.

واستبدل العمامة بالطربوش.. وسافر إلى أوربا وإلى الشرق وظل مع ذلك، «الإنسان» المحافظ فى آرائه وأفكاره وحياته. والمنطوى على نفسه..

لم يتصل أحمد أمين بالحياة.. ولم يجر فى تياراتها المختلفة بل ظل يعيش فى حياة الكتاب والمفكرين وأعمالهم، ومن ثم كان لأسلوبه ذلك الطابع الجاف، الذى ليس له سمت خاص يتميز به، وخلا أدبه من العاطفة والوجدان، كما خلا من تلك الروح الفتية الجذابة التى تهز النفس وتأخذ اللب والتى نجدها عند أزهريين آخرين كطه حسين والزيات وزكى مبارك.

.... ويرجع هذا كله إلى أنه من الكتاب الموضوعيين العقليين، وهو إلى العلماء أقرب منه إلى الأدباء، ويرجع هذا الاتجاه إلى الدراسات والدوافع الأولى.

فقد نشأ أحمد أمين فى بيئة محافظة دينية كان لها أثرها فى نشأته، وكانت التربية الأزهرية بعيدة الأثر فى أهدافه واتجاهاته، فلما أراد أن يندمج فى الحياة الجديدة اندمج فيها على طبيعته وبكل مقوماته لم يدع منها شيئاً.

صحيح أن هذا الاتجاه قد مكن أحمد أمين من أن ينتج إنتاجاً عقليّاً غاية فى القوة والوفرة، وهو ما لم يتح لغيره من كتابنا، فإذا اتصل بالمجتمع والحياة العامة، غلبت عليه الأفكار المثالية وجعلته غريباً عن المجتمع إلى حد ما.

سافر أحمد أمين إلى العراق وسوريا والآستانة والحجاز، ثم جال فى أوربا جولة غير قصيرة... ولا شك أن هذه الرحلات قد أمدته بسعة الأفق، ومزيد من العلم والخبرة فقد عاشها على الصورة نفسها التى يحيا فيها بين الكتب دراسة وبحثاً لا استمتاعاً بها ولا تطلعا إلى خفاياها.

وقد بدأ أحمد أمين الكتابة باكراً. كتب فى السفور سنة ١٩١٨ وأيد مذهب السفور فى قوة، ودافع عن رأى قاسم أمين، وقال عن الجامعة إنها أزهر بقبعة.. لقد كره الأزهر منذ رأى الطلاب وهم يعرضون الخبز (الجراية) للبيع، وعاد إلى بيته والهم يملأ قلبه فقد كان هذا أول ما شاهده فى الأزهر ولكن بالرغم من نفور

أحمد أمين من الأزهر وكراهيته له واتجاهه إلى الثقافة الأوربية. هل استطاع حقاً أن ينتزع نفسه من الأزهر؟.. كلا. «إن كل ما فيه من خير إنما مرده إلى الأزهر»، كما قال عنه الإمام المراغى.

يقول الدكتور طه حسين: ولست أخفى أنى لم أكن أعرف حدا لهذا الدهش الذى كنت أحبه فى حين أرى أحمد أمين يتصرف فى المسائل الأدبية والفلسفية واللغوية بقدم ثابتة. ويد صناع. وعقل يعرف كيف يفكر. وكيف ينتقل من قضية إلى قضية، ومن مقدمة إلى نتيجة. وكيف يضع الأشياء بعد ذلك كله فى نصابها معتدلاً أحسن اعتدال، لا يعرف التقصير ولا يعرف الإسراف».

والحق أن الدكتور طه حسين لم يجاوز الحق فى هذا الحكم، فمؤرخ الحياة الإسلامية قد بعثها فى صورة واضحة وبأسلوب بيّن المنهج، سهل المخرج، لها من جلال العالم الحظ الأوفر، ومن رقة الشاعر النصيب الأكبر، هذا فوق تفردها بطابع العصر الحديث.

فقد أرخ المرحوم أحمد أمين بفجر الإسلام وضحاه وما تلاهما صفحة مجيدة للتاريخ فى الأدب العربى.. لم يسبقه إليها مؤرخو العربية.



أحمد شوقى

١٨٦٨ ـ ١٩٣٢م

أمير الشعراء

هبط الأرض كالشعاع السنى   بعصا ساحر وقلب نبى

لمحة من أشعة الروح حلــت   فى تجاليد هيكل بشرى

ذلكم هو الشاعر يهبط الأرض على رفوف من نور وجناح من الوحى والسحر فيعيش فيها ما عاش وقلبه مشدود النياط إلى عالم من الرؤى أو الأحلام، فيتملى من تلك المفاتن ما شاء أن يتملى ثم يبثها فى الناس أهازيج تهز نفوس البشر.

والله سبحانه وتعالى إذا أراد الخير لأمة من الأمم أرسل إليها الشعراء فكانوا فيها ألسنة الملأ الأعلى، يبث شعرهم الدعوة للخير والحق والجمال ويرقى بالنفوس إلى أجواء من السمو والرفعة تنسيها أكدار الأرض وأقذاء الحياة وتعلمها كيف تختلج الجوانح لكل جميل جليل وكيف تتحرك المشاعر لصيحات الحق وسبحات الخيال.

وما عرفنا شاعراً صيغ له من قلائد المدح ونظم فيه من عقود الثناء ما صيغ ونظم فى شوقى فهو الملقب بأمير الشعراء وكل قصيدة له تنعت بالعصماء، وكل منظومة من منظوماته تعد شوقية غراء. كلماته الدر النظيم، ومعانيه الجوهر اليتيم. هكذا تصفه سيارة الصحف وهكذا يقول فيه رواة شعره.

ولقد استحق الكثير من هذا الوصف: فهو شاعر الغزل والنسيب وناظم

الحوادث والتاريخ، صاحب الحكم الرائعة والأمثال الذائعة ترجمان العاطفة الوطنية والذائد عن العقيدة الدينية محيى دارس الآثار ومستنهض الهمم إلى الأعمال الكبار الداعى إلى الاتحاد والوئام والمستخلص خالد الحقائق من الأحلام.

... وفى أبريل من عام ١٩٢٧ شهدت دار الأوبرا المصرية مهرجاناً ضخماً لتكريم أحد عظماء شعراء العربية الذين شهدهم القرن العشرون، وتمت مبايعة أحمد شوقى أميراً للشعر والشعراء بحضور شعراء الأمة العربية يتقدمهم زعيم الأمة سعد غلول بوصفه زعيماً للشعب ورئيساً لمجلس النواب ونهض شاعر النيل حافظ إبراهيم ينشد قصيدته المشهورة فى مدح شوقى:

أمير القوافى قد أتيت مبايعاً

وهذى وفود الشرق قد بايعت معى

ويجمع نقاد الأدب العربى ـ قديمه وحديثه ـ على أن عرش الشعر ظل خاوياً بعد المتنبى إلى أن خرج أحمد شوقى على أمته كالمعجزة امتداداً للاتجاه الكلاسيكى المحافظ بحكم انتمائه لمدرسة البعث والأحياء التى كان رائدها رب السيف والقلم الشاعر محمود سامى البارودى حيث الأصالة والفخامة والحيوية والسمو واستلهام التراث العربى القديم الذى خلفته عصور الازدهار فى الشعر العربى، وإذا بشوقى على قمة مدرسة الأحياء يجمع فى شعره بين فخامة المتنبى وصياغة البحترى وصناعة أبى تمام وسخرية أبى العلاء وسلاسة ابن الرومى، على أنه لم يكتف بالأصالة وسعى إلى المعاصرة فسبق كل شعراء جيله وكان له فضل الريادة فى إنشاء المسرحية الشعرية فى الأدب العربى.

شوقى.... وشعره الإنسانى

عاش شوقى أنضر أيامه مع الأحداث ـ مع أحداث العالم بشتى ظواهره ومع أحداث العالم الإسلامى بمختلف قضاياه وعديد نوازعه ومشكلاته.. ومع أن أيامه كانت بعيدة عن الاختلاط بالشعب تقريباً وفى «برج من العاج» كما صوره بعض النقاد.. إلا أن الواقع لم يكن كذلك فقد كان «ملتزماً» نحو كل قضية أو ظاهره تمس مصر والشرق، قومية كانت هذه القضية أو اجتماعية فكان يعبر عنها بصدق

وبإحساس متقد.

وقد يقول قائل إنه مادام شوقى شاعراً فهو وليد تجارب عديدة وأطوار وصور وأحداث ومواقف من المفروض أن يكون بينها، موقفه الإنسانى حيال ما ينظم.

ولكن الرد على ذلك يتصل بما يحمله الشاعر بين جنبيه من حساسية مفرطة وعاطفة مشبوبة هى التى تكون بارزة فيما نحن فيه من حديث فإن الشاعر يمتاز عن زميله بفارق الحساسية والمشاعر والصدق والعاطفة المتقدة وبهذا يتفاوتون فى الموازين.

كانت هذه الظاهرة تتمشى مع شعر شوقى وتنساب حتى تكاد تعم كل ما نظم فى أى باب وفى أى زمان وفى أى مكان فهو إنسان مفعم بالإنسانية إذا خاطب حجراً فإنه يخاطبه كما لو كان إنساناً تجرى فى عروقه الدماء. وكان شوقى قد عرف بمحبته للحياة محبة عارمة تحمله على أن يحيط نفسه بكل ما هو حى حتى لو كان جماداً أو نباتاً أو حجراً:

اسمعه وهو يخاطب أبا الهول:

تحرك أبا الهول هذا الزمان تحرك ما فيه حتى الحجر

أبا الهول لو لم تكن آيـــــة لكان وفاؤك إحدى العبــر

وشعر شوقى العاطفى ينم عن نفس عفيفة وقلب يكتوى ويسلم أمره للمقادير وهذه صفات لا تتردد ولا ينبض بها إلا قلب من غلبت إنسانيته على عاطفته الحسية.

وهو فى عشقه وحبه إنسان وفى يحب ويغتر بمن أحب.

وهو صاحب مبدأ فى الحب. إنسانى النزعة، فهو على يقين من أنه مادامت قامت علاقة حب بين إنسان وإنسان فإن هناك وراء الغيب من يرعاها ويحفظها طالما كانت عفيفة طاهرة.

وكان شوقى يمتزج بالطبيعة فى شعره امتزاجاً يتحول فيه إلى جزء منها لا انفصام منه عنها فهى فى نظره الإنسانى شىء حى والحى يألف الحى.

والقارئ للشوقيات تستوقفه ظاهرة عجيبة أنه يقف أمام رجلين مختلفين جد

الاختلاف لا صلة بين أحدهما والآخر. إلا أن كليهما شاعر مطبوع يصل فى الشعر الإنسانى إلى علياء سماواته وأن كليهما مصرى عربى شرقى يبلغ حبه لوطنه مرتبة القداسة والتفانى والعبادة له، لأنه من خلق الله، أحدهما مؤمن عامر القلب والنفس بالإيمان وإنسان يقف نظمه ومشاعره على كل ما يتأثر به وجدانه ما اقترب منه مما يثيره أو ما ابتعد عنه غاية البعد ولكنه يتصوره وتحس روحه الشفيفة به.

وهو حكيم يرى الحكمة نبراس العقل والإيمان وهو متعصب للغته العربية حريص على أن تأخذ مكانها بين أرقى لغات الأرض فإنه يراها لغة تتسع لكل صورة وكل فكرة وكل معنى وكل خيال.

أما الرجل الآخر فهو رجل دنيا ونعيم يرى أن الله خلق النعيم فى الدنيا ودعا الناس إلى التمتع به فهو نعيم كفله الله لأبناء الحياة ليأخذوا منه بنصيبهم وهو متسامح تتسع نفسه للإنسانية والوجود كله.

وشوقى وهو يتجسد هاتين الشخصيتين إنما يكشف عن دخيلة نفس تمتلئ بالحياة والخيال ونور الإيمان والتعلق بأسباب السماء وإعلاء كلمة الحق لأنه قبل كل ذلك وبعد كل ذلك إنسان يفيض حسه بالإنسانية وبكل كوامن النفس البشرية التى تعتريها القوة كما يعتريها الضعف.

والشاعر الإنسان فى مثل نشأة أحمد شوقى وما حباه الله به من فيض عامر فى العاطفة والإحساس والخيال الرفيع والصدق فى التعبير يتدرج مع تاريخ وطنه منذ عهود الفراعنة وما تعاقب على مصر من رفعة تارة وانخفاض تارة أخرى ويقف وقفة المصرى الصادق العاطفة حيث تفيض عليه ربة الشعر بما يؤنسه فى هذا الترحال من قصص يرويها عن رمسيس وأبى الهول وتوت عنخ آمون وفرعون موسى إلى أن يصل إلى مصر العربية.

حيث تبين لقارئ نظمه، روحه الإنسانية الشفيفة وهى تغوص ليستخرج اللآلئ من أعماق الأحداث ويعرضها فى موكب زاهر براق يبهر الأنظار ويوقظ الأفكار وكأنما هو قيثارة إلهية يدفع إليها كل جيل بأصفى نسائمه، ليتغنى ويشدو بأهازيج

النصر تارة وبترانيم المسرة طوراً وبشجو الألم أحياناً عندما يتعرض شباب ورجال جيله إلى منازلة الغضب وما يلقونه على يديه من قهر وطغيان.

وله فى العلم والفن والعمل والجمال والترحال آيات بينات ينساب فيها روح الإنسان الداعى إلى التمسك بالخلق الصالح على اعتباره قوام الحياة فى الأمم، وهو يرى أن الخُلق القويم خير من الخلق القويم. وله بيت فى قصيدة طويلة أصبح يتردد على كل لسان، كما غدا مثلاً وبات دستوراً يدبر وينظم ويحكم:

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن همو ذهبت أخلاقهم ذهبوا

ولم يكن شوقى شاعراً لمصر وحدها فهو شاعر ينبض قلبه الكبير بحب الإنسانية أينما وجدت وعلى أية صورة تكون. وهو لذلك لا تراه يفرق بين الأوطان، فهو هو شاعر مصر كما هو شاعر العرب وشاعر الشرق وشاعر المسلمين وكل الأديان.

وشعر شوقى ملىء بالأمثلة الدالة على قدرة فائقة لا تجارى فى بعثه لألفاظ قديمة، وأفاضته عليها من رقيق شعره ما يجعلها تتسع لما لم تكن تتسع له من قبل من المعانى والأخيلة والصور.

وفى قصائد شوقى يسطع نور الوطنية ويتأجج لهيبها وهو أغزر الشعراء مادة وأوسعهم إنتاجاً فى هذه الناحية ولقد ظل يستلهم روح الوطنية طول حياته شاباً وكهلاً وشيخاً، بل إن شعره الوطنى فى شيخوخته كان أقوى منه فى شبابه وقد يكون مرجع ذلك إلى تجرده من الاتصال بالقصر بعد خلع الخديو عباس حلمى ثم إلى نفيه من مصر فى أوائل الحرب العالمية الأولى، فأثار البعد عن الوطن شاعريته وجاد بأبدع قصائده فى الحنين إلى مصر وحبه لها والهيام بها إلى درجة التقديس ومرجع ذلك أيضاً إلى تأصل عبقرية الشعر فى نفسه فلم تضعفها السن ولم ينال منها الزمن وظلت قوية تتدفق حيوية ونشاطاً.

والوطنية فى شعر شوقى هى فيض الفطرة والإلهام وليست من صنع الظروف أو التكلف ولذلك جاءت قوية جارفة عميقة رائعة.

وظل شوقى يتغنى بالوطنية ويغرد للمواطنين الناطقين بالضاد جميعاً ألحان الحرية ويسمعهم أسمى معانى الإنسانية حتى أدركته الوفاة وظل شعره بعد وفاته وسيظل على الدوام رمزاً للحكمة والحرية والخلود.

أخنـاتـون

١٣٨٠ ـ ١٣٥٣ ق. م

أول من نادى بوحدانيـة الله

فى الوقت الذى كاد التاريخ أن يحكم فيه على ديانة مصر القديمة بأنها ديانة تعدد، وبأن ملوكها لا شأن لهم بالدين وأنهم يخضعون خضوعاً مطلقاً لسلطة الكهنة، ظهر ملكها الفيلسوف «أخناتون» ليؤكد بظهوره دلالات عديدة.

أولها: أن مصر القديمة أنجبت أول وأعظم «فرد» فى التاريخ العالمى بكل ما تحمله هذه الكلمة من معان، ففى ظل سيطرة تكاد تكون مطلقة لعبادة الإله آمون، وفى ظل السيادة التامة لكهنته كان على هذا الشاب أن يقف موقفاً فلسفياً حاداً ـ نتيجة تأملاته الخاصة ـ جعله يصارع هذه القوة العظمى، قوة الكهنة رغم ما فى معارضتها من خطر عظيم على فرد فى مثل رقة ودماثة خلق أخناتون.

وثانيها: أن عقيدة «التوحيد» نبت مصرى أصيل، عرفها المصريون قبل الأديان السماوية وكان ذلك نتيجة تأملات كهنتها لتصورات شتى حول الألوهية وحينما أسلمت تلك الكيانات الإلهية التى خلقتها التأملات القديمة نفسها لتأملات أخناتون كان موقفه الفكرى الفريد برفض كافة مظاهر التعدد وضرورة أن يكون للعالم إله واحد خلق كل شىء وهو يرعى ما خلق.

أما ثالث تلك الدلالات: فهى أن الفلسفة بمعناها النظرى وليس العملى فقط كانت إبداعاً مصرياً، فالفلسفة هى فى المقام الأول موقف عقلانى يتخذه الفيلسوف

من مشكلة ما، ولا شك أن موقف أخناتون من عقائد عصره الدينية كان موقفاً فلسفياً فريداً عمقه الاقتناع العقلى الشديد لديه بأن عقيدته التوحيدية هى العقيدة الصحيحة وأن ما عداها وهم وضلال. وقد اكتسب هذا الموقف الفلسفى أبعاداً أعمق بتلك الأدلة والبراهين التى ساقها أخناتون فى قصيدته الشهيرة للتدليل على صحة معتقده حول واحدية الإله وعالميته.

* * *

فى عام ١٣٨٠ ق.م مات إمنحوتب الثالث الذى خلف تحتمس الثالث على عرش مصر بعد حياة حافلة بالعظمة والنعيم الدنيوى وخلفه ابنه أمنحوتب الرابع الذى شاءت الأقدار أن يعرف باسم أخناتون.

ولم يكد يتولى الملك حتى ثار على دين آمون وعلى الأساليب التى يتبعها كهنته فقد كان من فى الهيكل العظيم بالكرنك من النساء يتخذن سرارى لآمون فى الظاهر وليستمتع بهن الكهنة فى الحقيقة.

وكان الملك الشاب فى حياته الخاصة مثالاً للطهر والأمانة فلم يرضه هذا العهر المقدس وكانت رائحة دم الكبش الذى يقدم قرباناً لآمون كريهة فى خياشيمه كما كان اتجار الكهنة فى السحر والرقى واستخدامهم نبوءات آمون للضغط على الأفكار باسم الدين ولنشر الفساد السياسى مما تعافه نفسه فثار على ذلك كله ثورة عنيفة.

ورأى أخناتون ـ كما رأى «أكبر» فى الهند من بعده بثلاثين قرناً ـ أن الألوهية أكبر ما تكون فى الشمس مصدر الضوء وكل ما على الأرض من حياة.

ولسنا نعلم هل أخذ نظريته هذه عن بلاد الشام أو ابتدعها من عنده وهل كان آتون مجرد صورة أخرى لادنيس. وأياً كان أصل هذا الإله فقد ملأ نفس الملك بهجة وسروراً فاستبدل باسمه الأول أمنحوتب المحتوى على آمون اسم أخناتون ومعناه «آتون راض» واستعان ببعض الترانيم القديمة وبعض قصائد فى التوحيد ـ نشرت فى أيام سلفه ـ فألف أغانى حماسية فى مدح آتون وهى أجمل ما بقى لدينا من الأدب المصرى القديم.

وقد عثر بمقابر سراة القوم على أنشودتين منهما وضعهما أخناتون للمعبود آتون لتلاوتهما فى المعابد والتوسل بهما فى خلوته. وتعتبر هاتان الأنشودتان أهم ما خلفه لنا التاريخ من تلك العصور لأنهما يوضحان لنا قيمة مذهب ذلك الملك الفيلسوف الذى ضحى بالكثير لأجله.

ما أجمل مطلعك فى أفق السماء!

أى آتون الحى مبدأ الحياة.

ولا شك أن القارئ لتعاليم هذه العقيدة يتضح له أنها اعتراف صحيح بوحدانية الله وبرحمته ورأفته ووجود سره المكنون فى كل مخلوقاته وهذا يتمشى تماماً مع الروح الصوفية الموجودة فى هذه العقيدة وإليك ترجمة بعض ما جاء بهذه العقيدة.

«ما أكثر مخلوقاتك المتنوعة أنها سر مكنون أيها الإله الأحد الذى لا شريك لك فى الملك!».

ومن مآسى التاريخ أن أخناتون بعد أن حقق حلمه العظيم حلم الوحدانية العامة التى سمت بالبشرية إلى الدرجات العلى لم يترك ما فى دينه الجديد من صفات نبيلة يسرى فى قلوب الناس ويستميلها إليه على مهل. بل عجز عن أن يفكر فى الحقائق التى جاء بها تفكيراً يتناسب مع الواقع. لقد خال أن كل دين وكل عبادة عدا عقيدته وعبادته فحش وضلال لا يطاق فأصدر أمره على حين غفلة بأن تمحى من جميع النقوش العامة أسماء الآلهة كلها إلا اسم آتون وشوه اسم أبيه بأن محا كلمة آمون من مئات الآثار وحرم كل دين غير دينه وأمر أن تغلق جميع الهياكل القديمة وغادر طيبة لأنها مدينة نجسة وأنشأ له عاصمة جديدة جميلة فى أخناتون «مدينة أفق آتون».

ولو أن أخناتون كان ذا عقل ناضج لأدرك أن ما يريده من خروج على تعدد الآلهة القديم المتأصل فى عادات الناس وحاجاتهم إلى وحدانية فطرية تخضع الخيال للعقل لأدرك أن هذا تغيير أكبر من أن يتم فى زمن قصير وإذن لسار فى عمله على مهل وخفف من حدة الانتقال بأن جعله على مراحل تدريجية ولكنه كان

شاعراً لا فيلسوفاً فاستمسك بالحقيقة المطلقة فتصدع بذلك جميع بنائه وانهار على أم رأسه.

وكان الشاعر الفتى فى هذه الأثناء يعيش عيشة البساطة والاطمئنان وكانت له سبع بنات من زوجته نفرتيتى وكان حكم هذا الملك فترة من الحنو والعطف وسط ملحمة القوة والسلطان فى تاريخ مصر.

وجاءت الرسائل المروعة من الشام تنغص على الملك هذه السعادة الساذجة البريئة فقد غزا الحيثيون وغيرهم من القبائل المجاورة لهم البلاد التابعة لمصر فى الشرق الأدنى وأخذ الحكام المعينون من قبل مصر يلحون فى طلب النجدة العاجلة وتردد أخناتون فى الأمر ذلك أنه لم يكن على ثقة من أن حق الفتح يبرر إخضاع هذه الولايات لحكم مصر وكان يكره أن يرسل المصريين ليهلكوا فى ميادين القتال البعيدة دفاعاً عن قضية لا يثق بعدالتها. ولما رأت الولايات أنها لا تطلب النجدة من ملك حاكم بل تطلبها من ولى صالح خلعت حكامها المصريين وامتنعت فى غير جلبة عن أداء شىء من الخراج وأصبحت حرة مستقلة فى جميع شئونها، ولم يمض من الزمن إلا أقصره حتى خسرت مصر إمبراطوريتها الواسعة وانكمشت حتى عادت دولة صغيرة ضيقة الرقعة وسرعان ما أقفرت الخزانة المصرية التى ظلت قرناً كاملاً تعتمد على ما يأتيها من الجزية الخارجية ونقصت الضرائب المحلية إلى أقصى حد ووقف العمل فى مناجم الذهب وعمت الفوضى جميع فروع الإدارة الداخلية. وألفى أخناتون نفسه معدماً فقيراً لا صديق له ولا معين فى عالم كان يخيل إليه من قبل أنه كله ملك له. واندفع لهيب الثورة فى جميع الولايات التى كانت تابعة لمصر وقامت جميع القوى الداخلية فى وجهه تناوئه وتترقب سقوطه.

ولم يكد يتم الثلاثين من عمره حتى توفى فى عام ١٣٥٣ق. م محطم القلب بعد أن أدرك عجزه من أن يكون ملكاً وأيقن أن شعبه غير جدير به.



إخـوان الصفـا

النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى

أصحاب الهيئة العلمية الأخلاقية

لم يكد يمضى على موت الفارابى ثلاثون سنة حتى هب جماعة من صفوة علماء العصر وخاصة حكماءه الذين أحاطوا بنظريات الأقدمين من فلاسفة الإغريق والهند وفارس وقتلوها بحثاً وتمحيصاً وهضموا براهينها واعتراضاتها ونجحوا فى اكتناه خفاياها وأسرارها واستنبطوا منها آراء خاصة، وأقل ما تدل عليه عندهم هو النضوج الفائق فى النظر والفكر وغزارة العلم وسعة الاطلاع ووفرة الثقافة فى جميع جوانب المعارف البشرية التى وصل إليها العالم القديم إلى عصرهم.. وفوق ذلك فقد صفت نفوسهم من شوائب المادة وعلت أرواحهم عن علائق المنفعة فوصلوا ـ كما ينبئوننا فى رسائلهم ـ إلى أسمى آوج الإخلاص والوفاء.

ولما تصافت نفوسهم وتعارفت أرواحهم تآخوا على البر والتقوى، وقر رأيهم على أن يؤلفوا لهم هيئة علمية وأخلاقية تتعاون على نشر الثقافة العالية من: إلهيات ورياضيات وطبيعات وخلقيات بأسلوب أدبى سلس لكى تذوقه الخاصة ولا يعسر فهمه على العامة. ولما كان أساس تكونهم هو الإخلاص والفدائية فقد أطلقوا على أنفسهم اسم «إخوان الصفا وخلان الوفا».

وقد حدثنا الأستاذ «دى بوير» فى دائرة المعارف الإسلامية الفرنسية نقلاً عن الأستاذ «جولزيهير» أن هذه الجماعة قد أخذت اسمها من قصة «الحمامة المطوقة» فى كتاب «كليلة ودمنة».. لأن هذه الخرافة فضلاً على أنها اشتلمت على الكلمة نفسها «إخوان الصفا» قد احتوت من الغيرية والتضحية ما اشترطته هذه الجماعة فى الصداقة.

ألف أولئك العلماء جماعتهم بطريقة سرية لا يطلع عليها أحد من العامة ولا من الخاصة لأنهم آمنوا بأن فشلهم مقرون بإيضاح خطتهم أو بإظهار أسمائهم إذ كان يكفى لسحقهم وإحباط كل أعمالهم أن يهب بضعة شيوخ من رجال الدين فيؤلبوا عليهم العامة معلنين أنهم زنادقة أو ملحدون.

ولم يكشف اللثام عن تأسس هذه الفئة ولم يحط علماً بأغراضها الحقيقية، ولذلك فقد ظلت هذه الأغراض موضع التكهن والخلط حتى عند الباحثين المحدثين فى عصورنا الحاضرة وإليك ما يقوله البارون «كارادى فو» حول تأسس هذه الجماعة:

«إن هذه الجماعة لم تكن جمعية فلسفية بسيطة وإنما كانت إلى جانب ذلك شيئاً آخر وإن كان من العسير أن يقال ما هو ذلك الشىء بالضبط إنه يحوم حولها سر غريب وهو الذى يمنع من كشف غايتها وأعمالها ووسائلها ولكن الأمر المؤكد هو أن إخوان الصفاء كان لديهم أدوات أخرى للدعاية غير مؤلفاتهم، بل إن هذه المؤلفات نفسها لم تقل كل شىء عنهم ولم توضح كيف كانوا ولا ماذا كانوا يفعلون ولكنهم كانوا يشتغلون بالسياسة».

وكذلك الدكتور طه حسين يرى هذا الرأى إذ يقول ما نصه:

«كان هؤلاء الناس إذن يعملون من وراء ستار ويؤلفون جماعة سرية وكان قوام جماعتهم هذه - فيما يظهر - سياسيّاً وعقليّاً.. فهم يريدون قلب النظام السياسى المسيطر على العالم الإسلامى يومئذ، وهم يتوسلون إلى ذلك بقلب النظام العقلى المسيطر على حياة المسلمين أيضاً وهم يسلكون فى ذلك مسلك جماعات سبقتهم فى العالم القديم أظهرها جماعة الفيثاغوريين فى المستعمرات اليونانية الإيطالية....

واستطرد قائلاً:

«وحاول أفلاطون شيئاً من ذلك فوفق من الجهة العقلية وتخيل نظاماً سياسياً بسطه فى كتاب «الجمهورية» وكتاب «النواميس» وأقامه على الفلسفة الأفلاطونية كلها كما أقام الفيثاغوريون نظامهم على الفلسفة الفيثاغورية... ولكن أفلاطون لم يوفق فى الحياة العملية إلى شىء وظلت سياسته خيالاً ليس غير. وفلاسفة اليونان جميعاً متفقون على أن النظام السياسى كائناً ما كان لا قيمة له إذا لم يعتمد على نظام من نظم التربية يلائمه ويهيئ الأفراد والجماعات لتأييده والذود عنه... فالتربية أهم ما يعنى به أفلاطون فى الجمهورية وهى أهم ما يعنى به أرسطاليس فى كتاب «السياسة» وكلاهما يبين أحسن تبيين الصلة بين أنواع التربية والتعليم المختلفة وبين ما يوجد أو يتخيل من نظم الحكم والسياسة...

«فجماعتنا السرية هذه متأثرة من غير شك بما كان فى العالم اليونانى من محاولات تشبه محاولتها السياسية متأثرة بمحاولة الفيثاغوريين متأثرة بمحاولة أفلاطون وقد كان حظها من التوفيق كحظ الفيثاغوريين فقد وفق الإسماعيليون إلى وجود سياسى مكن لهم فى بعض الأرض ونشر الرعب فى العالم الإسلامى حينا».

ومهما يكن من الأمر فإن الذى لا ريب فيه أن هذه الجماعة قد وجدت وتكونت من عدد عظيم من خاصة رجال العصر وكبار علمائه وفصحائه وفطاحل مفكريه وفلاسفته وأن أعضاءها كانوا من أشد أهل زمانهم محافظة على مكارم الأخلاق وتمسكاً بالفضائل العالية من إخلاص ووفاء وطهر وصدق وأمانة وغير ذلك وأنها كانت ترمى إلى غاية معينة قد يكون ما صرحت به جزءاً منها وقد يكون غيرها سواءً أكان هذا الغير متجهاً إلى السياسة أم إلى الدين أم إليهما معاً وإن كنا نستطيع أن نجزم بأن هذه الغاية - إن وجدت - لم تكن شخصية البتة بل كانت للصالح العام.



الشريف الأدريسى

١١٠٠ ـ ١١٦٦م

عُمدة الجغرافيين المسلمين

عندما نجا إدريس بن عبد الله بن الحسن المثنى بن الحسن بن على بن أبى طالب من مجزرة «فخ» الرهيبة لم يكن أحد يحسب أنه سيكون لنجاته مثل هذا الشأن الذى صار لها.

ولكن إدريس استطاع أن يجعل لنجاته شأناً تاريخيّاً كبيراً امتدت آثاره عدة قرون وعاد على العرب والمسلمين بالخير الكثير.

* * *

مضى اليوم زهاء تسعة قرون على وفاة الجعرافى المسلم العظيم الشريف الإدريسى الذى يعتبر بحق عُمدة الجغرافيين المسلمين والذى أنفق شبابه فى شبه الجزيرة الإسبانية طالباً دارساً وباحثاً متجولاً ثم خص جغرافيتها ووصفها فى موسوعته الجغرافية العظيمة بأقيم فصولها.

وهو أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عبد الله بن إدريس يحيى بن على بن محمود بن ميمون الحمودى سليل أسرة بنى حمود الملوكية البربرية التى حكمت جنوبى الأندلس وثغر سبتة فى أوائل القرن الخامس الهجرى وسمى بالشريف لأنه يتصل بنسبته إلى أسرة الإدارسة الحسنية التى ينتمى إليها بنو حمود والتى حكمت المغرب منذ أواخر القرن الثانى الهجرى، وهذه ترجع نسبتها إلى آل البيت ومن ثم فإن نسبته تورد منذ جده الأعلى ميمون على النحو التالى: ميمون بن أحمد بن على ابن عبيد الله بن عمر بن إدريس بن عبد الله بن الحسن بن على بن أبى طالب،

وإذن، فهو وفقاً لهذه النسبة كذلك سليل آل البيت.

ولد الإدريسى فى مدينة سبتة، ميناء المغرب الأقصى على البحر الأبيض المتوسط، ويعود أصل عائلته إلى إدريس الأول مؤسس الأسرة والذى هرب من المشرق وأسس إمارة مستقلة فى منطقة الريف، واستمرت من أواخر القرن الثامن حتى القرن العاشر الميلادى وتوسعت خلال هذه الفترة حتى كادت تشمل المغرب كله. وقد اشتهر إدريس الأول بصفته ولياً من الأولياء الصالحين لاسيما بعد وفاته.

وقد كانت مدينة سبتة المغربية - وهى التى لعبت دوراً عظيماً فى تاريخ المغرب والأندلس التى تعتبر اليوم أرضاً أسبانية تتبع ولاية قادس الأندلسية وتحتلها أسبانيا منذ قرون - كانت مسقط رأس لجمهرة كبيرة من علماء المغرب والأندلس وتشتهر بالأخص بمولد رجلين من أبنائها يشغل كل منهما مكانة بارزة فى تاريخ العلوم العربية وقد عاش كلاهما فى نفس العصر تقريباً أى فى النصف الأول من القرن السادس الهجرى هما الشريف الإدريسى أعظم الجغرافيين المسلمين والقاضى عياض بن موسى السبتى أعظم حفاظ المغرب بلا مراء.

ولسنا نعرف الكثير عن نشأة الإدريسى وحياته الأولى بيد أننا نعرف من إشارات وردت فى مؤلفه أنه درس فى معاهد الأندلس ولاسيما فى قرطبة وقد كانت الأندلس يومئذ تحت حكم المرابطين سادة المغرب ونعرف كذلك أنه قام برحلات عديدة فى شبه الجزيرة الأسبانية ووصل فى تجواله غرباً حتى ثغر أشبونة أو لشبونة عاصمة البرتغال الحديثة وقد كانت يومئذ ثغر ولاية الغرب الأندلسية ثم زار شمالى أسبانيا وتجول فى جليقية، بل هنالك فى كتاباته ما يدل على أنه زار شواطىء فرنسا مما يلى خليج يسكونية، ووصل فى رحلاته البحرية حتى شواطئ إنجلترا الجنوبية ولما أتم تجواله فى شبه الجزيرة الأسبانية وما إليها عبر البحر إلى المغرب وتجول فى شماله وجنوبه وهنالك ما يدل على أنه عاش حيناً فى مدينة مراكش وحيناً آخر فى شمالى المغرب بمدينة قسنطينة، وكذلك رحل الإدريسى إلى المشرق وتجول فى آسيا الصغرى وزار المغارة المنسوبة إلى أهل الكهف حسبما يحدثنا بذلك ومن المحقق أن هذه الرحلات العديدة كان لها أكبر أثر فى تكوين معلوماته الجغرافية التى ظهر أثرها فيما بعد فى أبواب كثيرة من

معجمه الجغرافى.

وهنا يلعب القدر دوره فى تطور حياة الإدريسى ذلك أننا نراه بعد ذلك فى جزيرة صقلية يمثل فى بلاطها ويخوض حياة علمية باهرة. ونحن نعرف أن جزيرة صقلية افتتحها المسلمون تباعاً ما بين سنتى (٨٢٨ و ٨٧٨م) وغدت فى ظلهم حديقة يانعة تزهو بعلومها وتجارتها وصناعتها حتى إذا أدرك الوهن تلك الدولة الإسلامية الصغيرة توالت عليها حملات الفرنج حتى غزاها النورمان.

وكان وفود الإدريسى على الجزيرة فيما يرجح بين سنتى ١١٣٠ و١١٤٠.

وكان العلامة المسلم يومئذٍ، يسبقه صيته كرحالة وعالم جغرافى فاستقبل فى بلاط صقلية بترحاب وأغدق عليه الدوق رجار عطفه ورعايته وعهد إليه بالمهمة العلمية العظيمة التى حققها الإدريسى بكتابة معجمه الجغرافى الخالد.

ولما تمت دراسة المصادر القديمة أمر الدوق بعد ذلك وحسبما يحدثنا الإدريسى «أن يفرغ له من الفضة الخالصة دائرة مفصلة عظيمة الجرم ضخمة الجسم فى وزن أربعمائة رطل بالرومى فى كل رطل منها مائة درهم واثنا عشر درهماً» وأن تنقش فيها صور الأقاليم السبعة بأقطارها وبلادها وخلجانها وبحارها وأنهارها وعامرها وغامرها. والأقاليم السبعة هى أساس التقسيم الجغرافى للعالم فى العصور الوسطى وقد سار عليه سائر الجغرافيين المسلمين فقام العمال المهرة تحت إشراف الإدريسى وتوجيهه بإتمام تلك المهمة العظيمة على أكمل وجه، ونقش فوق الكرة الفضية: خريطته الشهيرة للعالم المعروف يومئذٍ وقد اشتهرت هذه الخريطة الإدريسية يومئذ وغدت منذ وضعها مستقى لكثير من الجغرافيين الأوربيين فى العصور الوسطى ولاسيما العلامة البندقى مارينو سانتو الذى استرشد بها فى معظم خرائطه.

وتلا ذلك فكرة وضع مؤلف جغرافى عام يرسم مطابقاً للكرة الفضية وتستعرض فيه الأقاليم السبعة المحفورة عليها وتوصف فيه أحوال البلاد والأرضين وأماكنها وصورها وبحارها وجبالها ومسافاتها ومزروعاتها وعللها وخواصها وأجناس نباتها وما بها من الصناعات والتجارات وما يذكر عنها من العجائب وحيث

هى من الأقاليم السبعة، مع ذكر أحوال أهلها وهيئاتهم ومذاهبهم وأزيائهم ولغاتهم.

وقد كتب الإدريسى غير موسوعته الجغرافية كتاباً آخر عنوانه «روض الأنس... ونزهة النفس» أو «كتاب المسالك والممالك».

وكان الإدريسى ـ فوق براعته فى علوم الجغرافية ـ عالماً ممتازاً بالنبات له آفاق واسعة فى معرفة الأرض التى وطئتها قدماه فى رحلاته لذلك فقد كان وصفه للنباتات المختلفة لا يختلف كثيراً عن الوصف العلمى الحديث.

وله من الكتب: النبات، وكتاب الأدوية المفردة، وكتاب الجمع لصفات أشتات النبات فى أربعة أجزاء، وكتاب الصيدلة.

وتوفى الإدريسى فى سنة (١١٦٦م) وهو فى السابعة والستين من عمره ولسنا نعرف أين توفى وأين دفن ويغلب على الظن أنه استقر فى البلاط النورمانى فى بلرم حتى توفى ودفن بالجزيرة..



الأصبهانى

٨٩٧ ـ ٩٦٧ م

صاحب الأغانى

لعل كتاباً من كتب العربية لم ينل حظاً من الشهرة والذيوع والاحتفال به وإدمان القراءة له والاستفادة من مادته كما نال كتاب «الأغانى» وليس فى ذلك أية غرابة، فالكتاب جدير بالشهرة قمين بالذيوع خليق بأن يستفاد منه، فهو جيد رائع يدل على ملكة التأليف الأصيلة والمثابرة الداعية وسعة الأفق وتنوع الثقافة عند المؤلف العربى.

ومؤلف كتاب الأغانى شخصية بارزة من غير شك من شخصيات الفكر العربى، فهو على بن الحسين الأموى القرشى، تتصل عصبيته بمروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية، وكنيته أبو الفرج، ولد بأصبهان أو أصفهان عام ٢٨٤ هـ (٨٩٧ ميلادية) وإليها انتسب.

ولم تدم حياة أبى الفرج فى أصبهان طويلاً، إذ ما لبث أن رحل عنها إلى بغداد، وروى عن علماء كثيرين يطول تعدادهم، وسمع من جماعة لا يحصون، ومنهم ابن دُريد إمام عصره فى اللغة والأدب والشعر، والفضل بن الحباب الجمحى الراوية، والأخفش العالم النحوى الكبير، وابن الأنبارى، والطبرى، ومحمد بن خلف ابن المرزبان، وجعفر بن قدامة أحد مشايخ الكتاب وعلمائهم.

وقال عنه ابن خلكان: «كان من أعيان أدبائها «بغداد» وأفراد مصنفيها، روى عن عالم كثير من العلماء يطول تعدادهم، وكان عالماً بأيام الناس والأنساب والسير».

وقال التنوخى: «ومن المتشيعين الذين شاهدناهم أبو الفرج الأصبهانى، وكان يحفظ من الشعر والأغانى والأخبار والآثار والأحاديث المسند والنسب ما لم أر قط من يحفظه مثله... يحفظ دون ذلك من علوم أُخر، ومنها اللغة والنحو والخرافات والمغازى والسير، ومن آلة المنادمة شيئاً كثيراً، مثل علم الجوارح والبيطرة ونتف من الطب والنجوم والأشربة وغير ذلك، وله شعر يجمع إتقان العلماء وإحسان ظرفاء الشعراء».

وقال ياقوت فى معجم الأدباء: «العلامة النسابة الإخبارى والحفظة، الجامع بين سعة الرواية والحذق فى الدراسة، لا أعلم لأحد أحسن من تصانيفه فى فنها وحسن استيعاب ما يتصدى لجمعه، وكان مع ذلك شاعراً مجيداً».

وقال ابن النديم فى كتاب الفهرست: «كان شاعراً مصنفاً أديباً، وله رواية يسيرة، وأكثر تعويله كان من تصنيفه على الكتب المنسوبة الخطوط أو غيرها من الأصول الجياد».

ويبدو أن أبا الفرج الأصبهانى كان متأثراً إلى حد بعيد بإسحاق الموصلى، فهو يقول: «إن موضعه فى العلم، ومكانه فى الأدب، ومحله فى الرواية، وتقدمه فى الشعر، ومنزلته فى سائر المحاسن.. أشهر من أن يدل عليه فيها بوصف».

كما تأثر أبو الفرج الأصبهانى كذلك بابن المعتز الخليفة الشاعر، إذ كانت له آراء جريئة فى الفن الشعرى والغناء، فنقل عنه آراء طريفة، وأخباراً طيبة، وروى أحكامه النقدية فى الغناء والمغنين.

وتأثر الأصبهانى كذلك بشخصية «جحظة البرقلى» وكان حسن الأدب كثير الرواية للأخبار، متصرفاً فى فنون جمة، عارفاً من العلوم بصناعة النجوم، حافظاً لأطراف من النحو واللغة، مليح الشعر، مقبول الألفاظ، حاضر النكتة. وأما صناعة فن الغناء فلم يلحقه فيها أحد، وقد جلس إليه الأصبهانى مجلس الطالب من الشيخ، ولم يفارقه إلا بعد أن انتقل جحظة إلى جوار ربه، وكان الأصبهانى فى ذلك الوقت فى الأربعين من عمره.

مؤلفات أبى الفرج...

لقد عاش أبو الفرج الأصبهانى اثنتين وسبعين سنة، ولكنها سنوات حافلة بالتأليف والجد فى سبيل التحصيل العلمى، ويكفى أن المدة التى استغرقها تأليف كتاب «الأغانى» كانت خمسين سنة، غير أن السنوات الخمسين لم تكن كلها فى تأليف الكتاب وحده، وإنما كانت جمعاً لمادته وتنسيقاً لموضوعاته فى فترات متقاربة حيناً، متباعدة أحياناً، بحيث استطاع أن يقدم آثاره الأخرى الوفيرة التى أحصاها المترجمون فإذا هى خمسة وعشرون كتاباً بالإضافة إلى «الأغانى» وهى:

١ ـ مجرد الأغانى.

٢ ـ التعديل والانتصاف فى أخبار القبائل وأنسابها «وقيل فى مآثر العرب ومثالبها».

٣ ـ مقاتل الطالبيين.

٤ ـ أخبار القيان.

٥ ـ كتاب الإماء الشواعر.

٦ ـ كتاب المماليك الغرباء.

٧ ـ كتاب أدباء الغرباء.

٨ ـ كتاب الديانات.

٩ ـ كتاب تفضيل ذى الحجة.

١٠ ـ كتاب الأخبار والنوادر.

١١ ـ كتاب أدب السماع.

١٢ ـ كتاب أخبار الطفيليين.

١٣ ـ كتاب مجموع الأخبار والآثار.

١٤ ـ كتاب الخمارين والخمارات.

١٥ ـ كتاب الفرق والمعيار فى الأوغاد والأحرار (رسالة عملها فى هارون بن المنجم صاحب كتاب البارع).

١٦ ـ كتاب دعوة النجار.

١٧ ـ كتاب أخبار جحظة البرمكى.

١٨ ـ كتاب جمهرة النسب.

١٩ ـ كتاب أيام العرب ذكر فيه ألفاً وسبعمائة يوم.

٢٠ ـ كتاب نسب بنى عبد شمس.

٢١ ـ كتاب نسب بنى شيبان.

٢٢ ـ كتاب نسب المهالبة.

٢٣ ـ كتاب نسب بنى تغلب.

٢٤ ـ كتاب الغلمان المغنين.

٢٥ ـ كتاب مناجيب الخصيان.

وإن نظرة إلى نوعية تأليف الأصبهانى، تدل على أن الرجل كان من أعلام المعرفة من تاريخ وأنساب وسير وأعلام ولغة ومغاز وغناء وقيان، ولكنه قد خصص نفسه فيما يبدو فى أمور الإماء والقيان والسماع والخمر!! ودرس كل ما يتعلق بهذه الفنون، ودوّن كل ما يتصل بها سواءً أكان ذلك فى كتابه «الأغانى» أو فى عدد كبير من الكتب العديدة التى مر ذكرها والتى تحمل العناوين الدالة على ذلك وهذا بالإضافة إلى كون الأصبهانى راوية نسابة على ما هو واضح من كتبه أنساب القبائل.



أصحاب المعلقات

٦٠٠ ـ ٥٥٠ ق. م

أعظم شعراء العصر الجاهلى

هى أجود ما وصل إلينا من الشعر الجاهلى وتسمى السموط أى العقود واختلف الرواة فى عدد المعلقات وأصحابها فأبو زيد القرشى صاحب جمهرة أشعار العرب يجعلهم ثمانية.. وهم امرؤ القيس وزهير والنابغة والأعشى ولبيد وعمرو بن كلثوم وطرفة وعنترة ولكن الزوزنى جعل المعلقات سبعاً ليس بين أصحابها النابغة ولا الأعشى وأضاف الحارث بن حلزة وأضاف أبو زكريا التبريزى فوق ذلك قصيدة عبيد بن الأبرص، فصارت المعلقات وملحقاتها عشراً.. هذه أسماء أصحابها:

امرؤ القيس ـ النابغة ـ زهير ـ طرفة بن العبد ـ لبيد ـ عنترة ـ عمرو بن كلثوم ـ الحارث بن حلزة ـ الأعشى ـ عبيد بن الأبرص.

واختلف أصحاب الأخبار فى شأن هذه المعلقات فى الجاهلية فقال بعضهم إن العرب بلغ من تعظيمهم إياها أن يعلقوها بأستار الكعبة وأنكر بعضهم ذلك وأكبروه وأقدم المنكرين أبو جعفر النحاس النحوى فقد قال فى شرحه المعلقات بالنسخة الخطية الموجودة منه فى مكتبة برلين ما نصه: «واختلفوا فى جمع هذه القصائد السبع وقيل إن العرب كان أكثرهم يجتمع بعكاظ ويتناشدون الأشعار.. فإذا استحسن الملك قصيدة قال علقوها وأثبتوها فى خزائنى. فأما قول من قال إنها علقت بالكعبة فلا يعرفه أحد من الرواة وأصلح ما قيل فى هذا: «أن حمادا الراوية لما رأى زهد الناس فى الشعر جمع هذه السبع وحضهم عليها وقال هذه هى المشهورات فسميت القصائد المشهورة.

والأكثرون يذهبون إلى أنها علقت فى الكعبة. وهذا ابن عبد رَبِّهِ الذى قال: «وقد بلغ من كلف العرب به (بالشعر) وتفضيلها له أن عمدت إلى سبع قصائد ميزتها من الشعر القديم فكتبتها بماء الذهب فى القباطى المدرجة وعلقتها فى أستر الكعبة فمنه يقال مذهبة امرؤ القيس ومذهبة زهير. والمذهبات سبع وقد يقال لها المعلقات وأيد ذلك كثيرون فى عصور مختلفة «وكانت المعلقات» تسمى المذهبات وذلك لأنها اختيرت من سائر الشعر فكتبت فى القباطى بماء الذهب وعلقت على الكعبة فلذلك يقال مذهبة فلان إذا كانت أجود شعره.

١ ـ امرؤ القيس

لا يذكر الشعر الجاهلى ولا المعلقات خاصة إلا وذِكر امرئ القيس قد ملأ الأسماع وشغل أصحاب الروايات، فلامرئ القيس شاعرية ينظر إليها جميع شعراء العربية المتقدمين والمتأخرين كشاعرية فذة يستحيل التحليق فى سمائها شعر رائق حوى كثيراً من أنواع الشعر العربى وذكروا أنه قد استنبط كثيراً من الأساليب الشعرية التى تحداها الشعراء منها دقة الوصف وإجادته على الخصوص فى وصف الناقة والفرس ويقولون إنه أول من شبه النساء بالظباء والمها والخيل بالعقبان وفرق بين النسيب وسواه من القصيد وقرب مآخذ الكلام فقيد الأوابد وأجاد الاستعارة والتشبيه.

هذه ميزات ينسبها أهل الأدب العربى إلى هذا الشاعر الفحل وقد تكون موضع فخر لشاعر أو سمة من سماته الفارقة.

٢ ـ زهير بن أبى سُلمَى

وهو أحد الثلاثة المقدمين على سائر الشعراء وهم: امرؤ القيس وزهير والنابغة وإنما اختلفوا فى تقديم أحد الثلاثة على صاحبيه. وكما امتاز امرؤ القيس باستنباط الأفكار والأساليب وتلطيف المعانى، فقد امتاز زهير بما فى نظمه من الحكمة البالغة وكثرة الأمثال مع القدرة على المدح وهو لا يعاظل فى الكلام ويتجنب وحشيه ولا يمدح أحداً إلا بما فيه، وكثيرون يفضلونه على صاحبيه ويقولون إنه أحسنهم شعراً وأبعدهم عن سخف وأجمعهم لكثير من المعانى فى قليل من الألفاظ.

٣ ـ طرفة بن العبد البكرى

جاء لقبه فى كتاب الأدب «الشاب القتيل» ولشعره مقام يعرفه الأدباء فهو على ما وصل إلينا من الطبقة الثانية وما كان لتأخيره عن الطبقة الأولى عذر لولا قلة ما وصل إلينا من شعره، فإن ابن سلام صاحب الطبقات لم يذكر أنه يعرف له إلا قصائد قليلة أشهرها التى مطلعها:

لخولة أطلال ببرقة ثمهد وقفت بها أبكى وأبكى إلى الغد

وتليها أخرى مثلها مطلعها:

أصحوت اليوم أم شاقتك هر ومن الحب جنون مستعر

ولكن ما فات ابن سلام أعاضه علينا الأدباء المتأخرون، وجاؤونا بنبذة من شعره لا يستطيع المطلع عليها إلا أن يحلها المقام الأول فى شعر الجاهلية فشعر طرفة شعر خالد متفاوت النزعات لا تستطيع أن تفهمه حتى تقف على شىء من حياة الشاعر.

٤ ـ لبيد بن ربيعة العامرى

هو لبيد بن ربيعة العامرى (من قيس) وكان من أشراف الشعراء المجيدين والفرسان المعمرين. يقال إنه عمر ١٤٥ سنة، عاش معظمها فى الجاهلية وقد أدرك الإسلام وأسلم وهاجر وحسن إسلامه ونزل الكوفة أيام عمر بن الخطاب فأقام بها حتى مات فى أوائل خلافة معاوية. فكان عمره ١٤٥ سنة منها ٩٠ فى الجاهلية وكانت الشاعرية ظاهرة فى عينيه منذ صباه... ذكروا أن النابغة رآه وهو غلام جاء مع أعمامه إلى النعمان بن المنذر فتوسم فيه الشاعرية فسأل عنه فنسبوه فقال له: «يا غلام إن عينيك لعينا شاعر أفتقرض من الشعر شيئاً؟ قال: «نعم يا عم» قال: «فأنشدنى» فأنشده قوله: «ألم ترجع على الدمن الخوالى إلخ». فقال له: «يا غلام أنت أشعر بنى عامر زدنى» فأنشده قوله: «طلل لخولة فى الرسيس قديم» فضرب بيده على جبينه وقال: «اذهب فأنت أشعر قيس كلها».

وأكثر شعره فى الجاهلية لأن الخلفاء الراشدين شغلوا الناس عن الشعر بالقرآن، ذكروا أن عمر بن الخطاب بعث إلى المغيرة بن شعبة وهو على الكوفة يقول له: «استنشد من قبلك من شعراء مصرك ما قالوا فى الإسلام» فأرسل إلى الأغلب الراجز العجلى، فقال له أنشدنى فقال:

أرجزا تريد أم قصيدا لقد طلبت هينا موجودا

ثم أرسل إلى لبيد، فقال: «أنشدنى ما قلته فى الإسلام» فكتب سورة البقرة فى صحيفة أتى بها وقال: «أبدلنى الله هذا فى الإسلام مكان الشعر» فكتب المغيرة بذلك إلى عمر فنقص من عطاء الأغلب خمسمائة وجعلها فى عطاء لبيد.

٥ ـ عنترة العبسى

إذا قيست الرجال بالشهرة، فلعنترة المقام الأشهر بين شعراء الجاهلية وفرسانها وقل من لم يسمع بذكره، وذلك لأننا فى هذه النهضة الحديثة أو قبلها لم يكن مستوانا العقلى بمكان يترفع عن التهافت على قصة متداولة تسمى قصة عنترة. فهذه القصة مع ما يحيط بها من جهل للعلم حببت بطلها عنترة إلى كثير من قلوب العامة حتى الخاصة وهذه الشهرة بقدر ما رفعت عنترة أمام العامة خفضته تجاه

الأدباء فقد عميت الحقيقة عليهم وجعلوا يتلمسون شعر عنترة فى دياجى هذه الكثرة التى تروى عنه وهم لا يتمكنون من الوقوف على حقيقة الرجل فقد جعله صاحب القصة رجلاً كاملاً بكل ما يتصف به الرجل الجاهلى ومن الصفات الرجولية الكاملة فى الجاهلية أن يكون شاعراً وهنا أصبح عنترة أمام الشعراء وبطلهم صاحب القدح المعلى فى كل أنواع الشعر فهم قد غمطوا حقه فى تعرف حقيقة شخصيته وفى تعرف شعره أيضاً ونستخلص الآن الكلام عنه من كتب الأدب معتمدين على أصح الأراء وأنزه النقد فى حقيقته.

٦ ـ النابغة الذبيانى

هو أحد الثلاثة المقدمين على سائر الشعراء واسمه زياد بن معاوية من ذبيان من قيس. هو من الأشراف الذين غض الشعر منهم كما غض من امرئ القيس. وكان يفد على النعمان صاحب الحيرة فيمدحه، فوقعت العداوة بينه وبين المنخل الشاعر، فوشى به إلى النعمان.. فهرب النابغة إلى بنى غسان ونزل بعمرو بن الحارث الأصغر ملك الغساسنة فمدحه. ومازال مقيماً عنده حتى مات عمرو وخلفه النعمان أخوه، فمكث معه حتى اصطلح مع النعمان صاحب الحيرة فعاد إليه.

وكان يفد على صاحب الحيرة أيضاً حسان بن ثابت الأنصارى، ولكن النابغة كان مقدماً على الجميع، فجمع من عطايا النعمان صاحب الحيرة ثروة طائلة وصار يأكل ويشرب فى آنية الفضة والذهب. وله منزلة كبرى عند شعراء عصره، فإذا جاءت سوق عكاظ ضربوا له قبة من جلد وجاء الشعراء ينشدون أشعارهم. وأول من أنشده ذات مرة الأعشى ثم حسان ثم الخنساء، وهذا شرف لم ينله أحد من الشعراء سواه، ويمتاز النابغة عن صاحبيه بأنه أحسنهم ديباجة شعر وأكثرهم رونق كلام وأجزلهم بيتاً، فكان شعره كلاماً ليس فيه تكلف. وذلك ظاهر فى كل أقواله حتى جرى كثير منها مجرى الأمثال، واقتبس الشعراء كثيراً من أقواله.

٧ ـ عمرو بن كلثوم

تغلبى من سادات بنى ربيعة جده عدى بن ربيعة وتحوم الظنون حول مولده، فيزعمون أن الجن والهواتف أنبأوا أمه بمجيئه وأنه سيسود قومه «فى خمسة

وعشر» ويوردون على ذلك شعراً سخيفاً ثم يقولون إن هذا من الشعراء الفرسان الفتاك وربما كان أشهر ما يعرفه الأدباء عنه هو قتله عمرو ابن هند فى قصته المشهورة وبناء على هذه القصة أصبح عمرو بن كلثوم أفتك العرب ثم يضن علينا التاريخ الأدبى بتفصيل أخبار هذا الشاعر الأمير وما يروونه من شعره لا يشفى غليلاً وإنما المشهور عنه هو معلقته.

ويختلف شعر ابن كلثوم عن سائر شعراء الجاهلية فهو بعيد عن التعقيد بعيد عن استعمال الكلام الجاهلى بعيد عن كل تكلف سلس العبارة بليغ التركيب يتفق مع شعر عنترة من هذه الناحية، وربما اتفقا من ناحية ثانية وهى الفخر والحماسة ولكن الأدباء متفقون على تقدم ابن كلثوم فى شعراء الجاهلية ونحن إذا قلنا شعره فإنما المعلقة وهى كل شعره على سبيل المجاز وهذه المعلقة لم يتصل بنا منها سوى ما يزيد قليلاً على مئة بيت، ويزعم الأدباء أنها كانت طويلة وطويلة جداً حتى يوصلوها إلى تسعمائة بيت أو الألف.

٨ ـ الحارث بن حِلزَة البشكرى

هو الحارث بن حلزة يرجع نسبه إلى بكر بن وائل إلى ربيعة وقد قرنه المعجبون به بالطبقة الأولى كما كانوا يقربون كل شاعر يستحسنون له البيت والبيتين والحارث من المعمرين فقد ذكروا أنه عاش ما يقرب من مائة وخمسين سنة وهو شاعر يقول الشعر فى هذه المدة الطويلة ولكن ليس بين أيدينا ما يعد شيئاً مذكوراً بالنسبة لهذا العمر الطويل وهو شيخ قبيلته والمدافع عنها عند الشدائد.



الأصمعى

٧٤٠ ـ ٨٣١م

ألمع علماء العربية وأدبائها

إن عبد الملك بن قريب أبا سعيد الأصمعى واحد من ألمع علماء العربية وأدبائها ومن أشهرهم فى الأسماع وأكثرهم ذكراً فى الكتب وجرياً على الألسنة لعلمه وفضله وأدبه ونوادره وظرفه وآثاره وكتبه.

لقد عاش فى تلك الفترة المزدحمة بالعلماء، فترة الخصوبة والعطاء والإنتاج والمناظرة والمزاحمة العلمية بالمناكب، وعاصر أكثر هؤلاء العلماء وله معهم قصص وأخبار ومناظرات، وله مع أعلام عصره من خلفاء ووزراء وحجاب وقواد طرائف تحكى ونكت تذكر.

كان الأصمعى بصرى المولد والوفاة مخلصاً لوطنه الصغير متعلقاً به، خرج يطوف فى البوادى يسمع من الأعراب الغريب من الألفاظ والطريف من النوادر ويجلس إلى الخلفاء يطرفهم بها ويزيل ضجرهم، فكان يلقى منهم العطاء الوفير. فلما تقدمت به السن عاد إلى موطنه البصرة وظل فيه إلى أن توفى سنة ٢١٦هـ وقيل قبل ذلك بعام حسب الروايات التى جاءت بها كتب التراجم، ومهما كان الأمر فقد عاش الرجل ما يناهز خمسة وثمانين عاماً، شأنه شأن أقرانه من علماء زمانه الذين غرفوا بطول العمر وسخاء العطاء الفكرى والأدبى.

قلنا إن الأصمعى كان يجوب البوادى ليحصّل الغريب ويجمع النوادر وهو فى ذلك يسعى إلى العلم سعياً يجمعه بنفسه فى تعب وكد، تماماً كما كان يفعل رجال الحديث الذين كان يسافر الواحد منهم مئات عديدة من الأميال لكى يحقق حديثاً

شريفاً أو حديثين، ولكن الأصمعى لم يفعل ذلك وحسب، ولكنه كان يختلف إلى علماء عصره ليسمع منهم ويتعلم على أيديهم.

وكما أفاد الأصمعى من هؤلاء وغيرهم فقد كان صاحب حلقة درس كبيرة يجتمع إليه الباحثون عن المعرفة فيسمعونه ويأخذون عنه، وكل هؤلاء يمثلون قمة العلم فى زمانهم فى النحو واللغة والرواية والشعر والنوادر والأخبار.

لقد كان الأصمعى جديراً بمكانته العلمية لذكائه المفرط وصدقه واستقامته، فقد ذكر بنفسه أنه يحفظ من الأراجيز وحدها ست عشرة ألف أرجوزة، وفى رواية عشرة آلاف أرجوزة، وذلك يدل على حافظة قليلة النظير بين العلماء، وروى عن ذاكرته أخبار أخرى مثيرة نذهب إلى تصديق أكثرها لأن صفورة الأئمة والعلماء والأدباء والشعراء قد امتدحوه وأكثروا فى إطرائه، فالإمام الشافعى يقول: ما رأيت بذلك العسكر أصدق من الأصمعى. وفى وصف آخر له قوله: ما عبر أحد عن العرب بأحسن من عبارة الأصمعى، والإمام أحمد بن حنبل ويحيى بن معين يثنيان عليه، وشهادة هؤلاء الثلاثة الأئمة ترفع قدر الأصمعى درجات، وهذا إسحاق الموصلى يقول: لم أر كالأصمعى يدعى شيئاً من العلم فيكون أحد أعلم به منه.

وبلغ من ثقة الخاصة والمثقفين بعلم الأصمعى أن المأمون ـ وهو من نعرف علماً وثقافة ـ كان قد أرسل إليه فى البصرة يستقدمه إلى ندوته لكى يستعين بعلمه وفضله فيما يعن له من مشاكل لغوية أو أدبية، ولكن الأصمعى كان من تقدم السن وضعف الشيخوخة بحيث لم يستطع أن يستجيب إلى رغبة المأمون فى السفر إليه، فكان المأمون يجمع المسائل ويبعث بها إليه فى البصرة فيجيب عليها.

والحق أن الرجل على مخالطته الخلفاء ورجال البلاط والوزراء ـ ومخالطة هؤلاء وأمثالهم قد تدفع بأكثر الناس إلى شىء من النفاق والرياء ـ كان صدوقاً عفّاً متديناً.

فأما مؤلفات الأصمعى فقد ذكر له صاحب الفهرست سبعة وأربعين كتاباً فى اللغة وما يتصل بها من أدب ونحو وصرف وشعر، وفى الإنسان وخلقه، وفى الحيوان من إبل وخيل وشاء ووحوش وخلقها وما يتصل بها، وفى النبات والشجر

والنخيل وأنواعها، وفى جزيرة العرب وداراتها ومياهها وأنوائها، وفى الأعراب ونوادرهم وأخبارهم، وفى موضوعات أخرى تتصل بالحياة العامة وجوانب المجتمع والبيئة، ويمكن أن نقدم مؤلفات هذا العالم الجليل على النحو التالى:

أولاً: كتب الحديث واللغة من شعر ونحو وصرف وغيرها:

كتاب المقصور والممدود، كتاب الهمز، كتاب فعل وأفعل، كتاب الأضداد، كتاب الألفاظ، كتاب اللغات، كتاب الاشتقاق، كتاب أصول الكلام، كتاب القلب والإبدال، كتاب الأصوات، كتاب الصفات، كتاب النسب، كتاب المذكر والمؤنث، كتاب معانى الشعر، كتاب الأراجيز، كتاب القصائد الست، كتاب مختاراته من الشعر وهو الذى أطلق عليه الشنقيطى «الأصمعيات» كتاب غريب الحديث، كتاب غريب الحديث، الكلام الوحشى، كتاب النوادر، كتاب نوادر الأعراب.

ثانياً: كتب اللغة والأدب والنحو والصرف والشعر:

كتاب خلق الإنسان، وكتاب الفرْق (يعنى الفرق بين أسماء الأعضاء فى الإنسان والحيوان)، وكتاب الأجناس، وكتاب خلق الفرس، وكتاب الخيل، وكتاب السرج واللجام والشوى، وكتاب الإبل، وكتاب الرَّحْل، وكتاب الشاة، وكتاب الوحوش، وكتاب السلاح.

ثالثاً: كتبه فى النبات والشجر والنخيل وهما كتابان:

كتاب النبات والشجر، وكتاب النخلة الذى نشره الدكتور أوجست هفنر والأب لويس شيخو مع كتاب النبات وكتاب الدارات، وسماه كتاب النخل والكرم.

رابعاً: كتبه فى الجزيرة العربية وما يتصل بها وهى:

كتاب جزيرة العرب، كتاب الدارات، كتاب الأخبية والبيوت، كتاب مياه العرب، كتاب الدلو.

خامساً: كتبه فى الموضوعات التى تتصل بالحياة العامة وهى:

كتاب الأثواب، كتاب الأوقاف، كتاب الميسر والقداح، كتاب الجراح.

والأصمعى بعد ذلك كله ملء السمع والبصر والفؤاد لكل دارس للغة أو متبحر فى أدب، وهو من رواد جامعى الشعر العربى ومحققى مختارات منه.

الأفغانى، جمال الدين

١٨٣٨ ـ ١٨٩٧م

أبرز رجال الإصلاح المسلمين

الإنسان العظيم هو الإنسان الذى يترك بصماته حية ماثلة على صفحة التاريخ، والذى يملك من القوى الذهنية والإرادية ومن الطاقات النفسية ما يستطيع به أن يوقظ موات الهمم، ويستثير العزائم، ويهز مجتمعه من جذوره، ليخلق فيه روحاً جديدة، وانبعاثة حماسية تدفعه إلى إعادة صياغة حياته على أسس جديدة.

ولقد كان جمال الدين الأفغانى واحداً من هذا الطراز من العظماء، الذين يملكون من الهمة وشدة المراس وروح النضال، ما يمكنهم من خلق يقظة عارمة للشعوب المغلوبة على أمرها، ورفع روحها المعنوية، من أجل السعى إلى الحرية، وإلى حياة أفضل وأكرم.

ولد جمال الدين فى قرية «أسعد أباد» بأفغانستان، وقد عنى والده بتعليمه وتثقيفه، فتلقى مبادئ العلوم العربية من نحو وصرف وبيان إلى جانب التاريخ وعلوم الشريعة من تفسير، وحديث، وفقه، وأصول، وكلام، وتصوف، والعلوم العقلية من منطق، وحكمة عملية، وسياسية، ومنزلية، وتهذيبية، وحكمة نظرية طبيعية، وإلهية، والعلوم الرياضية من حساب وهندسة وجبر وفلك ونظريات الطب والتشريح.

وكانت ملامح النجابة والذكاء واضحة فيه منذ نعومة أظفاره، فأتم هذا كله وهو فى الثامنة عشرة من عمره، وعرض له بعد ذلك سفر إلى الهند، فأقام بها سنة وبضعة أشهر، بحث فيها بعض العلوم الرياضية على الطريقة الغربية الحديثة،

وقدم بعد ذلك إلى الأقطار الحجازية لأداء فريضة الحج، فقضى سنة ينتقل من بلد إلى آخر، حتى وافى مكة المكرمة عام ١٨٥٦م، فوقف على كثير من عادات الأمم التى مر بها فى طوافه.

وقد لمس فى جولته هذه مدى تفكك الأمم الإسلامية، وما يعتورها من تمزق وعدم ترابط، وأدرك مدى ما يضمره الإنجليز من نية مبيتة للانقضاض على الدول الإسلامية، وخاصة إيران ومصر وبلاده أفغانستان، وعاد إلى بلاده، وانتظم فى سلك الوظائف الحكومية فى عهد الأمير «دوست محمد خان» ثم فى عهد ابنه «شير محمد خان» ثم أصبح الوزير الأول لدى الملك «محمد أفضل خان».

وراح يدعو وهو فى مصر ضد الإنجليز، ويبصر المصريين بحقوقهم وبمدى ما يعيشون فيه من ظلم وظلام، واتصلت بينه وبين الإمام الشيخ محمد عبده أسباب المعرفة، وقد استراب فيه بعض رجال الأزهر وهاجموه، فآثر أن يترك القاهرة إلى تركيا عام ١٨٧٠، وبعد أيام من وصوله الآستانة قابل الصدر الأعظم عالى باشا فنزل منه منزل الكرامة، وعرف له الصدر الأعظم فضله، وأقبل عليه بما لم يسبق لمثله، وهو مع ذلك بزيه الأفغانى من القباء والكساء والعمامة العجراء وحويت عليه لفضله قلوب الأمراء والوزراء، وعلا ذكره بينهم وتناولوا الثناء على علمه وأدبه، وهو غريب عن أزيائهم ولغتهم وعاداتهم.

ولم تمض ستة أشهر حتى عين عضواً فى مجلس المعارف، فأدى المهمة الموكولة إليه على أحسن وجه، وكان نموذجاً فى الأمانة والالتزام والارتفاع إلى مستوى المسئولية.

وقد وجه عنايته إلى تمزيق حجب الأوهام عن أنوار العقول، فاستضاءت الأذهان والبصائر، وحمل تلاميذه على العمل فى الكتابة، وإنشاء الفصول الأدبية والحكمية والدينية، وقد برعوا فى ذلك، وتقدم فن الكتابة فى مصر على يديه. ونبغ من تلاميذه فى مصر كتبة لا يشق عليهم غبار، وأغلبهم أحداث فى السن، شيوخ فى الصناعة، وما منهم إلا من أخذ عنه، أو عن أحد تلاميذه.

وقد حسده من أجل ذلك أقوام، واتخذوا سبيلاً للطعن عليه من قراءته بعض

الكتب الفلسفية التى نادى بعض المتأخرين منهم بتحريم النظر فيها، وحملوا عليه حملة عنيفة ونشروا حوله الأباطيل والترهات، رموه بتهم هو منها جميعاً براء، وأيدهم أخلاط من الناس من مذاهب مختلفة، ولكن ذلك كله لم يؤثر فى منزلته بين عارفيه ممن يقدرون علمه وفضله.

وكان على علمه وفضله ميالاً إلى السياسة، فأطال النظر فى حال مصر، وما آلت إليه من التدخل الأجنبى، وأدرك أنه لابد من تغيير أحوالها.

وكان شديد الكراهية لإنجلترا، فجاهر بذلك، وحمل على الاستعمار الإنجليزى وندد به وطالب بمناهضته ومقاومته وإعلان الجهاد ضده، ونشر فصولاً فى مهاجمة الاستعمار البريطانى، ترجمت فى جرائد إنجلترا، واهتموا بها كثيراً حتى تولى المستر جلادستون نفسه أمر الجدال فى موضوعها، وداخل الخوف من هذه المقالات فتصل إنجلترا فوشى به إلى الحكومة.

ولما كانت الأحداث العرابية، دعى من حيدر أباد إلى كلكتا، وألزمته حكومة الهند الإقامة فيها حتى انقضى أمر مصر وزالت الحرب الإنجليزية، ثم أبيح له الذهاب إلى أى بلد، فاختار الذهاب إلى أوربا.

وكانت لندن أول مدينة نزلها، فأقام فيها بضعة أيام ثم انتقل إلى باريس لنشر دعوته ضد الإنجليز، حيث التقى به تلميذه الإمام الشيخ محمد عبده، وكانت فى مصر جمعية وطنية اسمها «جمعية العروة الوثقى» فكلفته أن ينشىء جريدة تدعو المسلمين إلى الوحدة الإسلامية فأنشأ العروة الوثقى، وكلف جمال الدين بتحريرها، وكان للجريدة وقع رائع فى العالم الإسلامى، فنشر منها ثمانية عشر عدداً، ثم قامت الموانع دون استمرارها حيث أقفلت أبواب الهند دونها، وشددت الحكومة الإنجليزية الإساءة إلى كل من يقرأها.

وقضى جمال الدين فى باريس ثلاث سنوات، نشر فى أثنائها مقالات فى جرائدها تبحث فى سياسة روسيا وإنجلترا والدولة العلية ومصر، وترجمت جرائد إنجلترا كثيراً منها، وقد جرت له أبحاث فلسفية مع الفيلسوف الفرنسى «رينان» فى «العلم والإسلام» فشهد له الفيلسوف الفرنسى بسعة العلم وقوة الحجة، ثم ذهب

إلى لندن، بإيعاز اللورد تشرشل، واللورد سالسبورى، ليسألاه عن رأيه فى المهدى وظهوره إذ ذاك.

وكان جمال الدين قد درس أخلاق الأمم وتواريخها، وتدبر أحوال السياسة، مع بلاغته وقوة حجته، فنال لدى علماء إيران وأمرائها منزلة كبرى، وأصبح منزله حلقة يؤمها سراة البلاد ووجهاؤها، فساورت الشاه المخاوف من أن يكون وراء هذه الشعبية الجارفة التى تمتع بها جمال الدين ما يهدد سلطانه، فبدأ يغير معاملته له ويشيح عنه، فأدرك جمال الدين ما بنفسه، فاستأذنه فى السفر طلباً للاستجمام، فأذن له، فسافر إلى روسيا عام ١٨٨٦م.

ولقيه أهل روسيا بالتحية والحفاوة والإكرام، ثم اتجه إلى بطرسبرج، وتعرف على العظماء من رجالها من السياسيين والعلماء، ونشر فى جرائدها مقالات ضافية عن سياسة أفغانستان وإيران ومصر وإنجلترا كان لها دوى شديد فى مختلف الأوساط. وقد بقى فى روسيا أربع سنوات، وعندما زارها شاه إيران رجا الأفغانى بإلحاح أن يعود إلى إيران مرة أخرى، فعاد إليها فى صحبته عام ١٨٨٩، ولكن الشاه مالبث أن حقد عليه وطرده من إيران شر طردة.

ولجأ جمال الدين الأفغانى إلى البصرة وبقى بها سبعة أشهر، ثم ذهب إلى لندن، ثم سافر إلى الآستانة، ولما ضاق به السلطان سعى إلى مغادرة البلاد، وكان جمال الدين الأفغانى رجلاً حر الضمير، صادق اللهجة، عفيف النفس، رقيق الجانب، وديعاً مع عزة وكرامة، ثابت الجأش.

وكان راغباً عن حطام الدنيا، لا يدخر مالاً ولا يخاف من العوذ وكان ذكياً فطناً متوقد الذهن سريع الملاحظة، يكاد يكشف حجب الضمائر ويهتك السرائر، دقيق النظر فى المسائل العقلية، قوى الحجة، ذا نفوذ كبير على جلسائه، فلا يباحثه أحد فى موضوع إلا شعر بانقياد إليه، وكان قوى الذاكرة، حتى أنه تعلم الفرنسية وصار فى وسعه ترجمة مؤلفاتها، وقد حفظ من مفرداتها شيئاً كثيراً فى أقل من ثلاثة أشهر بلا أستاذ.

وكان واسع الاطلاع فى العلوم العقلية والنقلية.. وخاصة الفلسفة، وفلسفة

تاريخ الإسلام، والتمدن الإسلامى، وكان يعرف اللغات الأفغانية، والفارسية، والعربية، والتركية، والفرنسية جيداً، مع إلمام باللغتين الإنجليزية والروسية، وكان كثير المطالعة، لم يفته كتاب فى آداب الأمم وفلسفة أخلاقها إلا وطالعه وبحثه.

وقد كان هدفه الأكبر والأسمى هو توحيد كلمة الإسلام وجمع شتات المسلمين فى سائر أقطار العالم فى إطار دولة واحدة إسلامية تحت ظل الخلافة العظمى، وقد بذل فى هذا المسعى جهده، وانقطع من أجله، فلم يتخذ زوجة، ولا التمس كسبا، وقد داهمه مرض السرطان فى فكه فى أواخر عام ١٨٩٦م، وامتد إلى عنقه.. وتوفاه الله فى ٩ مارس ١٨٩٧م، بعد أن أخفقت العملية الجراحية التى أجريت له...



إيليا أبو ماضى

١٨٩١ ـ ١٩٥٧م

الشاعر العربى المهجرى

لبنان الأشم، رفيع الذرى، جميل ملهم، أوت إليه العروبة فى عصورها الأولى وسكنته كريمة عزيزة، فما لانت لها قناة ولا سكنت إلى ذلّ وهوان، وعاشت بين الصخر الصلب المتسامق والوادى الممرع السحيق، تتقلب فى أجواء الطبيعة، وتتمرّس بألوان التقشف أو الرياضة حتى ألِفت هذا العيش وهذا الجو، كما تألف النسور ذُرى الجبال فتأنف من الحضيض والسَّهل الخفيض.

فلما كان القرن التاسع عشر تفتح البحر لإرساليات العلم والسياسة، وكليّات الدين والثقافة، وارتبطت بعض النفوس بجوالى الغرب، واشتدّ نفوذ الأجنبى وارتفعت له ألويةٌ على كثير من البيوت وقامت له أمكنة فى كثير من القلوب، خاف العثمانيون أن ينقلب معها لبنان إلى منارة ثورة، تجرّ العرب إلى الخروج عن نيرهم والانفلات من سلطانهم، فضيقوا على لبنان الخناق، وبثوا فيه روح التفرقة، وسدّوا عليه أبواب النعيم، وأعانتهم الطبيعة القاسية فيما صنعوا، فاكتوى الشعب بالجوع والحرمان، والطيش والجهل، وراح النسر اللبنانى يفتش عن ذرى جديدة يخفق بها جناحاه فى عزّة ورفعة ونعيم، وتوجه إلى مصر وإلى أمريكا وغيرهما من ربوع الأرض هرباً من الذلّ والحاجة. ولسنا هنا لنبحث عن أصل الهجرة والمهجريين، وسبب النزوح وسبيل النجاح وإنما نتحدّث عن مهاجر طفل ولد فى قرية «المحيدثة» بأطراف «بكفيّا» على الوادى الساحر سنة ١٨٩١، وأحسّ بالحاجة وضاق بالعيش وهو صغير، فسعى إلى الرزق ولما يعدُ الحادية عشرة من عمره. متوجهاً إلى

الإسكندرية سنة ١٩٠٢، وفى الإسكندرية من أهل لبنان وغير لبنان من اتخذها ملجأ وملاذاً للرزق ووسيلة للعيش، فنزل فيهم هذا الطفل، واتخذ لنفسه مرتزقاً يعيش منه. ولا شك فى أن أصدقاء أهله ومعارفه أعانوه فى هذه السبيل وكفلوه فى هذا الميدان، وأحاطوه بالرعاية والعناية، لما عرفوا من نحوله وضآلة جسمه وقلة ماله، فأدخلوه بيوتهم وقرّبوه من أهلهم وعشيرتهم، فلم ينظر إلى شىء نظره إلى كتب اللغة ودواوين الشعر، حتى عشقها وأكبّ عليها يقرؤها فى كلّ ليلة، وفى كلّ فرصة تعرض، ولعله دخل بيوت هؤلاء اللبنانيين الشوامخ الذين كانوا يسكنون فى مصر، فقد نقل إلينا الأديب «أنطون الجميِّل» وكان ينشىء مجلة «الزهور» وينشر فيها مختارات الأدب وروائعه أنه تعرف مرّة إلى الفتى وسمع منه شعراً، وأعجب بهذا الشعر الناشئ فنقله إلى مجلته وأداره على قرائها يرشفون من هذا الأدب الغضّ الفتىّ، ويتساءلون عن مستقبل الشعر عند الشاب.

ولعل هذه المجلة هى التى أكسبته الشهرة المبكرة، ودفعته إلى بيوت هؤلاء السوريين الذين كانوا يعيشون فى الإسكندرية والقاهرة عيشاً اجتماعياً راقياً يجارى الجوالى الغربية التى كانت تسكن هذه الربوع. وقد وقف الشاعر الفتى من هذه المشاهد موقفاً يحتميه عليه سنه وثقافته وقراءاته، فطرق الموضوعات السطحية، وجمعها فى ديوان صغير، ونشرها سنة ١٩١١ بالإسكندرية وعمره عشرون سنة آنذاك وسمّى الديوان «تذكار الماضى» وأكثر الذين تحدثوا عن الشاعر لم يقفوا على الديوان، ولم يتحدثوا عنه.

ولكنّ الشاب تحرّك للهجرة ثانية، وفكر هذه المرة فى أن يذهب بعيداً بعد أن طوى عشرة أعوام فى مصر، فركب البحر إلى أمريكا الشمالية سنة ١٩١٢ وهو فى الحادية والعشرين، بعد عام واحد من صدور ديوانه الأول.

وفى مقاطعة «أوهايو» راح الشاب «إيليا» يعمل فى التجارة. وظلّ كذلك خلال أربع سنوات انتقلَ بعدها إلى نيويورك سنة ١٩١٦ وفى هذه المدينة الجديدة رأى الشاب حضارةَ العصر فى آليّة عجيبة، تلتهم الهدوء الشعرىّ والتلذّذ الأفلاطونى، وتبتلعُ الزمن، فلا يتفرّغ السكان للهوى والعاطفة كما يتفرّغون فى الشرق، وإنما يعكفون على المادة والعمل، حتى لكأنهم يسيرون فى سباق مع الأيام والليالى.

وقد أدرك «أبو ماضى» كما أدرك زملاؤه أن هذه الدنيا الجديدة أتون فغر فمه ليبتلع كل ما فى المهاجرين من الشرق، أو كأنها شلاّل من النار قد انحدر ليحرق كلّ ما علق بهم من لبنان، ورأى أن صدور قومه امتلأت بالدخان، فلا سبيل إلى مكان فيها للنغم الحلو، كأنها أوصدت منها مواضع الحب والجمال.

ولعلّ هذا الحال هى التى دفعت به عن قومه بعيداً، فتوجه إلى الوحدة والعزلة، وراح يغنى حنينَه إلى الوطن، وذكريات الأهل، وصور لبنان، ففرّج عن نفسه كربةً أخفاها فى مصر، وأفرجَ عن معان وطنية وسياسية حبسها طويلاً.

فالتحرير هو المهنة الوحيدة التى كان يعرفها، فما كان يملك إلا لساناً وقلماً، عمل لهما طويلاً وحفظ كثيراً، حرر «المجلة العربية» ثم أسهم فى تحرير «الفتاة» لشكرى البخاش، ثم انصرف إلى تحرير «مرآة الغرب» عشر سنوات منذ سنة ١٩١٨، واتخذ «السمير» منبراً لنثره وشعره سنة ١٩٢٩ حتى ماتت بموته.

وقد تنبّه أرباب «الرابطة القلمية» لهذا الشاب الشاعر الناثر، ورأوا فى شعره أملاً كبيراً، وفى نثره ثروة واسعة، ووجدوا فيه عضداً وساعداً، فقد أقبل ليعيش على أطراف قلمه، ويحيا بمداد روحه، فكأنه خص حياته بالأدب، ووقف أيامه على تطريز الفكر ومعالجة المعانى. لذلك اتصلوا به واتصل بهم، فأفاد منهم آراء جديدة وصوراً جديدة، نقلته من الشعر الذى كان سائداً فى مصر على غرار البارودى وشوقى وحافظ إلى شعر آخر اتخذه أربابُ الرابطة، فيه ثورة وفيه آفاق مختلفة ترمى إلى دنيا أخرى فى الأدب والنقد كان يطمح إليها النقد فى مصر أمثال العقاد والمازنى وشكرى، تتلخَّص فى مواجهة العصر، والتفتح على القرن العشرين، فى الأدب وفى الحياة كلها، وكان رائد الفكر والأدب فى هذه الرابطة «جبران خليل جبران»، لأنه كان يشرب من ينابيع المعرفة والفن والأدب، كما يشرب الغربيون من معاصريه الأدباء، فيستوى معهم فى التعبير والرسم والتصوير، ويزيد عليهم معرفة بالعربية كانت واسطة صلته «بنعيمه» وغيره من شعراء المهجر.

وقد اشتدت هذه الصلة بين الشاعر الوافد وبين الأدباء المقيمين فى مدّة قليلة كان سداها الإعجاب والحبّ، وكان لحمتها قرابة اللغة والوطن، ثم أصدر أبو ماضى ديوانه الثانى «ديوان إيليا أبو ماضى: الجزء الثانى» وطبعه فى نيويورك سنة ١٩١٨،

ونشر فيه كلّ ما أغفله من شعر وطنى وسياسى، كان محله الديوان الأول، وأضاف إليه شعراً جديداً، فيه فلسفة الحياة، ونفسية الشاعر، وصور الخلود، فاجتمع الماضى بذكرياته إلى الحاضر، وكانت هذه الانطلاقة الجديدة التى لا تشبه فى شىء ديوانه الأول. وقد كتب المقدمة «جبران خليل جبران» نفسه، وصف فيها الشعر وعرف الشاعر، وختم بقوله:

«وإيليا أبو ماضى شاعر، وفى ديوانه هذا سلالم بين المنظور وغير المنظور، وحبال تربط مظاهر الحياة بخفاياها، وكؤوس مملوءة بتلك الحمرة التى إن لم ترشفها تظلّ ظمآناً حتى تملّ الآلهة البشر فتغمرهم ثانية بالطوفان».

وهذا هو الذى قلناه من حب الشاعر لزملائه أرباب «الرابطة»، وتجاوبهم معه فى ميدان الأدب فى سرعة مذهلة، حتى قال زعيمهم إن شعره حبال تنجى من مغاور الكهوف وعفن الماضى، وإنه سفينة يركبها الشعر العربى إلى يمّ الخلود، ولولاها لكان الغرق.

والواقع أن شعر «أبو ماضى» كان تفاؤلاً وأملاً، تضحك فى قوافيه أمانى المغتربين وتشفى نفوسهم بموسيقاه، وتفرح قلوبهم بفلسفته الجديدة.

وكان أبو ماضى بهذا الديوان فاتحاً فى الشعر العربى الحديث، مجدّداً فى ناديه، رائداً فى معانيه، لم يبلغ منه ذروة أو قمة، ولكنه ركب خياله بجناحين من ذكاء فطرى، وعقل طامح، يجمع الأدب والفلسفة، بل يصطاد الفكر البعيد ويجعله فى سجن القوافى، ويحثّ السياط إلى ميادين الفحول من الشعراء العالميين.

وفى سنة ١٩٤٠ أصدر أبو ماضى ديوانه الرابع «الخمائل» وقد جاوز الخمسين من عمره، وبلغ قمة أمجاده، أرسل فيه تأملاته، وصاغ فيه عقود التفاؤل والابتسام فجمع بين روعة الرسام وفلسفة الخيام، وصوّر الدمعة الخرساء، والفراشة المحتضرة، والكنار الصامت، وتطرّق إلى الماء والطين، وعالج قضايا العرب وحنّ إلى لبنان، ودافع عن «فلسطين» ولكنه لم يستطع أن ينسينا «الجداول».

وظلّ أبو ماضى مع «السمير» يحبِّر فيه، ويكتب حتى كان عام ١٩٤٨ إذ عاد إلى وطنه بعد حنين طويل، فرأى الأهل والأحباب والصحاب، وقد استقلت الأرض

وارتفع علم لبنان عالياً، فلقى الإكبار والترحيب، وعرّج على دمشق فاستقبلته فى الجامعة قصائدُ الشعر وصحائفُ النثر، وزحف المثقّفون يستمعون إليه ويكبرون فيه الشاعر الوفىّ للشعر، وللعربية، وظل ذلك غذاءً للشاعر وموضع عزة وفخار فى ذكرياته.

وفى الثالث والعشرين من شهر نوفمبر (تشرين الثانى) ١٩٥٧، فاضت روحه الطيبة، وهمد الصلصال، وقضى الشاعر على ستّ وستين سنة خلّف فيها مجداً للشعر العربى من وراء البحار، وسجل له انتصاراً لا ينسى على الزمان.



البارودى. محمود سامى

١٨٤٠ ـ ١٩٠٤م

رب السيف والقلم

محمود سامى البارودى هو إمام الشعراء المحدثين قاطبة، وباكورة الأعلام فى دولة الشعر الحديث، وأول من نهض به وجارى فى نظمه فحول الشعراء المتقدمين، فبعث النهضة الشعرية من مرقدها بعد طول الخمود.

يعطيك تاريخه صورة الرجل القوى الممتاز، فيه الاعتزاز بالنفس يكاد يبلغ الذروة. وفيه الأنفة والسمو والتعالى. ولعل هذا هو الذى حال بينه وبين الأيغال فى نظم شعر العاطفة المشبوبة التى كانت ولابد لها فى حياته نصيب كبير.

سئل فى أى أحوال حياته كان أميل إلى الشعر وأكثر اشتغالاً به فأجاب بقوله: «... إن خطرات الشعر صحبتّى فى أيامى كلها، ولم تفارقنى إلا فى أقلها، لقد كنت فى ريعان الفتوة واندفاع القريحة بتيار القوة ألهج به لهج الحمام بهديله، وآنس به أنس العديل بعديله، لا تذرعاً إلى وجه أنتوبه ولا تطلعاً إلى غنم أحتويه، وإنما هى أغراض حركتنى وإباء جمح بى، وغرام سال على قلبى. فلم أتمالك أن أهبت فحركت بى جرسى أو هتفت فسريت به عن نفسى....».

وقد سئل الإمام الشيخ محمد عبده ذات يوم عن رأيه فى المنشاوى باشا، والشيخ الشنقيطى، ومحمود سامى البارودى، فقال فى الأول إنه رجل ينفع الناس بماله، وقال فى الثانى إنه عالم من علماء النقل، أما محمود سامى البارودى فقد قال فيه: «كلمة أمير فى مصر كثيرة التداول، ولكن مصداقها سامى باشا البارودى».

وليست هذه الشهادة التى تفوه بها الأستاذ الإمام إلا عن تقدير لهذا الرجل الذى هو من أهم أركان النهضة الحديثة ومحيى مجد الشعر العربى فى عصره الذهبى، بعدما وهن شأنه فى العصور الأخيرة منذ انهارت الدولة العباسية، وخلفتها الدول المتتابعة التى أهملت اللغة العربية، فتأخرت وضعف نثرها وشعرها، ولم يظهر فى تلك المدة الطويلة التى تقع بين أواخر القرن الثامن ومنتصف القرن الثالث عشر للهجرة غير أفراد معدودين لا يعثر الباحث فى شعرهم ونثرهم على شىء إلا كما يعثر المعدّن على فتات من الماس فى الفحم الحجرى.

ولما ظهر البارودى بآياته الشعرية الرائعة كان ذلك بمثابة فتح جديد ونشر للأدب العربى فى أعلى مظاهره، وقد مكث حاملاً لواءه قبل أن ينفى إلى سيلان وبعد نفيه، مع أنه ظهر فى عصر لم يكن للشعر فيه تلك المكانة العالية التى طفر إليها البارودى، وامتلك عنانها، وأصبح السابق المجلى فى ميدانها، وكانت له الإمارة بحق على الشعراء.

حياة البارودى الأولى سلسلة من المجد والعظمة والجاه وإن تخللها بعض العواصف التى كانت سبباً فى إذاعة فضله وإظهار ما له من كفاءة حربية ومقدرة فى فنون الشعر ولا سيما وصف المعارك والافتخار بأصله ونسبه.

وقد ولد سنة ١٨٤٠ بالقاهرة فى حياة والده حسن بك حسنى أحد أمراء المدفعية فى الجيش المصرى، فأحاطه برعايته، وجعله يتلقى دروس الأخلاق الفاضلة على أبناء أسرته حتى كانت سنة ١٨٤٨ فشرع يتعلم مبادئ العلوم بإرشاد نخبة من الأساتذة الذين يحضرون إليه فى منزله، ويلقنونه من ثمرات القرائح ما انتفع به فى مستقبل حياته، وكان والده قد توفى قبل ذلك بعام، فلقى من أسرته ما شجعه على المضى فى سبيل التعليم ودخل مدرسة الحربية وعمره اثنتا عشرة سنة فمكث بها مثالاً للجد والتفوق، وتخرج فيها، ثم صار يتقلد المناصب السامية حتى عين رئيساً للوزراء سنة ١٢٩٩ هجرية.

وقد مارس صناعة الشعر منذ كان تلميذاً فقرأ دواوين الشعراء المجيدين على بعض المتأدبين الذين كانت لهم دراية بفنونه، وما لبث أن أدرك التراكيب العربية البليغة فنسج على منوالها، وأخذ يحاكيها فى روعتها وحسن انسجامها، فنشأ

متأثراً بها مقتفياً طريقة شعراء الطبقة الأولى.

وقد تعلم سامى البارودى اللغة التركية وكانت فى عهده لغة الطبقة العالية فى مصر، فنبغ فيها ونظم بها عدة قصائد عامرة، كما تعلم اللغة الفارسية أيضاً واقتبس من أدبها ما كان حلية حسناء فيما أتى به فى أشعاره من معان رائعة.

ولم يكن شأنه فى ميدان الحرب بأقل منه فى ميدان الشعر، فقد أظهر كفاءة حربية نادرة فيما اشترك فيه من حرب كريد حين خرج أهلها عن طاعة الخليفة العثمانى، وأرسلت مصر جيشاً لتأديبهم كان به البارودى بوظيفة «رئيس ياور حرب» فأبدى ضروباً من الفنون الحربية كان لها أثر كبير فيما ناله الجيش المصرى من الانتصار.

وليس من بين أيدينا من مؤلفات البارودى غير مختاراته، وديوانه الذى لم يكمل بعد، ويذكر شارح ديوانه أن له مؤلفاً نثرياً سماه «قيد الأوابد» وهو من أحسن النثر وأبلغه، وقد كتبه بخط يده، ولكنه لم يطبع بعد. وهذه المؤلفات قليلة بجانب ما كان عليه الرجل من علم وأدب، ولاسيما أنه كان أول من اهتم من مصر بجمع الكتب المبعثرة فى المساجد ووضعها فى مكان واحد، فكانت هذه الكتب إحدى الدعامات التى أسس عليها على باشا مبارك مكتبة دار الكتب الخديوية.

غير أن الذى يستعرض حياة البارودى يجدها مجموعة من عواصف حربية وسياسية لم تدع لصاحبها فراغاً يخدم فيه دولة القلم كما خدم دولة السيف، على أن هذه الكتب وإن كانت قليلة فى عددها إلا أنها حوت من التراث الأدبى ما يصح أن تفخر به اللغة العربية.

كان من مذهب البارودى فى الشعر الذى يعتدُّ بأن روعة اللفظ تأتى أولاً، وقد راقب أشد المراقبة انتقاء الأساليب الفصحى فجاراها وسار على نمطها.

وقد صرح بمذهبه الشعرى فى مقدمة ديوانه فقال: «وخير الكلام ما ائتلفت ألفاظه، وأتلقت معانيه، وكان قريب المأخذ، بعيد المرمى، سليماً من وصمة التكلف، بريئاً من عشوة التعسف غنيّاً عن مراجعة الفكرة» فترى من هذا الوصف كيف كان البارودى يفهم الشعر ويقدره وفى سبيل ائتلاف الألفاظ والبراءة من عشوة التعسف

- كما يقول - ضحى بكثير من المعانى التى تعد من آيات القرائح ومعجزات الأذهان. ولذلك تجد بعض أبيات قصائده أشبه ما تكون بالثوب المنسوج من العنكبوت.

نقول إن للبارودى عناية بالألفاظ أدت به إلى إهمال المعنى، ولعل ذلك عدوى أصابته من بعض الشعراء أو من وسطه الأدبى الذى لابد له من التأثير فيه مهما سما بنفسه عنه وسبق فيه أنداده إلى ما قصرت عنه هممهم. على أن لنا من شعره مجموعة خصبة تعد ثروة ثمينة فى الشعر العربى.



الباقلانى
٩٥٠ ـ ١٠١٣م
الفقيه المتكلم

هو القاضى أبو بكر محمد بن الطيب بن محمد الباقلانى، من كبار متكلمى أهل السُّنة والجماعة من الأشاعرة ومن أئمة المذهب المالكى فى الفقه، ولد بالبصرة فى الربع الثانى من القرن الرابع الهجرى، وسكن بغداد، ودرس الفقه على الإمام أبى بكر الأبهرى والإمام أبى محمد عبد الله القيروانى وهما رؤساء المذهب المالكى، وتخرج فى علم الكلام على الإمام أبى الحسن الباهلى والإمام أبى عبد الله ابن مجاهد، وهما من أصحاب الإمام الأشعرى مؤسس مذهب أهل السُّنة والجماعة فى علم الكلام الذى ينتمى إليه الباقلانى والذى قضى حياته فى الدفاع عنه ونصرته، وقد بلغت منزلته فى العلم حدّاً جعل المؤرخين يضعونه على رأس المائة الرابعة بعد الهجرة كمجدد من المجددين الذين يبعثهم الله كل مائة عام ليجدد للأمة الإسلامية دينها.

كان الباقلانى قوى الحجَّة شديد الوطأة على المخالفين من المعتزلة والروافض وغيرهما من الفرق المخالفة لمذهب أهل السنة والجماعة، فقد تصدى لمناظرة المعتزلة وقطعهم فى مجلس عضد الدولة بشيراز، ويبدو أن السلطان قد أعجب بشخصيته وفصاحته وعلمه وجرأته فى الحق ولباقته فى الجدل فاختاره فى سفارة إلى ملك الروم ليناقش فى مجلسه النصارى فى مسائل الدين ويبين لهم ما يعتقده المسلمون، هذا هو كل ما يذكره لنا المؤرخون عن حياة الباقلانى الذى ظل عاكفاً على التأليف

والتدريس والاشتغال بالجدل والمناظرة دفاعاً عن الدين إلى أن توفى ببغداد.

مؤلفاته

يذكر المؤرخون أكثر من خمسين مصنفاً للباقلانى معظمها فى الرد على المخالفين لمذهب أهل السُّنة والجماعة من الرافضة والمعتزلة والجهمية والخوارج وغيرهم. وقد فقدت معظمها، ولم يبق لدينا منها إلا القليل. وأهم مؤلفاته التى بين أيدينا هى:

١ - إعجاز القرآن، وقد طبع بالقاهرة عدة طبعات.

٢ - كتاب التمهيد فى الرد على الملحدة والمعطلة والرافضة والخوارج والمعتزلة. تحقيق المرحوم محمود الخضيرى والدكتور محمد عبد الهادى أبو ريدة، القاهرة عام ١٩٤٧، ثم أعاد تحقيقه الأب جوزيف مكارثى بالاعتماد على مخطوطات وأصول أوثق، ونشر عام ١٩٥٧ فى بيروت دار المشرق.

٣ - وكتاب الإنصاف: فيما يجب اعتقاده ولا يجوز الجهل به، مطبوع بالقاهرة.

وقد حمل الباقلانى لواء المذهب الأشعرى فى الكلام، وقام بتوضيح كثير من قضايا المذهب والبرهنة عليها، كما أدخل بعض التعديلات على مذهب الأشعرى، فأسهم بذلك فى بناء مذهب الأشاعرة بناء منظماً. يرى الباقلانى أن أول واجب على المكلف هو معرفة حقيقة العلم وحده، وحد العلم عند الباقلانى هو معرفة المعلوم على ما هو به، والعلوم فى رأيه تنقسم قسمين: العلم الإلهى، ولا يوصف بأنه علم ضرورى ولا بأنه علم استدلالى، إنما هو علم الله الذى هو صفة له كما جاء فى كتابه. والقسم الثانى علم الخلق أو العلم الإنسانى وهو على قسمين: اضطرارى واستدلالى أو نظرى، أما الاضطرارى فهو العلم الذى يلزم النفس من غير كسب لزوماً لا يمكن للنفس دفعه أو الشك فيه وذلك كعلمنا بأنفسنا وبأحوال أنفسنا من لذة وألم، وكذلك العلم بما تدركه الحواس الخمس. أما العلم النظرى فهو ثمرة الاستدلال والتأمل، أو هو ما احتيج فى حصوله إلى الفكر والروية، وقد يخطئ الفكر فى نظره واستدلاله فيجوز الشك فى هذا النوع من العلم والرجوع عنه، والمعلوم على نوعين موجود ومعدوم ولا ثالث لهما ولا واسطة بينهما، فالمعدوم عدم

محض ونفى صرف، والموجود هو الشىء الكائن الثابت.

والموجودات كلها على قسمين: قديم لم يزل وهو الله تعالى وصفات ذاته، ومحدث وهو ما لم يكن ثم كان أى أن لوجوده أولَ.

وصانع العالم قديم لا يشبه شيئاً من خلقه وليس بينه وبين مخلوقاته شبه بوجه من الوجوده. وصانع العالم جلت قدرته واحد لا يشاركه فى ملكه شريك، والدليل على ذلك من النقل والعقل. أما النقل فقوله تعالى:

﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ **(الأنبياء: ٢٢)**،

وأما الدليل العقلى فهو مستنبط من هذا النص المنقول فإنا نرى الأشياء تجرى على سنن واحد فى السموات والأرض وما فيهما من شمس وقمر وغير ذلك.



البحترى

٨٢١ ـ ٨٩٧م

شيخ الصناعة الشعرية

أبو عُبادة الوليد بن عبيد البحتُرى، عربى الأصل، طائى النسب. وُلد فى بادية َمنبج، شرقى حلب. نشأ نشأة بدوية، يقول الشعر على الأسلوب العربى. حتى اتصل بأبى تمَّام، فى حمص على الأرجح، فلزمه مدة. ثم انتقل إلى العراق، متصلاً بالخلفاء من المتوكّل، إلى المنتصر، إلى المستعين، إلى المعتز، إلى المهتدى، إلى المعتمد، وبكثير من كبار القوم: وزراء وقوَّاد، عرب وفرس. وقد أثرت فى بدويته آثار تلك المدنية الفارسية فملأت عينه بهجةً وروعة. ولكنها لم تصل إلى ذهنه وقلبه، فظلّ منحرفاً عن الثقافة الجديدة، لا يطلع على معانى القدماء من غير العرب، ولا يساير الحركة الفكرية العصرية، يسمع الحكمة الطريفة فى شعر أستاذه أبى تمَّام، ويرى المذهب المبتكر فى شعر مناظره ابن الرومى، فيحسهما، وقد يعجب بهما، ولكنه يميل عنهما إلى الأسلوب التقليدى فى الشعر؛ كما كان يعجب بقصور سُرَّ مَنْ رَأَى (اسم مدينة)، ومتنزّهات بغداد، ولكنه يظلّ على حنينه إلى ضيعته فى بادية منبج وقد كان له من رقة الحسّ، ولطف الخيال، ما دفعه إلى تحسين ذاك الأسلوب القديم، دون الخروج عليه، فدأب واجتهد حتى صار «شيخ الصناعة الشعرية»، على قول ابن رشيق، فظهر صائغاً ماهراً، ينحت، ويصقل، ويوشى، ويزخرف، ولكنه لا يخلق جديداً. يقول ما يقول الناس، ولكنه يقوله بلطف وذوق وترتيب. لا يسمو إلى القمم العالية ولكنه لا يهبط إلى الأودية العميقة. فهو متوسط الفكر، واضح الصورة، متَّسق التأليف، موسيقى التعبير، سلس الديباجة. وهذا ما أراده الآمدى،

دون شك، إذ قال: «البحترى أعرابى الشعر مطبوع، وعلى مذهب الأوائل، ما فارق عمود الشعر المعروف».

إن أبا عبادة الوليد بن عبيد المشهور بالبحترى الشاعر المبدع الرقيق كان تلميذاً لأبى تمام وإليه ينتمى فى القربى والمحتد كل منهما طائى، وكل منهما أيضاً مدح الكثير من الطائيين الذين تولوا مراكز مرموقة فى الدولة العباسية فضلاً عن مدحهما الخلفاء أنفسهم. وقد كان البحترى مثالاً نبيلاً فى الولاء لأستاذه أبى تمام، وحينما نضج شعره ورق وذاع وجرى على الألسنة وأنشد فى المحافل والمنتديات حاول بعض المتأدبين أن يجاملوه بتفضيل شعره على شعر أبى تمام، فكان البحترى - وفاء منه لأستاذه - يقول: والله ما أكلت الخبز إلا به.

وكان البحترى يحتذى مسيرة أبى تمام فى فنه وإن اختلف معه فى ديباجة الشعر وصوغه، ولكنه وقد رأى أستاذه انتخب تلك الاختيارات الشعرية الرائعة وأسماها «الحماسة» لم يرد أن يتخلف عنه فى هذا الصنيع وأقبل على دواوين الشعراء وصدور الرواة وحرك حافظته الثرية الغنية واختار العديد من القصائد والمقطوعات وضمنها كتاباً أطلق عليه نفس عنوان كتاب اختيارات أستاذه وسماه أيضاً: الحماسة. والجدير بالذكر أن البحترى ليس غريباً على التأليف فضلاً عن الاختيار والتصنيف. فقد ذكر له كثير من مترجمى حياته أنه ألف كتاباً عرف باسم «كتاب معانى الشعر».

وإذا كانت اختيارات البحترى قد حملت اسم «الحماسة» عنواناً لها فإن ذلك يعنى أنه اقتفى أثر أبى تمام فى إطلاق اسم الجزء على الكل، فإن البحترى استهل «حماسته» بالعديد من الأبواب فى ذكر شعر الحماسة.

وإذا كان أبو تمام قد جعل «حماسته» فى أحد عشر باباً، فإن البحترى قد جعل «حماسته» فى مائة وأربعة وسبعين باباً، ولكن شتان الفرق بين الباب عند أبى تمام وبينه عند البحترى، فهو عند الأول أطول ويحتوى على موضوعات فرعية أكثر، ولكن الذى لا شك فيه أن حماسة البحترى أكبر من حماسة أبى تمام من حيث عدد المقطوعات والقصائد التى ضمتها دفتا كل منهما. فإذا كانت حماسة أبى تمام تضم ثمانمائة وإحدى وثمانين حماسية ما بين قصيدة ومقطوعة فإن حماسة البحترى تضم ألفاً وأربعمائة وأربعاً وخمسين حماسية ما بين قصيدة ومقطوعة.

البخــارى

أبو عبد الله بن إسماعيل

٨٠٩ـ ٨٦٩م

صاحب أعظم عمل علمى يجله المسلمون

اسم (البخارى) من الأسماء النابهة فى محيط الثقافة الإسلامية فقد ارتبط بتاريخ هذه الثقافة منذ عهد ازدهارها ومجدها ورزقه الله من بُعد الصيت حظاً منقطع النظير.

فإذا أطلق هذا الاسم بصدد الحديث عن الكتب انصرف إلى كتاب معين هو «الجامع الصحيح المسند المختصر من حديث رسول الله ﷺ وسننه وأيامه» وإذا ذكر فى مجال الكلام عن أعلام الفكر الإسلامى لم يفهم منه غير مؤلف هذا الكتاب فقد غلب عليه وأغنى عن اسمه العلم واختص فى الشهرة به دون من ينتمون إلى بلده بخارَى من أفذاذ الرجال وهم كثير.

وصاحب الكتاب هو أبو عبد الله بن أبى الحسن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بَرْدِزْبَهْ البخارى مولداً ووطناً، الجعفى نسباً بالولاء وهذا هو المعروف من نسبه وأسماء آبائه وهو ما تظاهرت عليه جميع المصادر القديمة.

وأسرة أبى عبد الله البخارى تنتهى فى القديم إلى أصل متواضع تربطه بالأرض حرفة الفلاحة وربما فسر هذا الاستنتاج استتار أفرادها خلف أضواء

التاريخ فيما قبل حياة البخارى وأبيه.

فكل ما يعرف عن هذه الأسرة قبلهما أن رأسها (بَرْدِزْبَهْ) كان فارسى الأصل وأنه عاش ومات مجوسى الدين.

أما إسماعيل بن إبراهيم فقد كانت حياته مطلع النباهة لهذه الأسرة وكان أول المتجهين من أفرادها إلى دائرة النور فغير منهج آبائه فى الحياة وشارك فى الحركة العلمية مختاراً أهم جوانبها فى عصره وهو جانب الخدمة لحديث الرسول ﷺ.

تنسم محمد بن إسماعيل البخارى أول نسمات الحياة يوم الجمعة لثلاث عشرة ليلة خلت من شوال ١٩٤هـ وهذا ما يرويه معاصروه فى تحديد مولده ويذكر المستنير بن عتيق: أن البخارى أخرج له هذا التاريخ مكتوباً بخط والده إسماعيل.

وكان مولده ببخارى التى استوطنها جده المغيرة بعد إسلامه وهى مدينة كبيرة من بلاد التركستان على المجرى الأسفل لنهر زرافستان، فتحها المسلمون بعد منتصف القرن الأول الهجرى ومنذ توطدت أقدامهم بها على يد مسلم بن قتيبة صارت واحدة من الحواضر الإسلامية العظيمة ومعقلاً للمسلمين فى ذلك الطرف النائى عن مقر الخلافة والسلطان، ومركزاً من أهم المراكز العلمية للثقافة الدينية هناك، وكان ميلاده فى بيت عرفنا حظ صاحبه إسماعيل بن إبراهيم من التقى والعلم والثراء أما صاحبته فقد كانت على شاكلة زوجها فى الصلاح والورع.

وتشاء الأقدار أن يموت الرجل فى طفولة ابنه محمد قبل أن يرسم له الطريق ولكن عناية الله كانت أرحم بهذا الطفل وأكرم من أن يتركه للضياع فهيأت له من حدب أمه الصالحة خير العوض عما فقد من رعاية الأب فتولت تربيته وتقويمه وسهرت على توجيهه وتسديد خطاه لا يحفزها إلى ذلك حنان الأمومة وحده بل يؤازره.

والعهد الذى عاشه البخارى فى كنف أمه كان عهد استقرار وإقامة دائمة اللهم إلا أمداً قصيراً من نهايته هذا الأمد عاشه أيضاً فى صحبتها ولكنها كانت صحبة سفر حيث ارتحلت له لحج بيت الله وهناك افترقا فحين انتهى الموسم عادت هى إلى وطنها بخارى وبقى هو فى الحجاز ليتابع الحياة على نحو جديد.

وهذا العهد يشكل فى حياة البخارى أخطر أطوارها وأبعدها أثراً فى تحقيق نجاحه فهو - على قصره - طور التأسيس والتكوين فيه تفتحت مداركه وتكشفت ميوله وفيه تم صقله وتكامل نضجه وفيه اجتمع له من العلم ذخيرة غنية جمعها بالقراءة والحفظ من الكتب وبالسماع والتحمل عن الشيوخ وبالحوار والمناقشة فى مجالس الدرس، جمعها بكل سبيل من سبل الجمع والتحصل واتخذها عتاداً وسناداً يعتمد عليه فى مقبل أيامه ودعائم ثابتة للبناء العلمى الشامخ الذى اقترن باسمه والذى أكسبه الشهرة والخلود والذكر مع الخالدين.

وتطور البخارى فى هذا العهد كان سريعاً دائم الصعود فقد بدأ فى طفولته الغضة يتردد على «الكُتاب» مع الصبيان ويتلقى من ألوان الثقافة ما اعتاد أهل زمانه أن يلقنوه للناشئين، غير أنه كان مشرق العقل ساطع الذكاء واسع الخطو فى طريق النبوغ وكان فى نضج مداركه أسبق منه فى سنى عمره وبذلك استطاع أن يستوفى حظه من التثقيف العام فى أمد قصير وأن يتهيأ للدراسة المتخصصة فى سن مبكرة فيلهم حفظ الحديث وهو فى العاشرة أو ما دونها من عمره ثم يتجه إلى التخصص فيه وفى علومه من ذلك الحين.

واتجاه البخارى إلى التوفر على حفظ الحديث ودرسه فى هذه السن المبكرة يرجع أول ما يرجع إلى توفيق الله وهدايته ولكنه لا يعدم سبباً ظاهراً من واقع حياته ومما أحاط به فى نشأته فقد اكتنف به كثير من الحوافز الدافعة إلى هذا الاتجاه.

وحسب البخارى من الحوافز الموجهة إلى أن يستيقظ وعيه على ما يملأ البيت من ذكرى أبيه العالم المحدث وأن تنمو هذه الذكرى كل يوم فى قلبه بما يتردد على سمعه من السيرة العلمية لهذا الأب وبما يتراءى لبصره من جوامع الحديث وكتبه، حسبه هذا دافعاً إلى أن يجعل حياته امتداداً لحياة أبيه.

ثم حسبه من الحوافز الموجهة أيضاً أن ينظر فيما حوله وحول بلده وأن يتدبر الحركة العلمية ويراها تتجه بكل جهدها إلى جانب الثقافة الدينية وتخصص أكبر هذا الجهد لدراسة الحديث وعلومه حسبه هذا ليسير مع الركب ويتابعه فى نفس الاتجاه.

ثم يكفيه أن يرى أئمة الحديث فى وطنه أو يسمع بأعلامهم فى خارج وطنه وأن يعرف ما يحف بهم من هيبة وجلال، وما يلقون به من توقير وإكبار وما يحتمل للقائهم من شد الرحال وما يتحلق حولهم من عديد الطلاب ويكفيه هذا ليتطلع بطموحه إلى أن يكون واحداً من هؤلاء الماجدين.

وأيّاً ما كانت الأسباب الظاهرة لهذا الاتجاه فإن استعداد البخارى كان متهيئاً له من صغره كان متهيئاً له مما وهبه الله من صفاء الذهن ومن قوة الحفظ ومن توفر الرغبة على التحصيل والدرس فاستطاع أن يسبق أقرانه من الصبيان وأن يسمو ببلوغ العاشرة من عمره على زمالتهم فى مقاعد الكُتاب وأن يرتفع - وهو الحدث الناشئ - إلى مستوى الكبار من الطلاب فيقتحم الحلقات الملتفة حول الشيوخ ويتردد على مجالس الرواية للسماع من الأعلام.

وفى سنة ٢١٠هـ خرج أبو عبد الله من بلده بخارى مودعاً عهد الاستقرار والعيش المقيم فى رحاب الأهل والعشيرة متخطياً مرحلة التكوين والتلمذة المحضة، والأفق العلمى المحدود بحدود وطنه خرج مع أمه وأخيه محمد ليؤدوا فريضة الحج فلما انتهى الموسم قفلت الأم إلى بخارى مع ابنها الأكبر وبقى هو فى حرم الله وفى جوار بيته ليستقبل العهد الجديد عهد الرحلة الدائبة التى لا تقيم إلا بمقدار ما تأخذ من جديد المعرفة فى العلم والرواية وعهد التحصيل فى أفق رحيب يمتد نطاقه على محيط العالم الإسلامى كله، وعهد التصدر لمنصب الأستاذية فى كل بلد ينزله مع دوام التلمذة لكل من يجد فى الجلوس إليه فائدة، وعهد التسجيل لحصوله العلمى الغزير وتأليفه على نحو يفيد الإسلام والمسلمين.

وقد استهل البخارى هذا العهد استهلالاً طيباً مباركاً ووفق كل التوفيق فى اختياره لأول نبع يستقى منه العلم خارج وطنه فاختار أكرم المواطن على الله وأشدها ارتباطاً بما ندب لتحمله من حديث رسول الله ﷺ وآثر أن يجعل الحرمين الشريفين طليعة ما يتزود بالرواية عن شيوخه من بلاد المسلمين فأقام بمكة ما أقام ثم رحل إلى المدينة فمكث فيها نحو عام حتى إذا استوفى حظا من السماع لمحدثى الحجاز انطلق فى سياحته متنقلاً بغيره من الأقطار وتواصلت رحلاته حتى شملت معظم الرقعة الإسلامية فطوف بأهم المراكز العلمية المنبثة على أديمها فما

بين حدود مصر ناحية الغرب ونهاية خراسان وما وراء النهر فى أقصى الشرق.

وإذا كان البخارى قد تردد على أكثر ما زاره من الأمصار غير مرة، إذا كانت إقامته المتقطعة بين سفراته تطول حيناً وتقصر حيناً آخر فما كان حِله إلا بمقدار ما يفيد وما كان ارتحاله إلا ليستزيد أو ليسعد بلقاء شيخ جديد.

لقد كانت غايته العلم من سفره وحضره فما ونى عنه لحظة من حياته ولا أشرك فى طلبه والسعى له شيئاً من عرض الدنيا وإن جل، بل حصر رغبته فيه وحده ووفر عليه وقته وجهده وما رئى - فيما وراء نومه القليل - إلا وهو على حال من ثلاث: إما جالساً إلى شيخ يسمع منه ويتلقى عنه أو متصدراً للحديث على الملتفين حوله من الطلاب أو منقطعاً إلى القلم والقرطاس يقيد شوارد ما جمع، ليحفظها بالتدوين من التبدد والضياع وليعدها بالتصنيف والتأليف للانتفاع وسهولة الاطلاع.

وبهذا الجهد الأصيل والقصد النبيل يملأ البخارى عهد رحلاته فيقضيه فى العمل الدائب متعلماً ومعلماً ومؤلفاً ويبارك الله فى هذا العمل فيخرج به أطيب الثمر ويفيض به الخير على صاحبه، وعلى الإسلام والمسلمين.

والبخارى واحد من هؤلاد الأفذاذ النادرين والعمل الذى وهبه حياته هو خدمة الحديث النبوى والامتياز الذى ناله كان فى متطلبات هذا العمل ومن أهمها الحفظ الغزير والأعداد التى رويت فى تقدير المشهور من حفظه لا تعلو على مستوى كفايته بل هى دونه بكثير فالعناية التى اختارته لهذا العمل العظيم منحته من أسباب التوفيق ما يضمن له النجاح وسلحته من استعداده النفسى يرجع فى أسبابه الظاهرة إلى أنه وفق من صغره فى اختيار عمله وقد عبر عن هذا أروع تعبير حين قال: «ألهمت حفظ الحديث وأنا فى الكُتاب» فكأنما بما اختار من كلمة الإلهام يعبر عن ابتهاجه بما وفق إليه، ويعلن الشكر على أن هداه الله لما يوافق ميله ويناسب طبعه وليس بالأمر الهين أن يوفق الإنسان فى اختيار عمله أياً كان نوعه فهو عنصر مهم للنجاح، لأنه يملأ النفس ارتياحا للعمل ويوفر رغبتها فيه وتعلقها به ويضمن استمرارها على الإخلاص له فما بالنا إذا كان عملاً دينياً جليلاً لو افترضنا أنه لا يعقب كسب الدنيا كان من المحقق أنه يكسب ثواب الآخرة؟.

وقد تجلت هذه المعانى فى البخارى بأروع صورها وتمثلت فى انقطاعه لخدمة الحديث طيلة أمره وفى شدة إقباله على طلبه وجمعه فى تفريغ باله من كل شىء إلا منه واشتغال قلبه به حتى فى أوقات الراحة والنوم وشاهد ذلك فيما يرويه أصحابه.

* * *

هذا هو البخارى الذى وهب حياته لخدمة الحديث النبوى الشريف وجمعه ووفق فى اختيار هذا العمل من صغره فاطمأنت نفسه إليه وامتلأت رضا به فأقبلت بكل جارحة عليه وأخلصت وقتها وجهدها له وأفنت عمرها فيه.

وهذا هو البخارى وما منح من قوى عقلية فذة تلائم عمله، فصفاء ذهنه نادر المثال وقوة حفظه تسابق السمع والبصر فى الوعى والتسجيل وتنافس البحر فى اتساع الجنبات والتقبل لكل فيض يجىء فتحفظ الكتاب من اطلاعة واحدة وتستوعب خمسة عشر ألف حديث فى ستة عشر يوماً وتبهر الناس فيظنونها مجتلبة بعلاج وتثبت فى مواقف التحدى فلا تضطرب ولا تخور

هذا هو البخارى وهذه استعداداته ومواهبه، فليس بالكثير ولا الغريب أن يذكر فى حفظه ما ذكر من الأعداد.



بشار بن برد

٧١٤ ـ ٧٨٤م

الشاعر الضرير النابغة

كل أديب ثائر، والأديب الهادئ لا يهدم ولا يبنى بل هو من الذين تجرفهم شبكة الصياد فتخرجهم من بحر الحياة العجاج إلى المقلى أو إلى الفرن ليتغذّى بهم الحيتان الصالحون للبقاء.

إن أول ثورة أدبية عربية أوقد نارها أديب أعمى مستعرب. وكأنه نظر بعين الغيب إلى أثره فى الأدب فقال بيته الذى نتمثل به الآن:

أعمى يقود بصيراً لا أبا لكم ... قد ضل من كانت العميان تهديه

لا يا بشار، ما ضلّ من يقوده أعمى مثلك، وكم من أعمى قبلك وبعدَك رأى ما لم نره نحن البصراء، فانعم بالاً.

أسمع الكثيرون يقولون: لماذا زعّم القدماء بشاراً، وماذا رأوا فيه حتى أقرّوا له بزعامة لا خلاف فيها؟ فالذين لا يدركون ما غمض ودقّ يقولون: كان لبشار لسان كالسوط فألقى الرعب فى نفوس العلماء والرواة ـ والرواة هم نقّاد ذاك العصر ـ فاعترفوا له بالسبق خوفاً ورهبة. وكما يصير الباطل حقّاً ويصبح الكذب صدقاً، فى رأس قائله، متى تقادم عهده، هكذا ثبتت زعامة بشار كما ثبتت زعامة الحريرى بعده.

إن هنالك لشيئاً غير ذلك، إن هنالك لفناً ليس رمية من غير رام، فبشار زعيم أدبى رغماً عن وطأته الثقيلة. ففى ذلك الجسم الجاموسى نفس فنية ما رأى الأدب

العربى مثلها. نفس أدركت عفواً أن الأدب ابن البيئة فتحسست بيئتها تحسساً فكان لها من كل إصبع ألف عين. رأى بشار بأنفه وأذنيه ولسانه ما لم تره ملايين الناس بأعينهم، وهو من العباقرة الذين سبقوا دهرهم دهوراً.

أراد بشار أن يكون لعصره أدبٌ غير أدب الجاهليين والأمويين فتعمّد ذلك ووضع معالم فنه صامتاً، لم تكن له نفس أبى نواس المرحة ولا حريته الواسعة، ضيق عليه عماه فانطوى على نفسه متأملاً فأخرج فنّاً شايعه عليه أبو نواس وغيره فكان أدب المولدين.

مادىّ ممتلئ شبقاً، زنديق إذا خاف، ملحد حتى الهذيان إذا اطمأن. ليس الدين عنده شيئاً ولا الفروض ولا الصلاة، فأجاب حين لاموه على تركها: من يقبلها تفاريق لا يرفضها جملة. الحياة عنده فى اللحم والعظم. ولا يردعه عن الفجور إلا الخوف على جلده.

شاب وما تاب. ظلت نفسه خضراء فى السبعين. أذن فى الضحى وهو سكران، فكأنّ المتنبى يعنيه بقوله:

شيخ يرى الصلوات الخمس نافلة   ويستحلّ دم الحجاج فى الحرَمِ

الحياة عنده هوى عاصف، وشهوات كالتنور المسحور. وهكذا كان له مدرستان، واحدة علمت الجسارة والفتك، وأخرى علمت الفن. لم يحثّ إلا على مكرمة واحدة وهى رعاية الصديق.

يصوّب مدفع فنه إلى حصنين: المرأة والصديق:

عسر النساء إلى مياسرة   والصعب يمكن بعدما جمحا

❖ ❖ ❖

تعطى الغزيرة درّها فإذا أبتّ   كانت ملامتها على الحلاّب

وهو لا يمدح ريحانة قبل شم، هائج كالبركان. الحياة عنده مأدبة يجب أن تتنوع ألوانها لتقوّى شهوة النهم. وقد قال لبعضهم: لا تصيّروا مجلسنا هذا شعراً كله، ولا حديثاً كله، ولا غناء كله، فإن العيش فرص. ولكن غنّوا وتحدثوا وتناشدوا

وتعالوا نتناهب العيش نهباً. قوىّ الميل حتى الغضب.

يتّبع هذه الغريزة كما يتبع الملاّح نجمة القطب، شعاره الوقاحة والفتك:

من راقب الناس لم يظفر بحاجته وفاز بالطيّبات الفاتكُ اللهجُ

وإذا كان الإنسان أضغاث ميول كما يعلّم علم النفس فميول بشار نطّاحة. يقولون إن الميل قوةٌ عظمى إذا وجّهته الإرادة، وأداره العقل، ولكنّ ميل بشار عنيف خلق منه لصّ إعراض ومجرماً خطراً على المجتمع. ناهيك أن ميل بشار لم يعرف الشيخوخة فكان فى السبعين، طور السأم والهرم، كأنّه ابن عشرين. كل شىء عنده محلّل، وصاحبنا جوعان دائماً، ينطح الزاد كلما رآه. وقد عرف بشار اعوجاجه هذا فاعتصم «بالجبريّة» فقال مبرئاً نفسه:

طبعت على ما فىّ غير مخيّر هواى ولو خيّرت كنت المهذبا

لم يقعد ولم يتوانَ عن طلب المال، فلم يحل عماه دون الأسفار والزيارات المثمرة.

إن حمية بشار تعمل دائماً لإتمام رغائبه، فما هجا إلا ليستدرّ، وما نظم شعراً لنائحةٍ أو مغنّية إلا ليفوز منها بشىء. وما تغزل إلا ليستهوى ويغوى، وما مدح إلا ليجاز. كان فنه أحبولة صيد، والفنّ مكّار.

شعر بشار مديح وهجو وغزل، أما مديحه فنصائح وحض على الجود، وإيماء إلى الجائزة، وتهديد أن أبطأ الممدوح، وأما الهجو فيمد الإلهام فيه فن بشار أيما مدد، ويغلى مرجل سخطه، وتبلغ حساسته حد الفوران إذا حرم. وأما غزله فمشوقٌ مغرٍ بالفسق والفجور، اقضّ على العلماء الصالحين مضاجعم فحملوا الخليفة على نهىٍ بشار عنه ففعل.

فهذه الثورة الفنية الجامحة تلهب نفس بشار فى كل غرض من أغراض شعره وخصوصاً متى هجا، وأين لا يهجو بشار؟ فهو يتفلسف هاجياً، ويتمنطق هاجياً، ويتمذهب هاجياً، ويأكل ويشرب هاجياً. لا يطيب له عيش إلا إذا سبّ وأخرج شعره مفزعاً. إن رقة بشار فى ألفاظه تلك لا فى صوره التى يضخمها، ففى مخزنه مصنوعات لدنة شفافة، وأخرى قاسية جافة.

وشعره يجرى كأنهار لبنان، فيه جمال وموسيقى يخرجهما الشاعر من تزاوج

ألفاظ ذات مخارج ملائمة، وحروف شديدة غير متنافرة. وفى كل غرض تحس هذه السرعة... اقرأ قصيدته:

- قد لامنى فى خليلتى عمر، ترى أنه لا يقتفى أثر امرئ القيس كابن أبى ربيعة، بل ترى على قصيدته الطابع البشارى الذى لا يقلد. وحسب بشار تعبيره الناصع واتّباع قصيدته خطة مثلى لا دوران فيها ولا لفّ، كعنترة وزهير، ولا تلهّى بالألفاظ كالبحترى، ولا يقلق قارئه بشروحه الباردة كابن الرومى، ولا يستغيث مثله بالله ورسوله من مهجوّه بل يضربه ضربة تقرض اللحم. وتكسر العظم. له فى هذه الوغى سلاحان: إما تصوير مضحك، كما فى قصيدة الشاة، وإما نكتة موجعة كقوله:

كيف لا تحمل الأمانة أرض حملت فوقها أبا سفيان

يعضده فى هذا العمل الشاق دقة تفكير، وحدّة شعور، وحسن أداء، زد على ذلك ذكاء عجيباً، وبديهة وثابة، وإرادة نهّاضة لا تقنع بما دون التمام.



البشرى. عبد العزيز

١٨٨٦ ـ ١٩٤٣م

الكاتب الساخر

ما ذُكر اسم عبد العزيز البشْرى إلا أحس الذين سمعوا عنه أو عاصروه أنه لم يكن كاتباً بقدر ما كان فى ذلك الجيل الذى عرف بالحديث المصقول والفكاهة وخفة الظل والمرح والنكتة، وقد رويت عنه الفكاهات أكثر مما رويت عنه أمثال الأدب، ولم يخلف هو فى الأدب إلا تلك الفصول التى جمعت فى كتبه «المختار، فى المرآة، قطوف» إذ كان يكتب الأدب على أنه لون من المتاع غير متقيد فيه بوقت أو صحيفة.

ولقد كان عبد العزيز البشرى صديقاً لحافظ إبراهيم لا يفارقه، وكان من زملاء طه حسين فى طلب العلم فى الأزهر ومن رواد صالون آل عبد الرازق، وهو فى خلال ليله ونهاره صورة من الابتسام والسخرية والفكاهة كأنما لا يشغله شىء ولا يقلقه أمر، وكأنما هذه الدنيا التى يعيشها رخاء لا أعاصير فيها ولا أكدار، ولطالما عرف عن هؤلاء الذين يستقبلون الحياة بالابتسام والسخرية أن يكونوا فى أعماق نفوسهم وحياتهم من الضجرين الذين تكثر آلامهم ومتاعبهم.

إن الدكتور طه حسين يراه خير من يصور البيئة القاهرية الخالصة فقد عاش فى أعماقها وخالط رجالها ونساءها.

ولكنا لا نستطيع أن نأخذ هذا القول كما هو فإن أسلوب عبد العزيز البشرى حين يضع قلمه على الورق ليكتب لم يكن كطبيعته، وإنما يبدو فى صورة التكلف والحرص على الألفاظ البليغة، والمعانى الإنشائية التى لا تخلص من العبارات

الضخمة الرنانة، ويقينى أنه لو ترك قلمه على سجيته لجاءت معانيه أشد وضوحاً، ولكنها الطبيعة الأزهرية التى لم يستطع التحرر منها أو التخلص من آثارها.

وبعد... فما هو مكان عبد العزيز فى الأدب العربى المعاصر؟

إنه لم يتهيأ لكى يكون كاتباً أديباً، ولكنه كصنوه المنفلوطى، كره الأزهر واتجه إلى الأدب والقراءة والصحف، وكتب فى المؤيد واللواء، ولكنه آثر الوظيفة فلم يحترف الأدب كصاحبه، وعرف فى المجالس وصالونات الأدب وأندية الفكر. محدثاً فكهاً لبقاً بارع النكتة حلو الحديث كما عرف حافظ، وإن لم يتأت له أن يكون فى أسلوبه على هذا القدر من السلاسة والإشراق اللذين عرفا فى مجالسه كمحدث.

وأمضى البشرى ثلاثين عاماً وهو يكتب... ولكنه كان مقلاً. متأنقاً لا يوقف نفسه على الكتابة، وإنما يرسلها إرسالاً فتأتى أحياناً على فترات متباعدة أو متقاربة.

وأبرز لون عرف به البشرى فى الأدب المعاصر هو تحليل الشخصيات «فى المرآة» وإن كانت الاعتبارات السياسية قد حالت بينه وبين توقيعها عندما كان يوالى نشرها فى السياسة الأسبوعية.

وتعطينا هذه المرائى صورة واضحة لعبد العزيز البشرى، صورة الرجل الخبير بالناس، الذى عاصر هذه البيئات وعاش فيها، وعرف من أمورها الخطير والصغير وأحاط بما كان يجرى وراء الستار.

وهكذا عاش الشيخ عبد العزيز يؤثر التنقل فى شتى الأوساط والطبقات وقد أكسبه هذا اللون من الحياة خبرة واسعة بالمجتمع المصرى فى كل خصائصه ونقائصه، كما أفاده إحاطة شاملة بما يؤثره أبناء كل طبقة من طبقات هذا المجتمع سواء كان ذلك فى البيت أو فى المقهى أو فى الشارع. وسواء كان ذلك مما يجرى فى حياة الناس العامة أو فى خلواتهم الخاصة، ومن ثم كان أروع الكُتاب وأبرعهم إذا تحدث عن تطورات المجتمع القاهرى، وما طرأ على حياة أبنائه من شتى الطوائف والطبقات، وما جد فى حياة الناس بين الأمس واليوم من تقاليد واصطلاحات.

تعطيك «مرائى» عبد العزيز البشرى هذا الفهم وتملأ نفسك ثقة بخبرته هذه

فهو يتناول فيها شخصيات مصرية، كانت لامعة إذ ذاك فى محيط السياسة والأدب والفكر يتناولها فى قوة وفى جرأة وفى سخرية، إلا حين يتصل الأمر بسعد زغلول.

وقد صور فنه فى هذه المرائى فى عبارات واضحة.. «.. والغاية التى تذهب إليها «المرآة» هى تحليل «شخصية» من تجلوه من الناس. والتسلل إلى مداخل طبعه ومعالجة ما تدسس من خلاله، لتقص هذا على القارئ فى صورة فكهة مستملحة».

والواقع أن أسلوب البشرى فيه رصانة وبساطة، وكتاباته مزيج من الجد والفكاهة، وهى صورة من طبيعته الإنسانية فقد بدأ حياته فى الأزهر يدرس علومه ويقرأ أدب القدماء، ثم أتيح له ـ بعد ـ أن يقرأ الأدب الحديث ويتصل بالأدب الأجنبى فيما ترجم منه.

وقرأ «الأغانى» وأولع بها حتى أدمن قراءتها كما يقول الدكتور طه حسين «ففصح لسانه إلى أبعد غاية من غايات الفصاحة».

ولو أتيح لعبد العزيز أن يوغل فى الصحافة كما حدث للمازنى أو للمنفلوطى إذن لتحول أسلوبه إلى شىء من اليسر والتبسط.

إن البشرى يحرص على أن تكون آثاره غاية فى القول والإجادة، وهو كلف بالجاحظ محب له إلى أبعد الحدود، ولذلك تردد كثيراً فى أن يواجه الجماهير بكتاب مطبوع، حتى إنه يقول فى مقدمة كتابه «فى المرآة» «.. وجعلت أعود على تلك المرايا بألوان التهذيب، واستدرك ما عسى أن تكون قد فوتت العجلة من فنون المعانى، وأعالج ما أضعفت السرعة من القول وأوهت من نسج الكلام..».

وإذا نحن قرأنا فصلاً من فصول عبد العزيز البشرى... وليكن «فى الطائرة» مثلاً لوجدناه غاية فى الرشاقة والجمال والإبداع.

ويصدق عليه هنا وصف الدكتور طه حسين بأنه «كان من القلة القليلة النادرة التى امتازت بخفة الروح وعذوبة النفس ورقة الشمائل والتى ظفرت من هذه الخصال بحظ غريب فى طبعه وفى جوهره وفى مادته..».

البهاء زهير

١١٨٥ ـ ١٢٥٨م

الشاعر الرقيق الذى افتتن الناس بشعره

الشعراء كالطيور. منها الكنارى والحسّون. ومنها الغراب ومنها الحجل والحمام. لم يستطع الفرزدق أن يكون كجرير، ولا أبو تمام كالبحترى. فى الاستطاعة التكيّف والتجويد، وليس فى الإمكان خلق شىء من لا شىء، فهذان شاعران معاصران جريا فى ميدان واحد، ميدان الحب والغزل، الأول وهو ابن الفارض تغنى بوجده العنيف بصوت رخيم وسهولة عظيمة، ولكنه فى كل حال يختلف اختلافاً كبيراً عن بهاء الدين زهير الذى جاء شعره كأنه الكلام الجارى، لولا الوزن والقافية. ومع ذلك فقد فتن الناس بهذا الشعر الخفيف، ولا عجب، فليس للفن عيارات ثقيلة أو خفيفة.

تقرأ ديوان زهير من الجلد إلى الجلد، فلا تلتقى وجهاً غريباً تنكر معرفته من وجوه اللفظ. يجرى الشاعر فى نظمه كله على نمط واحد، ولا تملّ حديثه لأنه حديث كل قلب، ولأنّ قائله خفيف الروح ظريف، لا يكلّف نفسه فوق طاقتها، وقد أدرك أنه الطائر الفريد فى جنان الشعر العربى.

أملى البهاء زهير نسبه على معاصره ابن خلكان صاحب وفيات الأعيان، وذكر أنه أبو الفضل زهير محمد بن على بن يحيى بن الحسن بن جعفر بن عاصم المهلبى العتكى الأزدى.

كذلك أخبر البهاء زهير صاحب الوفيات أن نسبه إلى المهلب بن أبى صُفْرَة، والمهلب هذا له مكان فى التاريخ؛ فهو صاحب الحروب والفتوح.

ووصفه عبد الله بن الزبير بأنه سيد العراق.

قال البهاء لابن خلكان: إن مولده بمكة فى خامس ذى الحجة سنة إحدى وثمانين وخمسمائة، وقال له مرة أخرى: إنه ولد بوادى نخلة.

وقضى البهاء زهير طفولته وشطراً من صباه فى الحجاز، ثم انتقل إلى قوص، ولا يعرف على التحديد متى انتقل البهاء إلى الصعيد، ولكن عبارة ابن خلكان فى الوفيات تهدى إلى أن البهاء كان بقوص صبيّاً، وذلك إذ يقول فى ترجمة ابن مطروح: «من أهل صعيد مصر، ونشأ هناك، وأقام بقوص مدة ثم قال: «وكانت بينه وبين بهاء الدين زهير صحبة قديمة من زمن الصبا، وإقامتهما ببلاد الصعيد حتى كانا كالأخوين...».

يلقى الديوان كما تلقى كتب التراجم والتاريخ العام ـ أضواء على حياة البهاء زهير يهتدى بها الباحث فى تناول ما كان عليه من ثقافة، وما أصاب من معارف كانت شائعة فى عصره..

فابن خلكان يذكره على أنه من أحسن الفضلاء فى عصره نظماً، ونثراً، وخطّاً.

ثم هو قد تولى ديوان الإنشاء، ومن تولى هذا الديوان كان فى الدرجة العليا من البلاغة والبيان...

وقد ربّى البهاء زهير فى «قوص» وهى يومئذٍ مدينة كبيرة عظيمة واسعة، قصبة صعيد مصر، وأهلها أرباب ثروة واسعة وقد عنى ولاتها ورؤساؤها بإنشاء المدارس بها، وزوّدوها بالخزن التى احتوت جملة صالحة من الكتب النافعة، واستقدموا لها مشهورى العلماء للتدريس بها وبذلك كانت «قوص» مركزاً هامّاً من مراكز الثقافة فى ذلك العهد البعيد، ومعيناً فياضاً بالعلم ينهل منه كل من يريد..

وشعر البهاء يكشف عن مظاهر الثقافة العربية بألوانها المختلفات، سواء أكانت شرعية، أم لغوية، أم أدبية....

إن حفاوة السلاطين بالعلماء، وافتتاح المدارس ودور العلم، وتربية البهاء فى قوص وهى مركز من مراكز الثقافة فى ذلك العصر، وميله الفطرى إلى القراءة، وآماله العراض فى الوصول إلى أعلى المناصب ـ كل ذلك كان بعض ما جعله يهتم

بالثقافة على اختلاف مظاهرها، وتعدد أنواعها، وكان لذلك أثره فى تعابيره.

ويذكر المؤرخون فى ترجمة البهاء زهير أنه «من فضلاء عصره، وأحسنهم نظماً، ونثراً، وخطاً»، وحتى تولى الملك الصالح نجم الدين أيوب ملك مصر، ولى ديوان الإنشاء الصاحب بهاء الدين زهيراً، وإذن كان البهاء كاتباً إلى جانب شهرته بالشعر، ولكن التاريخ الأدبى والسياسى معاً لم يحفظ لنا من آثار البهاء فى النثر إلا كتابه الذى يردّ فيه على لويس التاسع ملك فرنسا حين عزم على التوجه إلى أرض مصر وأخذها، فسار السلطان الصالح نجم الدين أيوب من دمشق وهو فى محفة، ونزل بأشموم طناح فى سنة ٦٤٧هـ. وأعد العدة للدفاع عن دمياط، وفى أواخر صفر وردت جيوش العدو، وبعث ملكهم إلى السلطان بكتاب يدل فيه بقوته وعدد جيشه.

فلما قرئ الكتاب على السلطان وقد اشتد به المرض، بكى واسترجع، فكتب القاضى بهاء الدين زهير بن محمد الجواب وهو الأثر الأدبى الوحيد الذى حفظه التاريخ من نثر البهاء زهير، وهو على كل حال يعطينا صورة عما كان عليه نثر البهاء فهو يميل إلى الإيجاز والوضوح، وتظهر فيه المراوحة بين الازدواج والسجع، مع غلبة السجع عليه، كما يبدو فى هذا الكتاب الاقتباس من القرآن الكريم، والاستشهاد بأقوال الحكماء، وتوفيقه فى هذا وذلك، والكتاب بعد ذلك يلقى ضوءاً على ثقافة البهاء.

ولا يستطيع الباحث أن يعتمد على هذا الأثر دليلاً على قوة الخطاب وبراعة البهاء فيه، فربما كان تأثير الناس راجعاً إلى ما فيه من المواعظ كما يقول المقريزى، أو إلى ما أثار عندهم من العواطف الدينية والوطنية، وتوقعهم استيلاء الفرنج على الديار، وما يستتبع ذلك من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات.

ومهما يكن من أمر فإن شهرة البهاء شاعراً أعظم من شهرته كاتباً، وحسبنا أنه كان فى الشعر صاحب مذهب يعرف به ويدل عليه.

منزلته...

البهاء مذكور فى التاريخ بدماثة خلقه، كما هو مشهور بعذوبة لفظه، وسهولة أسلوبه، ووضوح معناه، ذكره ابن خلكان فقال عنه إنه: «من فضلاء عصره، وأحسنهم نظماً ونثراً وخطاً، ومن أكبرهم مروءة»، وقال فى موضع آخر: «وكنت يومئذٍ مقيماً بالقاهرة، وأود لو اجتمعت به لما كنت أسمع عنه، فلما وصل اجتمعت به، ورأيته فوق ما سمعت عنه من مكارم الأخلاق، وكثرة الرياضة، ودماثة السجايا».

يقول «هيار» فى كتابه الأدب العربى:

«إن شعر البهاء يجعلنا ندرك ما بلغه لسان العرب من المرونة والاستعداد للتعبير عن ألوف من دقائق العواطف».

ويقول «بلمر»: «إن شعر البهاء زهير يشابه الشعر الأوروبى، وأكثر أفكاره تحاذى أفكار الشعراء الإنجليز فى القرن السابع عشر».



بيرم التونسى

١٨٩٣ ـ ١٩٦١م

أشهر شاعر وزجال عربى

اتخذ الشاعر الزجال الناقد ـ محمود بيرم التونسى ـ من قلمه أداة لإصلاح المجتمع ومحاربة النقائص السائدة فى عصره، والدعوة إلى نهضة بلاده فى مختلف مرافقها، وإلى حياة أفضل تسودها العدالة الاجتماعية، وقد استلهم فى نشأته فى الأحياء الشعبية، ومن تجارب حياته الشاقة، ومن المحن التى خاضها، شعراً صادقاً وفناً رائعاً وفلسفة ساخرة، وصوّر فيها حاجة الطبقات الفقيرة المهضومة الحق، والتى سحقها الاحتلال والاستغلال، والرجعية والنفعية ـ إلى الإنصاف والتعليم والتقدم.

ولم ينقطع إلى يوم وفاته ـ طيلة نصف قرن ـ عن نشر المئات من المقطوعات الزجلية باللغة العامية، والقصائد الشعرية باللغة الفصحى، والمقالات والحكايات والمقامات ـ التى تناول فيها المشكلات الاجتماعية والسياسية فى نقد لاذع، ومكاشفة صريحة، وسخرية فكهة، مما عرضه السنوات الطوال لاضطهاد السلطات الاستعمارية والجبهات الرجعية، وهو فى تطويعه اللغة الشعبية لقلمه فى كافة مجالات التعبير، خلّف تراثاً من الأدب الشعبى المصور لحياة الناس على مختلف طبقاتهم ـ ما لا يفرق فى أثره وقوة بيانه وبراعة تعبيره، عن مثله فى اللغة الفصحى.

ولد بيرم عام ١٨٩٣ وكان أبوه تاجراً صغيراً.. تعلم كالمعتاد فى الكُتّاب. ولكنه هرب ليضطر والده إلى إلحاقه بالعمل معه فى حانوت العطارة الصغير... وبعد فترة أعاده والده إلى الدراسة الدينية فى جامع أبى العباس المرسى بمدينة

الإسكندرية... لكنه سرعان ما تمرد على هذا اللون من الدراسة وترك الجامع بعد وفاة والده ليعمل فى حانوت يملكه زوج أمه الجديد وكان متخصصاً فى صناعة برادع الخيل.. وما أن بلغ سن الصبا حتى كانت أمه قد توفيت تاركة له بعض المال ففتح بقالة وتزوج من ابنة عطار كان صديقاً لوالده.

أول مكونات بيرم إذن تشهد بها نشأته الشعبية الخالصة وتشربه للحياة الشعبية والروح الشعبية من منابعها الأولى.. وتأتى بعد ذلك دراسته الدينية التى مكنته من القدرة اللغوية وصقلتها موهبته وإحساسه بمذاق الكلمة فلم تباعد بينه وبين الأصالة اللغوية العربية فى كل زجله.. وذلك ما حافظ لأزجاله كيانها بين الأزجال جميعاً.. وتفرد بيرم فى شعره العامى..

ولقد كان لنشأته فى الإسكندرية أكبر الأثر على تكوينه الثقافى... فمن المعروف أن الإسكندرية بعد وقوع الاحتلال مباشرة.. كانت تعتبر العاصمة الفعلية للبلاد وذلك نتيجة لتجمع الأجانب بها وافدين فى ظل النفوذ الاستعمارى الجديد لاستغلال خيرات البلاد... ومن مجتمعها المتلاطم بمختلف التيارات استمد بيرم مقومات فكره ووعيه.. فكانت نظرته العصرية المتفتحة على حتمية التقدم بحياة الشعب.. وكانت نظرته السياسية التى ارتبطت بما صاحب الوجود الصناعى فى المدينة من اتجاهات متحررة بلغ حد التعرف على البذور الأولى للوعى بالاشتراكية مما أنبت فى نفسه كراهية للأقطاع والسيطرة الرأسمالية فى مرحلة مبكرة جداً.

وكان من ميزات نشأته الشعبية أيضاً وجوده فى الثغر أصلاً.. أن تفتح على حقائق اجتماعية متبلورة لم تحجبها عن وعيه النفاذ.. مظاهر الصراع السياسى القائم فى القاهرة أيام ذاك والذى كان ينبض بالانتفاضة المقبلة عام ١٩١٩.. أيامها كان بيرم قد أقدم فى جرأة على احتراف الزجل كمهنة للارتزاق، فيستعيض بها عن العطارة بعد أن خلق لنفسه مكانة مرموقة بين أدباء الثغر وشعرائه.. فطفق يكتب عن كل مجالات الحياة العامة.. وحاول أن ينشئ لنفسه جريدة باسم (المسلة) يتعيش منها ويعبر عن نفسه فيها.. ولكنها صودرت بعد بضعة أعداد لما تحويه من جرأة بالغة فى التعرض لأحداث الحياة وكشف حقائقها الواقعة... ثم أصدر نشرة باسم (الخازوق) لم يطبع منها إلا عدد واحد.

وقد بدأت جرأة بيرم بشكل بالغ القوة فى ازجاله لمن كان يتصدى لهم من المسيطرين والمتسلطين فى كل مجال من مجالات السلطة..

الرب في الشـــام علقـــوه علي عـــود

ويامـا أرباب هنا شبعت ركوع وسجود

ورب في حَيِّانا اسمه الشاويش مسعود

والعمده في كفرهم غيرة مافيش موجود

واحنا لنا رب واحــد قــدهم وقــدود

وكان من أبرز اتجاهاته شحذ الروح الوطنية فى أبناء بلده:

يا مصرى ليه ترخى دراعك والكون ساعك

ونيل جميل حلو بـتاعـــك يشفى اللهاليب

ماتحط نفسك فى العالــى وتتباع غالى

وتاف لى على اللى فى بالى من غير ما تعيب

ثم الوقوف فى وجه تغلغل الأجانب وسيطرتهم على اقتصاد البلاد:

يعنى الأجانب تنهبـــــنا وتدخل بابنا

بالزور وناويه على خرابـنا وتعيش فى نعيم

غـاية السبـــب أن الأروام ماشيين قدام

وبهذه الأصالة كانت تنطلق كل أزجال بيرم.. لا غرو أن وقفت السلطة فى وجهه من البداية فحرمت عليه احتراف الزجل وهو على هذا المنهج الثائر الصارخ لكن مواهب بيرم كانت أضخم وأقوى من أن تقف به عند حدود القوة القاهرة المانعة.

لذلك سرعان ما اتجه بمواهبه الشعبية إلى جانب آخر.. فلما تعرف بالفنان الشعبى الخلاق سيد درويش.. وجد فى ميوله ومواهبه واتجاهاته اتفاقاً كاملاً معه... ولذلك ارتبطت منابت العبقريتين الكبيرتين فى الكثير من الأعمال الباقية لسيد درويش. ووقف الرجلان معاً يغذيان ثورة ١٩١٩ بكل مقومات هبوبها لثورة

شعبية مرتجاة.

وكانت النتيجة أن صدر الأمر بنفيه من البلاد. وخرج بيرم منفيّاً يردد فى حسرة إبعاده القهرى عن وطنه ومهده:

على السين يا مصر مشيت إيـاك تسليني

وعاش بيرم فى فرنسا عيشة حرمان وجوع وتشرد.. وامتهن الكثير من الحرف الحقيرة فى سبيل الحصول على ما يسد رمقه.. وكان الكل يتحاشاه خوفاً وزعم أنه جهر بدعوة سابقة لأوانها.. وأصبح بيرم منبوذاً فى منفاه بل بلغ الأمر إلى حد معاداته واتهامه بالخيانة الوطنية.. ومن فرط إخلاص بيرم لوطنه وثقته فى أن معاداته للملكية ونظامها كان شيئاً طبيعياً.. حاول العودة إلى مصر خلال عام ١٩٢٢ واستطاع أن يصل متسللاً.. لكنه قبض عليه وأعيد إلى فرنسا فظل هناك حتى عام ١٩٣٢.. وإبان تلك الفترة تكالبت عليه جميع الظروف والمغريات فكان الشىء الوحيد الذى قنع به فى موقفه المنفرد... أن يحاول الرجوع إلى مصر بأى ثمن.



البيـرونـى

٩٧٣ ـ ١٠٤٨م

الأستاذ الذى كان فى طليعة الصفوة المختارة من علماء المسلمين

علمـاء العـرب الذين بزغت أسـمـاؤهم فى القرون الوسطى، وأدلوا بقسط وافـر فى تقدم العلوم، هم فى الحقيقة مجموعة ضخمة، احتل منهم الكثيرون مراكز الصدارة ومن بينهم العالم أبو الريحان البيرونى.

هو أبو الريحـان مـحـمـد بن أحـمـد البـيـرونى الخـوارزمى، الرياضـى الفلكى، الجغرافى، المؤرخ، وهو مـؤلف عربى وإن كـان من أصل فارسى. ولد بضـاحيـة من ضواحى خوارزم، ودرس فى استيعاب وتفصيل الرياضيات والفلك والطب والتقاويم، والتاريخ. وكان متصلاً بالشيخ الرئيس ابن سينا، وكانت بينهما مراسلات، قيل إنها ذات أثر فى حياة البيرونى العلمية، وبالرغم من أنه كان على صلة قرابة بـابن سينا والفارابى إلا أنه فى نزعته العلمية كان يعد حقاً تلميذاً للكندى والمسعودى، ويقول المستشـرق الألمانى «سـخـاو»: «البيـرونى أعظم عـقليـة عـرفهـا التـاريخ»، ولا ريب، فالبيرونى صاحب اليد الطولى فى الرياضيات والنجوم والتاريخ، وفضلاً عن ذلك كان لغوياً أديبـاً. وسمى البيـرونى بلغـة أهل خوارزم، لأنهم كـانوا يسـمـون الغـريب بيرونى، وذلك لأن إقامته بخوارزم كانت قليلة، إذ كان لا يقيم بها إلا وهو على سفر، فلما طالت غيبته عدوه غريباً، وأطلقوا عليه لقب «بيرونى» ويقول السمعانى فى اللبـاب: «سُـمى بذلك لأنه كـان يسكن بظاهر مـدينة خـوارزم وكـان هذا الجـزء من المدينة خاصاً بالغرباء، واسمه بيرون، فنسب إليه». وقيل إنما لقب بالبيرُونى نسبة

إلى بلده «بيرون» من بلاد الهند، يقال إنه نشأ بها، أو أقام بها مدة طويلة، فعرف بأنه من أهلها، الراجح من أقوال المؤرخين أنه بدأ حياته فى خوارزم، ثم انتقل منها إلى جرجان، وأقام فيها مدة، ثم ارتجل إلى «كوركانج» شمال خوارزم، وأنه كان على جانب كبير من الدهاء وسعة الحيلة، والذكاء الخارق، فاستطاع أن يتقرب إلى ملوك خوارزم، وأن تكون له الحظوة عندهم والمكانة الأثيرة، ولما استولى السلطان محمود الغزنوى على ممتلكات آخر ملوك الدولة الخوارزمشاهية الأولى انتقل أبو الريحان إلى بلاط محمود الغزنوى، ويقول ياقوت: إنه أقام بمدينة غزنه أيام السلطان محمود الغزنوى، الذى عرف بحبه الشديد للعلم وتكريم العلماء.

عرف معاصرو البيرونى فضله، وقدروا سبقه فى مختلف العلوم حق قدره، فذاعت شهرته فى حياته، وصار يعرف بين علماء العصر باللقب الذى انفرد به وهو «الأستاذ»، وكما كان البيرونى يعرف فى الشرق بلقب الأستاذ كان يعرف لدى الغربيين فى القرون الوسطى باللقب نفسه مضافاً إليه اسمه محرفاً فهو عندهم «الأستاذ أليبورون».

وعالم مثل أبى الريحان فى سعة آفاقه وتعدد مناحيه يصعب الإلمام بما أحرزه العلم على يده من تقدم وما حقق فى مختلف الميادين من سبق علمى، على أنه لا بأس بإشارات قليلة تدل على ما وراءها من كنوز خبيئة فى مؤلفات البيرونى، والحق ما قاله المستشرق ساخاو ـ ناشر كتب البيرونى فى القرن قبل الماضى ـ من أن تقدير أبى الريحان حق قدره والاعتراف له بكل فضله يحتاج إلى عمل أجيال من الباحثين ينكبون على تراثه العلمى بحثاً ودراسة وتحقيقاً.

بعد أن يعدد ياقوت بعض كتب البيرونى يقول: «وأما سائر كتبه فى علوم النجوم والهيئة والمنطق والحكمة فإنها تفوق الحصر، رأيت فهرسها فى وقف الجامع بـ (مرو) فى نحو الستين ورقة بخط مكتنز». ويقدر الدكتور حسن إبراهيم حسن عدد مؤلفاته بـ (١٠٠) مائة مؤلف، والأستاذ قدرى طوقان بـ (١٢٠) عشرين ومائة مؤلف نقل بعضها إلى اللغات اللاتينية والإنجليزية والفرنسية والألمانية.

وهذه بعض مؤلفات البيرونى:

- الآثار الباقية عن القرون الماضية.
- القانون المسعودى.
- تحقيق ما للهند من مقولة معقولة فى العقل أو مرذولة.
- التفهيم لأوائل صناعة التنجيم.
- الصيدلة.
- الجماهر فى معرفة الجواهر.
- تحديد نهايات الأماكن.
- الفلسفة الهندية.
- استخراج الأوتار من الدائرة.
- رسائل البيرونى.

وبعد فإن البيرونى بعد أن حلق فى ميادين العلم الطبيعى والرياضيات والفلك لم ينس الفلسفة، فقد كان يعدها ظاهرة من ظواهر المدنية، ومن الطريف أننا نراه يبين أحسن بيان وجوه التوافق بين الفلسفة الفيثاغورثية والأفلاطونية الحديثة والحكمة الهندية والكثير من مذاهب الصوفية، وهو يعترف بسمو العلم اليونانى إذا قيس بمحاولات العرب والهنود، فيقول فى كتابه «تحقيق ما للهند من مقولة»: «إن بلاد الهند ـ دع عنك بلاد العرب ـ لم تنجب فيلسوفاً مثل سقراط»، ولم يكن للهنود منهج علمى يخلص علمهم مما يخالطه من أوهام، وهو مع ذلك ينصف بعض الهنود، ويرتضى بعض تعاليمهم، ويذكر منها: يكفينا معرفة الموضع الذى يبلغه الشعاع، ولا تحتاج إلى ما لا يبلغه وإن عظم فى ذاته، فما لا يبلغه الشعاع لا يدركه الإحساس، وما لا يحس فليس بمعلوم.

ومن هذا يتضح لنا أن فلسفة البيرونى قائمة على أساس من أن العلم اليقينى لا يحصل إلا من إحساسات يؤلف بينها العقل على نمط منطقى، كما كان يرى أن مطالب الحياة تجعلنا فى حاجة إلى فلسفة عملية، تميز بها العدو من الصديق، ويعتقد أنه بهذا القول لم يقل كل ما يقال، ولا آخر ما يمكن أن يقال.

الثعالبى

٩٦١ ـ ١٠٣٨م

اللغوى والمؤرخ والأديب

الثعالبى واحد من الثلاثة الكبار الذين أهدوا إلى المكتبة العربية أكبر قدر من الكتب الأدبية الخالصة بمعناها المعاصر، أى قدموا الأدب بمفهوم الشعر والنثر والاختيارات دون ما مزج بعلوم اللغة والأخبار والنوادر، وأما الكاتبان الآخران فهما أبو بكر الصولى وأبو عبد الله المرزبانى.

لقد ألف الثعالبى العديد من الكتب النفيسة الفريدة فى موضوعاتها وعناوينها ومع ذلك فإن كتب التراجم لا تكاد تذكر عن حياة هذا العالم الجليل أكثر من تاريخ ميلاده ووفاته، وأنه لقب بالثعالبى لأنه كان فى أول أمره فرّاءً فى مدينته نيسابور يخيط جلود الثعالب، ومن ثم فقد نسب إلى مهنته نسبته إلى بلدته.

وهكذا كان الثعالبى فى أول أمره، ثم ما لبث أن مهد العلم له أكناف الإبداع وهيأت له المتابعة والقراءة والاكتساب أسباب التأليف الغزير الوفير المتنوع الموضوعات والأبواب. فخلب ألباب جمهرة القراء والمؤلفين فضلاً عن صفوتهم بحيث أن عالماً مثل ابن بسام يقتفى طريقته فى التأليف وينهج نهجه ويسير على خطاه.

وإذا كانت تفصيلات حياته تلقى أضواء على شخصيته وتسهم فى الإفصاح عن كنه أمره ونبوغه، فإن آثار المرء العلمية ـ فى مجال استجلاء شخصيته ـ تؤدى بعض العوض وإن كانت لا تفى بكل الغرض.

غير أننا من خلال كتب الثعالبى ومقدماتها نستطيع أن نقرر أنه قضى حياته فى نيسابور وأنه كان وثيق الاتصال بالعالم الجليل الأمير أبى الفضل الميكالى عميد أسرة بنى ميكال التى عرف أبناؤها بالفضل والأدب وتكريم العلم وتقريب العلماء، واقتنوا بالكثير من الكتب القيمة الثمينة النافعة، وكانوا أصحاب مكتبة أفاد من محتوياتها العام والخاص. نعرف أيضاً أنه كان متصلاً بالأمير أبى نصر سهل ابن المرزبان وكان بدوره عالماً فاضلاً أديباً شاعراً، كما اتصل بالأمير مأمون بن مأمون خوارزم شاه. ولقد كان الثعالبى صديقاً لكثير من أعلام الأدب فى عصره وفى مقدمتهم كاتب العربية النابغة أبو الفضل بديع الزمان الهمذانى.

هذا وإن كثرة التأليف والتوفر على الكتابة والاحتفال بالثقافة والقراءة إلى حد التفرغ كل ذلك لم يمنع الثعالبى من أن يعبر عن خواطره ويفصح عن مشاعره فى نطاق شعر لطيف قيل فى أغراض مختلفة ومواضيع شتى بين غزل وخمر ووصف طبيعة ومدح ومساجلات إخوانية.

وللثعالبى غير قليل من القصائد المقطوعات ورد بعضها فى «وفيات الأعيان» وورد أكثرها فى آخر كتابه «خاص الخاص».

فإذا ما عمدنا إلى الحديث عن كتب الثعالبى فسوف نلاحظ أنها من الكثرة بمكان، وأنها أيضاً من النفع والقيمة والخصوبة بمكان. ولعل أشهرها وأكبرها كتابه «يتيمة الدهر»، وأما بقية كتبه فبعضها مطبوع وبعض آخر لا يزال مخطوطاً، وهى فى الشعر والنثر والطرائف الأدبية وفقه اللغة والبلاغة والتاريخ والتراجم الأدبية.

فأما كتبه المطبوعة فهى - فضلاً عن اليتيمة - فيما يتناول الأدب بفروعه: خاص الخاص، ثمار القلوب فى المضاف والمنسوب، سحر البلاغة وسر البراعة، من غاب منه المطرب، لطائف المعارف، نثر النظم وحل العقد، سر الأدب، المؤنس الوحيد، أحسن ما سمعت، اللطائف والظرائف، يواقيت المواقيت، المنتحل، المبهج، برد الأكباد فى الأعداد، العقد النفيس ونزهة الجليس.

وأما كتبه فى فقه اللغة والبلاغة، فإن المطبوع منها: فقه اللغة، الإعجاز والإيجاز، الكتابة والتعريض ويسمى أيضاً النهاية فى الكتابة، الأمثال ويسمى أيضاً

الفرائد والقلائد، وقد شكّك محرر مادة الثعالبى فى دائرة المعارف الإسلامية فى نسبة هذا الكتاب إلى الثعالبى وذهب إلى أن مؤلفه هو الأهوازى.

وأما كتبه فى التاريخ فأهمها «غرر السِّيَر» ويشك محرر مادة الثعالبى فى دائرة المعارف الإسلامية أيضاً فى نسبة الكتاب إلى الثعالبى ويذهب إلى أن مؤلفه هو أبو منصور الحسين بن محمد بن المرغنى الثعالبى.

وللثعالبى أكثر من كتاب فى الأدب الأخلاقى: المطبوع منها: مرآة المروءات وأعمال الحسنات، ومكارم الأخلاق.

وأما كتب الثعالبى المخطوطة، أو على الأقل تلك التى نعلم بوجودها فهى: التجنيس، غرر البلاغة وطرف البراعة، الغلمان، تحفة الوزراء، الشكوى والعتاب، المقصور والممدود، المتشابه، التمثيل والمحاضرة، طبقات الملوك.

هذا وإذا أردنا أن نستعرض موضوع كتاب أو أكثر من كتب الثعالبى فسوف نجد أن المؤلف كان متأنقاً فى اختيار عناوين كتبه بحيث جعل لها جَرْساً منغماً، وإيقاعاً منبهاً. والأمر فى ذلك من الوضوح بمكان.



جابر بن حيان

٧٢١ ـ ٨١٥م

أول من ألف فى علم الكيمياء

لقد لعبت الكيمياء وما تزال تلعب دوراً مهمّاً فى هذا العصر فلولاها لما تقدمت الصناعة تقدمها الحاضر ولما سيطر الإنسان على بعض العناصر سيطرته الحالية.

وإذا ذكرنا الكيمياء والصناعات التى خرجت منها وقامت عليها توجه نظرنا إلى الذين وضعوا أسسها وعملوا على تقدمها وارتقائها من كهنة مصر إلى علماء اليونان إلى فلاسفة الهند إلى نوابغ العرب. ويهمنا ما أحدثه العرب فى هذا الفرع من ابتكار واكتشاف فنجد أنهم تبنوا هذا العلم وامتازوا على غيرهم برجوعهم فيه إلى التجربة والاختبار إذ بعد اطلاعهم على بحوث من سبقهم من الأمم أتوا بزيادات مهمة جعلت بعض منصفى الغرب يعتبرون هذا العلم من نتاج القريحة العربية الخصبة ويرجع الفضل فى أكثر هذه الابتكارات والإضافات إلى جابر بن حيان الذى قال عنه «برتيلو»: «لجابر بن حيان فى الكيمياء ما لأرسطوطاليس فى المنطق...» ويعتبر برتيلو أيضاً أن جميع الباحثين العرب فى هذا العلم نقلوا عن جابر واعتمدوا على تأليفه وبحوثه.

تذكر دائرة المعارف البريطانية أنه أبو موسى جابر بن حيان ويسود الاعتقاد وفق الأدلة على أنه من قبيلة أزد القبيلة العربية التى قطنت جنوب الجزيرة العربية واستوطن بعضهم الكوفة بعد أن تهدم سد مأرب. وقد أيدت دائرة المعارف الإسلامية حيث ذكرت بأنه أبو موسى جابر بن حيان الأزدى صاحب كيمياء عربى مشهور واسم أبيه عبد الله الكوفى ويذكر ميلر عند كتابته عن جابر أن العرب

حاذقون فى التجارب ويشير الأستاذ سارتون فى كتابه «مقدمة فى تاريخ العلم» عند التطرق إلى كيمياوى العرب (يظهر أن لجابر بن حيان خبرة تجريبية جيدة فى عدد من الحقائق الكيمياوية. وذكرت الموسوعة الدولية أن جابر بن حيان كيمياوى مشهور فى القرن الثامن للميلاد وكتبه ذات التأثير الكبير الواسع، وتعتبر من أول المؤلفات فى المعادن والتى نقلت إلى أوربا مثل نظرية تحضير المعادن من عنصرى الزئبق والكبريت ووصف لتحضير الحوامض المعدنية وبقيت هذه الكتب نصوصاً كيمياوية لأجيال عديدة وهكذا تدل أكثر المصادر على أن جابراً عربى الأصل والثقافة ولم نجد من بين المصادر الموثوقة ما يشير إلى أنه فارسى أو يونانى الأصل.

كان جابر تلميذاً لجعفر الصادق إمام الشيعة على ما رواه بعض المؤرخين وقيل إنه كان تلميذاً لخالد بن يزيد بن معاوية الذى عرف بأنه أول من تكلم فى الكيمياء ووضع فيها الكتب وشرح صنعة الأكسير وعنه نقل جابر هذه الصنعة التى اشتهر بها وألف فيها نحو خمسمائة كتاب وكان بعض الناس فى زمانه يعدون هذه الصناعة أمراً موهوماً إذ كيف يتسنى فى العقل استخراج الذهب من طبخ مواد نباتية ومعدنية، وقد جرب بعضهم ما ذكره جابر مدة طويلة فذهب تعبه سدى.

ولكن جابر بالرغم من ذلك كشف باختباراته العلمية أموراً مهمة فى فن الكيمياء وترجمت كتبه إلى اللغات الأوربية واشتغل الأوربيون وقتاً طويلاً بكيمياء جابر وانتفعوا بها وقد نسب إلى بعض المؤرخين أنه الذى اخترع علم الجبر ومنه اسمه.

ترجع شهرة جابر فى علوم الكيمياء إلى أنه أول من غير الأوضاع القديمة فى هذه العلوم التى كانت مبنية على الأوهام فجعلها تقوم على التجربة والملاحظة والاستنباط، وبعد أن درس جابر ما خلفه اليونان فى علوم الكيمياء أخذ يخالف أرسطو فى نظريته بتكوين الفلزات لأنه رآها لا تساعد فى تفسير بعض التجارب العلمية وبذلك أبطل جابر الكيمياء القديمة ودعا إلى استخدام العقل والاعتماد على الأدلة العقلية والتجارب العملية ولذلك يبدو فى تواليفه هذا الروح العملى واستقصاء الحقيقة عن طريق المشاهدة والتجربة الدقيقة وقد وضع أصولاً للتجارب العلمية، وردت فى كتابه العلم الإلهى، منها تحديد الغرض من التجربة

والعمل على اتباع التعليمات الخاصة بها والابتعاد عما هو مستحيل فى نظر العقل ولا فائدة منها والعناية الدقيقة باختيار الوقت الملائم للتجربة وينصح من يقوم بالتجربة بأن يكون صبوراً مثابراً وصامتاً متحفظاً وأن يحسن اختيار المكان الملائم لعمله بحيث ينبغى أن يكون فى مكان منعزل، وعلى من يقوم بأية تجربة فى هذه العلوم ألا يصادق إلا من يثق به من الناس وألا يغتر بظواهر الأشياء لأن ذلك قد يؤدى فى كثير من الأحيان إلى إخفاق التجربة. وكان أرسطو يرى أن المادة تتكون من أربعة عناصر وهى: الماء والهواء والنار والتربة فحمل جابر على هذه النظرية أيضاً وأبطلها ثم وضع لها أساساً جديداً شرحه فى كتابيه المائة والاثنى عشر ومما قاله: «إن المعادن تتكون من عنصرين: أحدهما دخان أرضى والآخر بخار مائى فإذا تكاثف هذان العنصران فى باطن الأرض تكون الكبريت والزئبق وإذا اتحد الكبريت والزئبق تكونت المعادن وإنما تتفاضل المعادن وتتكون من هذين العنصرين كان من الممكن أن يتحول بعضها إلى بعض، ووظيفة الكيمائى أن يحول المعادن بعضها إلى بعض فى أقل زمن وبذلك يسبق الطبيعة التى تقوم بهذه العملية فتستغرق آلاف السنين، ولم يكن جابر يفهم من الزئبق والكبريت المادتين المعروفتين عند عوام الناس ولكنه كان يقصد مادتين مثاليتين هما أصل جميع المواد الطبيعية، ولكنهما فى خواصهما أقرب شبهاً بالزئبق والكبريت وعندما كان يفسر فى كتابه المعرفة بالصفة الإلهية والحكمة الفلسفية كيفية اتحاد الزئبق مع الكبريت، ساقه الحديث إلى وضع أساس نظرية جديدة هى نظرية الاتحاد الكيميائى ويقال إن «جون دالتن الإنجليزى» وضع ما يشبهها بعده بنحو ألف سنة، يقول جابر فى شرح نظريته الجديدة: «قد يظن بعض الناس خاطئين أن الزئبق والكبريت عندما يتحدان يكونان مادة جديدة والحقيقة أن كلا من المادتين - يقصد الزئبق والكبريت - لم يفقد شيئاً من خواصه بالكلية ولكن الذى حدث أن كل مادة منهما انقسمت إلى أجزاء دقيقة وكل جزء من أجزاء المادة الأولى اتحد مع آخر مع المادة الثانية فإذا نظر الإنسان بعينه المجردة خيل إليه أنها مادة جديدة فى كل خواصها ولو كان لدينا شئ من القدرة على تفريق هذه الأجزاء بعضها من بعض لعادت أجزاء كل مادة إلى أصلها محتفظة بخواصها الأصلية». وهذا ما يقوله رجال الكيمياء الحديثة فى الاتحاد

الكيميائى ومن العجيب أن يوفق هذا العالم فيما وفق فيه فى عصر لم تكن قد تقدمت فيه المختبرات العلمية ولم تعرف الأجهزة الدقيقة المعروفة اليوم لإجراء التجارب فى معامل الكيمياء الحديثة فى هذا العصر وهذا دليل على عبقرية علمية فذة امتاز بها جابر بن حيان، مما يجعلنا نقف دائماً مشدوهين أمام علمائنا السابقين الذين خطوا خطوات فسيحة، ثم جاءت عصور طمست فيها معالم هذا النور وحجبته عنا حينا.

من الابتكارات العلمية التى كشف عنها جابر ونسبت إليه أنه وضع ما يسمى علم الموازين والغرض من هذا العلم معادلة ما فى المعادن من طبائع وقد غلب اسم هذا العلم على صنعته الكيميائية حتى عرفت كيمياء جابر باسم الميزان، ولهذا المصطلح عند جابر معان مختلفة فهو يطلقه ويريد منه الوزن النوعى وقد يريد منه ما كان يفهمه أصحاب الكيمياء القديمة من أنه وزن مقدار الأجساد الداخلة فى خلط أو وزن وقد يريد منه ميزان الحروف العربية المتصلة بأمهات الطبائع الأربع وهى الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة وكما يطلق هذا الميزان على الأشياء التى تحت الفلك كذلك يطلق على الاينات (الميتافيزيقية) كالعقل والنفس والزمان والمكان. وقد نجح هذا العالم العبقرى نجاحاً يذكر له بالإعجاب فى العمليات الكيميائية التى منها الإذابة والتبلور والتقطير والتكليس والاختزال.

ومن كشوفه التى لها أثر فى الكيمياء ما وصل إليه من أن مركبات النحاس تكسب لوناً أزرق وكشفه طرقاً لتحضير الفولاذ ولا يخفى ما لهذا المعدن من أثر كبير فى صناعة الآلات التى قامت عليها الحضارة الحديثة وتنقية المعادن مما يشوبها وصبغ الجلود والشعر ثم تحضيره مادة مضيئة من «كبريتيد النحاس» كى تستخدم بدلاً من الذهب فى كتابة المخطوطات الثمينة وهى التى تعرف اليوم بماء الذهب، ثم تحضيره نوعاً من الطلاء يقى الثياب البلل ويمنع الصدأ ثم كشفه أن الشَّبَّة تساعد فى تثبيت الألوان فى الصباغة ومعرفته فوائد بعض المواد النباتية والحيوانية فى مداواة بعض الأمراض وتمكنه من صنع نوع من الورق غير قابل للاحتراق، ومن بحوثه العلمية التى تبرهن على عقليته العلمية وتفكيره الناضج فى الكيمياء وغيرها بحوثه فى السموم ومضارها.

الجــاحــظ

٧٧٥ ـ ٨٦٨م

أحد المعالم الثابتة فى الأدب العربى

إنها حقيقة لا تقبل الجدل والنقاش حولها، كل أمة تعتز وتفخر بماضيها، وكل شعب من الشعوب يتعلق بأعلام وطنه من الأدباء والفلاسفة والفنانين، وكل مواطن فرد له نموذجه الذى يحتذيه ومثاله الذى يحاكيه. ففى إنجلترا هناك شكسبير وديكنز وملتون وبرنارد شو، وفى فرنسا بلزاك وزولا وفلوبير ومونتيسكيو وديجول وأندريه مالرو وفى ألمانيا جوته وفى الهند طاغور وفى روسيا تولستوى ودستويفسكى وتشكخوف.

ويقف الجاحظ واحداً من المعالم الثابتة الشامخة فى أدبنا العربى وسط عدد كبير من الفلاسفة والمفكرين والكتاب. إذن، فإن الرجوع إلى كتاباته وأقواله ضرورة تحتمها الرغبة فى الاستناد إلى الأصول والثوابت ويستلزمها الحرص على أن يكون ثمة نموذج يحتذى. فيه يتجسد المثال الحق للأديب ذى الأسلوب المتميز والمنهج الواضح والرؤية الاجتماعية والنظرة الموضوعية.

وهذا يبدو جليّاً فى مختلف آثاره وكتبه ومخطوطاته ومن ثم ينبغى أن يُقدم للناس حتى يعرفوا جانباً من جوانب تراثهم، بحيث لا يقف تصورهم للأدب أو للثقافة عند حد من يقرءون لهم فى هذه الأيام.

كاتب ذو أفق واسع وثقافة شاملة ووعى عميق بحركة الحياة فى المجتمع من حوله وقدرة فائقة على الحوار الديمقراطى والجدل الجاد الموضوعى.

اختلف المؤرخون فى أصل الجاحظ وفى تعيين سنة ميلاده وقالوا فى ذلك

أقوالاً مضطربة فذهب بعضهم إلى أنه من أصل عربى، وذهب بعضهم الآخر إلى أنه من العناصر الأفريقية التى تداخلت فى العنصر العربى والفريقان ينسبانه إلى كنانة أصيلاً أو مولى. وقد اجتمع المؤرخون على أن الجاحظ كنانى ليثى نسبة إلى ليث بن بكر بن عبد مناة بن كنانة بن خزيمة، وقالوا إنه كان مولى أبى القلمس عمرو بن قلع الكنانى وكان جده أسود يقال له فزارة. وكان جمالاً لعمر بن قلع الكنانى. أما كنيته فقد قال أبو بكر العمرى: سمعت الجاحظ يقول: «نسيت كنيتى ثلاثة أيام فأتيت أهلى فقلت: بمن أكنى؟ فقالوا: بأبى عثمان»

ولد أبو عثمان عمرو بن بحر الملقب بالجاحظ لبروز عينيه من حدقتيهما الواسعتين فى البصرة وتوفى والده وهو بعد حديث السن ولما شب طلب العلم أولاً فى الكتاب مع أولاد القصابين ثم راح يعيش بعمل يديه فيبيع الخبز والسمك بالبصرة وهو لا يألو جهداً فى طلب العلم ومطالعة الكتاب. وكانت البصرة فى ذلك العهد أكبر حواضر العلم والأدب بعد بغداد يجتمع فى مسجدها طائفة حسنة من العلماء وأرباب النحو واللغة والأدب، فأقبل إليهم الجاحظ يجالسهم ويأخذ عنهم الكثير بفضل ذكائه المتوقد وحافظته القوية وما أن أيفع حتى تلقى الفصاحة وأساليب التعبير شفاها عن خطباء العرب فى المربد وقد ألف التردد إليه منذ حداثته وكان إلى ذلك يكترى حوانيت الوراقين ويبيت فيها أحياناً للمطالعة.

ولما اجتمع له قدر صالح من العلم والأدب قصد بغداد واتصل فيها بالكبار من رجال الدين وعلماء اللغة.

وتردد إلى مجلس الأدباء فوجد عنهم على ما قال هو نفسه مالم يجده عند مشايخه الذين أخذ عنهم الشعر والأدب وبهم عرف ماهية الشعر وقام بحق الأدب والكتابة.

ظل الجاحظ يزاول فنون الأدب والأخبار واللغة والحكمة والكلام ويعمل الفكر ويحلل ويتوسع فى ما حصله حتى تمت له ثقافة راقية وتنبه عقله فتمكن من التعرض لقضايا خطيرة فى الدين، وكان له مذهب وأتباع وشرع يؤلف الكتب.

وما أن كان القرن التاسع (الثالث الهجرى) حتى طارت للجاحظ شهرة كبيرة بين كتاب عصره وترامت تلك الشهرة إلى أذن المأمون - وقد قرأ للجاحظ «كتاب الإمامة» وأعجب به - فاستقدمه.

وقد كان الجاحظ ذا ثقافة واسعة جداً تجعل منه دائرة معارف حية فقد وعى فى صدره جميع معارف عصره فى الأدب والدين والعلم والفلسفة قال أبو بكر أحمد بن على: «كان أبو عثمان الجاحظ من أصحاب النَّظَّام، وكان واسع العلم بالكلام كثير التبحر فيه، شديد الضبط لحدوده ومن أعلم الناس به وبغيره من علوم الدين والدنيا، وله كتب كثيرة مشهورة جليلة فى نصرة الدين وفى حكاية المخالفين والآداب والأخلاق وفى ضروب من الجد والهزل وقد تداولها الناس وقرءوها وعرفوا فضلها وإذا تدبر العاقل المميز أمر كتبه علم أنه ليس فى تلقيح العقول وشحذ الأذهان ومعرفة أصول الكلام وجواهره وإيصال خلاف الإسلام ومذاهب الاعتزال إلى القلوب كتب تشبهها. والجاحظ عظيم القدر فى المعتزلة وغير المعتزلة من العلماء الذين يعرفون الرجال ويميزون الأمور».

آثار الجاحظ

وقد خلف لنا الجاحظ مؤلفات كثيرة ما بين كتب ورسائل وقد قيل إن آثاره هذه بلغت ما ينيف على ثلاثمئة وخمسين كتاباً، ومما يؤسف عليه أنها لم تكن تصل إلينا كلها فقد ضاع منها عدد يذكر وأما ما وصل إلينا منها فقد طبع معظمه وما يزال بعضه مخطوطاً ومبعثراً فى خزائن شتى بين الشرق والغرب.

(أ) الفلسفة والاعتزال والدين

- «كتاب الاستطاعة وخلق الأفعال» وضعه الجاحظ لتقرير مذهب الاعتزال و«كتاب الاعتزال وفضله» ولعل هذا الكتاب هو المسمى أيضاً «فضيلة المعتزلة» «والذى رد عليه الراوندى بكتابه «فضيحة المعتزلة» و«كتاب آى القرآن» و«كتاب الرد على اليهود» و«كتاب الدلائل والاعتبار على الخلق والتدبير» وهو يبحث فى تعليل الأشياء الطبيعية وما فى الكائنات من الدلائل على وجود الصانع إلخ...

(ب) فى السياسة والاقتصاد

- «كتاب الاستبداد والمشاورة فى الحرب» و«رسالة فى مناقب الترك وعامة جند الخلافة» و«رسالة فى الخراج» و«كتاب أقسام فضول الصناعات ومراتب التجارب» و«كتاب الزرع والنخل والزيتون والأعناب» إلخ...

(جـ) فى الاجتماع والأخلاق

ـ «رسالة فى إثم السكر» و«كتاب أخلاق الشطار» و«كتاب أخلاق الفتيان وفضائل أهل البطالة» و«كتاب خصومة الحول والعور» و«كتاب البخلاء».

(د) فى التاريخ والجغرافيا والطبيعيات والرياضيات

ـ «كتاب الأخبار وكيف تصح» و«كتاب الملوك والأمم السالفة والباقية» و«كتاب الأمصار» و«رسالة فى الكيمياء» و«كتاب المعادن» و«كتاب نقض الطب» و«كتاب الحيوان».

(هـ) فى الأدب والشعر والعلوم اللسانية والأدبية

«كتاب البيان والتبيين» إلخ..

(و) فى العصبية وتأثير البيئة

ـ «كتاب القحطانية والعدنانية» و«كتاب العرب والعجم» و«رسالة فى فخر السودان على البيضان» و«كتاب مفاخرة السودان والحمران» إلخ....

(ز) فى موضوعات شتى

ـ «رسالة التربيع والتدوير» و«رسالة فى العشق والنساء» و«كتاب الإخوان» إلخ.



جبران خليل جبران

١٨٨٣ ـ ١٩٣١م

هدية الوادى المقدس بلبنان إلى الإنسانية

مع نسمة الهواء الرقيقة التى تصافح الوجوه بعبيرها الفواح نذكره ومع الزهرة الندية التى تتألق على ضفاف الجداول والأنهار نسترجع صورة وجهه الحالم النبيل.. ومع تغريد الطيور وعذوبة ترنيم البلابل وشدو الحمائم نحس بروحه تطوف من حولنا.. ومع حفيف أوراق الشجر نكاد نسمع صوته الهادئ الرخيم يتحدث إلينا ويناجينا ونناجيه.

ومع القمر الذى يسكب نوره الفضى على صفحة الوجود نحتضن ذكراه فى حنايا القلب، ومع الشدو الرقيق المنساب كأنه تراتيل السماء نسمع خفق قلبه ونبضه الجياش المتدفق ومع كل كلمة عبقرية وخيال رائق نستجلى ذلك العالم البديع الذى رسمه لنا بكلماته الحلوة المؤنسة.. ونحس بعطره يملأ الكون من حولنا.

إنه الفنان والأديب المبدع والشاعر الملهم والإنسان الرقيق «جبران خليل جبران» هدية الوادى المقدس بلبنان إلى الإنسانية... وعبقرى الكلمة، الذى رسم بالشعر لوحات ملهمة هى زاد القلب والروح... ومتعة لذواقى الفن العظيم الملهم.

فى قرية صغيرة من قرى لبنان الشمالى تدعى «بشرى» وفى تلك القرية الوديعة الغافية عند سفح غابات الأرز الخالد والمطلة على الوادى المقدس تجثم عند أقدامها مواكب السحاب وتتوج فرعها نجوم السماء ولد جبران خليل جبران، فكان مولده فى قريته المتواضعة ميلاد لؤلؤة فى صدفة لن تلبث يد الزمن حتى تشق عنها الغلاف فيبهر حسنها البصائر والأبصار.

نشأ الصبى جبران فى تلك البقعة الجميلة فوقعت عينه منها على مفاتن من

الجمال وأخذ من السحر، تملت نفسه منها وأفعم بها ذهنه الصغير وخاطره، فكانت أول احتكاك بزناد العبقرية الكامن وراء نفس قدّر الله لها أن تحلق يوماً فى أجواء الفن والنبوغ.

وترعرع الصبى جبران فى كنف أسرة لا تتميز بسبب من أسباب العلم والرقى والحضارة ولا تنعم بشىء من متع الغنى والثراء، وكان من الطبيعى أن ينشأ الفتى مضطلعاً بشئون الغنم والماعز على غرار أبيه بل كان لابد له أن يحترف تلك المهنة ليكسب منها رزقه لولا أن الأقدار تداخلت فى مصير الفتى وأعدته لغير ذلك من المهن والحرف.

اختلف الصبى جبران إلى مدرسة القرية حتى الحادية عشرة من عمره، واستطاع فى خلال سنوات الحداثة أن يظفر بنصيب ضئيل من اللغتين العربية والسريانية. وما من شك فى أن اختلافه إلى المدرسة وتعلمه القراءة والكتابة وتفتح ذهنه الصغير لاستيعاب العلم، كل هذا قد عمل على إبراز المواهب اللدنية فيه فتراه منذ نعومة أظفاره يميل إلى الرسم والتصوير.

ما أضيق الرزق ينقب عنه المرء فى طبق الأرض وجلامد الصخور، وما أشقى العزائم الكبيرة إذا حصرها القدر فى نطاق ضيق من ميادين الحياة.

ويشاء القدر أن يضيق الرزق بلبنان فى عهد جبران له وأن توأد فيه الحرية وتنشر أعلام الظلم والاستبداد، فهب فريق كبير منهم يركب غارب البحر سعياً وراء الرزق أو نشداناً للحرية.

وحذت أسرة جبران حذو الألوف من الأسر فحزمت أمرها وشدت الرحال إلى أمريكا.

جهاد فى سبيل العلم....

وينتظم الفتى جبران فى سلك إحدى المدارس ويقبل على الارتشاف من مناهل العلم بنهم لا مزيد عليه، فتفتح له اللغة الإنجليزية آفاقاً جديدة من التفكير لا عهد له بها قبل ذلك الحين، وكان فى خلال الدراسة لا يفتأ يجيل قلمه راسما مصوراً فيلقى من مدرس الرسم ضروباً من التشجيع والإعجاب ويقدمه إلى رسام من كبار

الرسامين فيعجب به ويلمح فى هذا الفتى الشرقى عبقرية متوارية لابد أن تتجلى يوماً مشرقة وضاءة.

ويعود الفتى جبران إلى بيروت ليستكمل دراسته العربية ويقضى فى وطنه أربع سنوات ثم يرجع بعدها إلى بوسطن وهو فى الربيع العشرين ليبدأ حياة الجهاد والكفاح وليتلقى ضربات الدهر واحدة تلو أخرى.

كان الشاب جبران قد بدأ ينشر نفثاته فى الصحف العربية بعنوان «دمعة وابتسامة» فتلقى الرضا والإعجاب، وتبقى عند حد الرضا والإعجاب لا توفر له ولشقيقته صبابة من قوت. وكان فى أثناء ذلك قد وطن النفس على التماس الرزق من نتاج ريشته فانصب برسم ليل نهار على أمل أن يعرض رسومه فى معرض عام لعله يبيع منها شيئاً يدفع بثمنه عنه غائلة الفقر.

عز على الأقدار أن ترأف بالشاب النشيط العامل وأن تبدله من يأسه أملاً ومن عسره يسراً، فقد أخفق المعرض إخفاقاً ذريعاً وأضمحلت معه الآمال الجسام.

توثقت عرى الصداقة بين جبران والسيدة الأمريكية رئيسة مدرسة مارى هسكل فعرض لوحاته فى مدرستها. وكان الفن محور الحديث بينهما، يفيض جبران فى وصف آياته وخوافيه وتنصت مارى هسكل إليه تعب من ذلك الينبوع المتدفق وتروى منه روحها الظامئة حتى اقترحت عليه يوماً أن يسافر إلى باريس ويتصل بزعماء الفن فى مدينة النور ويأخذ عنهم طرائقهم وخوافى فنونهم ويعود بعد ذلك مصقول الملكة وضاء العبقرية.

وما هى إلا أيام قلائل حتى كان جبران أحد سكان الحى اللاتينى بباريس وتلميذاً من تلامذة معهد الفنون الجميلة ينهل من معين الفن ولا يرتوى.

قضى جبران بباريس ثلاث سنوات لم ينقطع فى خلالها عن الدرس والتحصيل والوقوف على أسرار الفنون واستيعاب مذاهب الجهابذة الأعلام ممن طار لهم صيت جميل فى أجواء الفنون، ولم يكتف بما فى باريس من متاحف يقضى فيها الساعات الطوال فاحصاً دارساً متأملاً بل أراد أن يلم بروائع العواصم الأوربية فزار روما وبروكسل ولندن ووقف فى متاحفها وقفة العابد المتخشع يتملى مما تقع

عليه عينه من آيات يلألئ فيها وحى العبقرية فى سماء الأدهان والألوان أو فى تجاليد الصم الصلاب من الأنصاب والتماثيل!!

ولم تكن حياة جبران بباريس وقفاً على دراسة الفن بل كان للأدب فيها نصيب كبير، فطالما قضى سواد ليله منكباً على الكتابة والتأليف يسكب فى كؤوس الحروف روحه التى يسكبها مع طلاء صوره ولوحاته.

وكان جبران حتى ذلك العهد قد أصدر عدة كتب منها «الموسيقى» و«عرائس المروج» و«الأرواح المتمردة» فضلاً عن الفصول والمقالات التى كان ينشرها فى مختلف الصحف العربية فى الوطن العربى والمهجر. وطالما رجع إلى نفسه وفكر فى شأنه وتساءل أيطلب رزقه من شق القلم أم من لمة المنقاش. لقد زاول الكتابة فما درت عليه بشىء وزاول التصوير فما فتح له أبواب الرزق.

بقى جبران زمناً مشغول الفكر مقسم الفؤاد بين التصوير والكتابة حتى قدر له أن يزور يوماً هو ونفر من زملائه المثال العظيم «رودان» أقبلوا عليه فى مرسمه ومنحته يسألونه ويأخذون عنه، فاستفاض الرجل يحدثهم عن الفن وأهله وعن أسراره وعباقرته وتطرق به الحديث إلى الكلام عن «وليم بلايك» ذلك المتفنن العظيم والمصور الشاعر الذى اتخذ التصوير والشعر أداة يعرب بهما عن خلجات فكره ونبضات قلبه فكان فى كليهما الإمام المبرز.

خرج جبران من لدن «رودان» والدنيا لا تسعه من شدة الفرح فقد نزل كلام الأستاذ برداً وسلاماً على فؤاده فلا حيرة بعد اليوم ولا تردد، فلسوف يظل يكتب ويصور ولسوف يكون له من «وليم بلايك» القدوة الحسنة والمثال الجميل.

ولكن سرعان ما شاب هذه الفرحة حزن جديد، كأنما الفرح أمر محرم على هذا الفتى إلا إذا تحلب بعصارة البؤس والألم، فما أن يشعر بانطلاق أجنحته فى عالم الفن مصوراً وكاتباً، حتى يفاجئه القدر القاسى بنعى والده فيشرب لوعته وينثنى على قلبه الدامى المفجوع بأمه وأخيه وشقيقته الصغرى.

قفل جبران عائداً إلى بوسطن بعد أن تزود بخير زاد من الفنون الأوربية وآدابها.

على أن المصائب والنكبات ما كانت لتفت فى عضده وإنما كانت تشحذ عزمه

وتزيده قوة وجلداً على الجهاد والكفاح.

رأى جبران أن مدينة بوسطن تقسو عليه بذكرياتها الأليمة وتضيق فى وجهه مجال المعاش فهجرها إلى نيويورك لعله يجد فى مجاليها الفساح تحقيق ما يصبو إليه من الآمال.

كان الرجل صاحب آمال وأحلام وهو القائل فى إحدى كلماته: «أفضل أن أكون أحقر الناس ولى أحلام أرغب فى تحقيقها من أن أكون أعظمهم ولكن بدون أحلام ولا رغبة».

ضرب فى نيويورك مع الضاربين فى مناكب الرزق وعاش فيها نحواً من تسعة عشر عاماً يقدس العمل ولا شىء غير العمل. وتلك خلة أثرت عن الأمريكيين فالوقت عندهم أثمن شىء فى الحياة كما أن العمل هو أقدس مقدساتها، ولقيت تلك الخلة من فؤاد جبران هوى حبيباً فأقبل على العمل لا تأخذه فيه ونية ولا هوادة.

عمل جبران وكافح وصارح الناس بأفكاره الجديدة مبثوثة فى كتبه ومقالاته وبفنه الجديد متألقاً فى ألواح صوره حتى قهر الزمن وفرض نفسه على عصره وجيله فطارت له شهرة فى التصوير فأقبلت عليه الدنيا وذاع له صيت فى الفلسفة والأدب فلفت إليه الأنظار والقلوب.

وكان صاحب رسالة بثها للناس بصورة فاستوعبتها الخاصة من أهل الشرق والغرب على السواء، فلغة التصوير لغة عالمية لا تستعصى على فهم الحاذقين من عشاق هذا الفن وعارفيه مهما اختلفوا مواطن وبلاداً، وقام كذلك يبث الناس رسالته فى أدب جديد أطلع على الشرق العربى فجراً جديداً زاهر الأشعة واللألاء. وكان قوام ذلك الأدب الجديد الغوص فى أعماق النفس وتطويع اللفظ للفكرة المثمرة والعاطفة المتقدة، ثم شاء جبران أن يكون رسول الشرق إلى الغرب يحمل إليه كنوز الحكمة الشرقية وذخائر الفكر العربى فكتب باللغة الإنجليزية عدة كتب منها «المجنون» و«السابق» و«النبى» و«رمل وزيد» و«آلهة الأرض» فغزا نفوس أهل الغرب وحملهم على أن يتطلعوا إلى الشرق ويكبروا شأن عباقرته. وكثيراً ما زين

جبران كتبه برسومه فاجتمع فيها قلم الأديب وريشة المصور.

وفى ليل اليوم العاشر من شهر أبريل سنة ١٩٣١ استرد الله وديعته فى مستشفى القديس منصور بنيويورك وسكنت حركة النسر بعد طول التدويم والتحليق، وعادوا به بعد أشهر قلائل إلى لبنان الذى طالما حن إليه فاستقبلت بيروت جثمانه استقبالاً ما عرفه الغزاة الفاتحون

واحتفل القوم بعودة النسر احتفالاً امتزجت فيه عبرات الحزن ودموع الفخر، فمن يزر تلك البقعة اليوم يهده أهلها إلى متحف جبران وقد زخر بآثاره الفنية والأدوات التى كان يستعملها فى الكتابة والتصوير إلى المنضدة التى كان يجلس إليها والمقعد الذى يقيل فيه، ثم يسيرون به إلى ضريح جبران فى خشوع ووقار. ولقد حملهم الزهو والخيلاء إلى أن يكتبوا على الضريح يوم أقاموه: «هنا يرقد نبينا جبران» فعدلوا بعد ذلك عن الغلو فى الفخر إلى الغلو فى المحبة ونقشوا على الضريح: «هنا يرقد بيننا جبران ١٩٣١».



جرجى زيدان

١٨٦١ ـ ١٩١٤م

صاحب الهلال

يذهب الرجال العظام.. وتبقى أعمالهم حية ماثلة أمام الأعين، تجدد ذكراهم، وتحكى مآثرهم وجهودهم، وتروى للأجيال قصص كفاحهم ونضالهم.. وتقدم القدوة والمثل، وترسم للشباب والأجيال طريق العمل الخلاق، من أجل إثراء الحياة وتقدمها.

ومن الصروح الشاهقة الباقية، والتى لعبت دوراً كبيراً فى مسيرة الحياة فى مصر، وشاركت مشاركة إيجابية فى الأحداث الهامة التى جرت على أرضها، المؤسسة الصحفية الشامخة، التى تحمل اسم «دار الهلال» والتى تحكى قصة من أروع قصص العمل الخلاق والمثمر من أجل خدمة قضايا الشعب المصرى، والشعوب العربية من المحيط إلى الخليج.

تحكى سيرة حافلة بالمواقف الرائعة والبذل السخى من أجل المبدأ والعقيدة، تمثل درساً بليغاً للشباب، وعبرة عميقة الدلالة لكل من ينشد النجاح فى الحياة العامة والخاصة على السواء.. إنها سيرة العاصمى الفذ، والعالم والأديب «جرجى زيدان» مؤسس «دار الهلال» وأحد الرواد العظام الذين شيدوا صرح الصحافة المصرية، وخدموا الأمة العربية أجل الخدمات.

* * *

وإذا ذكر العصاميون الذين بنوا أنفسهم، وشادوا للإنسانية صروحاً عالية فى مختلف الميادين بأعمالهم المجيدة، وجهودهم الممتازة، فإن جرجى زيدان فى المقدمة بين هؤلاء العصاميين الأفذاذ، فقد بلغ بالعصامية أرفع مكان فى ميادين العلوم والآداب والثقافة الحرة. وكانت حياته أبلغ درس للشباب المكافح، وأعظم عبرة للذين يقفون يائسين على الشاطئ، لا تحركهم همة، ولا تبعثهم إرادة على اجتياز الأمواج ليصلوا إلى ما يريدون من رقى ونجاح.

لم يقف جرجى زيدان على شاطئ الحياة المدلهمة وهو فتى صغير يائساً من النور، لأن والده أمى لا يعرف فضل العلم، أو لأنه فقير لا يملك نفقات التعليم، أو لأن ظروف العيش مزدحمة بالمتاعب، بل نظر بعقل الصبى النابغ، فوجد أن الرغبة الصادقة تحطم أقوى العقبات، وأن الإرادة النافذة تحقق المستحيلات، وأنه كما قال ابن الوردى:

لا تقل أصلى وفصلى أبداً　　　إنما أصل الفتى ما قد حصل

نعم، لم يقل جرجى زيدان أصلى وفصلى حتى ييأس من النجاح، بل اندفع إلى تحصيل العلوم والآداب، وشق طريقه بنفسه إلى المجد والرفعة، واتخذ من فضل العلم خير أصل، ومن جمال الأدب أحسن نسب!

حتى قال عنهما جرجى زيدان فى مذكراته الخاصة:

«نشأت فى صباى وأنا أرى والدى يخرج إلى دكانه فى الفجر، ولا يعود إلا فى نحو منتصف الليل أو قبيله، وأرى والدتى لا تهدأ لحظة من الصباح إلى المساء. لا تعرف الزيارات، و لا تغشى الاحتفالات ولا المجتمعات حتى الدينية، فإنها لم تكن تذهب للصلاة بالكنيسة إلا نادراً، وإنما همها تدبير بيتها، وتربية أولادها.. وقد شبت على ذلك والفته، فغرس فى ذهنى، أن الإنسان خلق ليشتغل وأن الجلوس بلا عمل عيب كبير».

فى هذه البيئة النشيطة ـ بيئة العمل المتواصل والجد والعصامية ـ نشأ جرجى زيدان... ولقد كان والده أمياً، ولكنه شعر بالحاجة إلى الكتابة والقراءة ليدون

حساب مطعمه، فاستخدم كتاباً لذلك. ودعته هذه الحاجة إلى أن يرسل ابنه جرجى وهو فى الخامسة من عمره إلى مدرسة. وكانت فى قبو وضيع، ثم نقله والده إلى مدرسة تدعى مدرسة الشوام، فتلقى فيها مبادئ الحساب والنحو والصرف والخط واللغة الفرنسية.

أصبح فى الحادية عشرة، وذاق لذة العلم والتعليم وتفتحت نفسه بالأمل إلى المستقبل، غير أن والده ما لبث أن دعاه إلى مساعدته بالمطعم ليقيد أسماء الزبائن وحساباتهم.

فأطاع والده، وهو يعلل النفس بالرجوع إلى المدرسة، ولكن هذه الأيام السبعة امتدت إلى سبعة أعوام حتى خشيت والدته على مستقبله.

وقرر والده أن يتعلم صناعة الأحذية الأفرنجية حيث كانت هذه الصناعة وقتئذٍ حديثة العهد فى بيروت، وحجتهم فى اختيارها له وهو فى الثانية عشرة من عمره أن البعض مارسوها فأثروا منها وصار لهم أموال وأملاك، وقد مكث فى هذه الصناعة سنتين تعلم فيهما أكثرها ... ولكنه ما لبث بعد ذلك أن تركها لأنها لم توافق صحته وأصابه ضعف فى معدته من الجلوس الطويل على الكرسى للعمل، وخاف والديه عليه، فقررا إعادته إلى المطعم مؤقتاً ريثما يفكران فى صناعة أخرى تلائمه!

واتفق ذات يوم أن زار المطعم المعلم مسعود الطويل ـ أحد المعلمين فى بيروت ـ فذكر أنه فتح مدرسة يعلم فيها الشبان اللغة الإنجليزية ساعة قبل الغروب، فرغب جرجى زيدان فى تعلم هذه اللغة لقاء ما يتناوله المعلم مسعود من طعامه فى المطعم، وكانت سنه لا تزيد على خمسة عشر عاماً، فصار يتردد عليه فى بيته مع ١٤ تلميذاً، ومكث هناك خمسة أشهر، قال له المعلم مسعود فى نهايتها أنه تعلم الإنجليزية جيداً، فجرب قوته فى مطالعة الكتب «رحلة كوك فى جزائر المحيط» فرأى نفسه أقل كثيراً مما كان يظن، فأخذ فى الدرس لنفسه حتى كان لا ينام الليل فى كثير من الأيام.

ولما شعر بأنه على نصيب وافر من هذه اللغة لمعت فى نفسه ملكة التأليف التى

ظهرت فيما بعد قوية عارمة، فأخذ فى وضع قاموس إنجليزى عربى فى ذلك الحين. وقد وصل فى تأليف هذا القاموس، إلى حرف (E) ولم يكن قد ظهر مثل هذا القاموس، ثم مل هذا العمل لقلة وسائله... على أن ذلك لم يثن عزمه عن العناية بتقوية نفسه فى اللغتين العربية والإنجليزية، فأخذ يطالع فيهما كتب اللغة والأدب.

وقد دفعه غرامه بالعلم والتعليم إلى مطالعة كتب الطبيعة والجغرافيا واستعان ببعض المتعلمين ممن يترددون على مطعم والده.

وقد كان به جنوح غريزى إلى العلم والأدب، وكانت والدته كلما رأت منه ذلك ساعدته عليه.

تعلم مسك الدفاتر على معلم معروف فى بيروت حتى أتقن هذا الفن فى نحو شهرين، ثم وظف فى أحد مخازن القماش، ولكنه لم يرتح إلى هذه الوظيفة التى لم يلبث فيها غير نصف نهار عاد فى مسائه إلى مطعم أبيه. وكان هذا المطعم قد أصبح مقصداً ومراداً للطبقة المتعلمة فى بيروت، وكان يزوره بين حين وآخر بعض العلماء والأدباء والصحفيين كالشيخ إبراهيم اليازجى والمعلم البستانى، فكان يجتمع بهم ويستفيد منهم، وكان يميل إلى مباحثة الطلبة الذين يترددون عليه وخاصة طلبة الطب فى «المدرسة الكلية» التى أصبحت فيما بعد الجامعة الأمريكية ببيروت، وكانوا يرون فيه استعداداً عجيباً، وقد يدخل معهم فى بحث علمى، فيسمعون منه أقوالاً لا يعهدونها فى أمثاله، فأحبوا صحبته، وأخذوا يدعونه إلى الاحتفالات التى تجرى فى المدرسة على أثر الامتحانات، فيسمع الخطب، ويشاهد التلاميذ الناجحين، فيتقد قلبه غيرة وحمية، ويود لو أتيح له يوماً أن يكون بين هؤلاء الناجحين. كان كلما حضر احتفالاً فكر فى نفسه، وما يعترضه من العقبات فى سبيل تحقيق أمنيته.

كان جرجى زيدان يتعشق التعليم ويغرم بالعلم ويلح فى طلبه حتى ثاب إليه ما منع عنه وأسلس قياده. وقد ضاعف همته، وأثار بواعث نشاطه ما قرأه من سير

الرجال الذين نالوا المجد والعظمة بجدهم واجتهادهم، واعتمادهم على أنفسهم، وفيهم من كان حلاقاً، أو حداداً، أو نجاراً، أو عاملاً من العمال، وقد أتيح له وقتئذ أن يقرأ كتاب «سر النجاح» الذى نقله إلى العربية الدكتور يعقوب صروف، فاطمأنت نفسه، وشعر بحافز قوى إلى المضى فى عزمه على تعلم الطب.

وكان قد انتظم فى عضوية «جمعية شمس البر» ببيروت. وهى جمعية أدبية أكثر أعضائها من تلاميذ المدرسة الكلية ببيروت، فأفضى بعزمه إلى بعض أصدقائه، فدهشوا لأن طالب الطب ينبغى أن يمتحن عند دخوله هذه المدرسة فى الهندسة والحساب والجبر وعلوم الطبيعة، هذا عدا الامتحان فى اللغتين الإنجليزية والعربية - ولم يكن أمامه إلا عطلة الصيف، وهى نحو أربعة أشهر.. وقد حق لأصدقائه أن يدهشوا لو أن جرجى زيدان كان طالباً عادياً، ولم تكن الأقدار قد زودته بهمة عالية ونبوغ فائق. ولهذا لم تثنه هذه الدهشة أو هذا التثبيط عن تحقيق أمنيته، فأقبل على هذه العلوم يدرسها ويذاكرها ليل نهار، وتقدم لامتحان القبول بمدرسة الطب وكانت دهشة أصدقائه لنجاحه أشبه باعترافهم بنبوغه. وكانت وثبة من «سوق الطويلة» ببيروت إلى ساحة «المدرسة الكلية الأمريكية» جعلته يشعر بمواهبه وأنه لا يقل عن لابسى البنطلونات مقدرة وذكاء...!

وبعد أن حصل على شهادة الصيدلة فى العلوم من اللجنة الطبية الحرة اعتزم أن يتم دراسة الطب البشرى فى مدرسة قصر العينى بمصر، ولم يكن عنده ما يتزود به من النفقة فى الأيام الأولى من الرحلة إلى البلاد المصرية، ولقد غامر بمستقبله فى سبيل الحرية الفكرية التى ثار لها هو وزملاؤه فى المدرسة الكلية، وكانت أول ثورة وإضراب للطلبة فى الشرق، إذ كان يتعلم الطب ليعيش، وكان يتزود من التعليم ليحقق آماله فى العلم، فلما خرج من هذه المدرسة شعر كأنما انقطع حبل آماله، وأن جهاده ذهب سدى، لكن ما لبثت عزيمته أن استردت قوتها، وما عتمت إرادته أن تغلبت على ضعف نفسه، وكان له جار ببيروت يعلم حاله وما آل إليه، فأقرضه ستة جنيهات ضمها إلى ما كان معه من قليل النفقة، وسافر إلى مصر.

وكان سنه حينما هاجر إلى البلاد المصرية، لا تزيد عن اثنتين وعشرين سنة،

وكان ذلك عقب الثورة العرابية، فشاهد هذه المدينة فى حال يرثى لها على أثر الحريق وحوادث التدمير التى حلت بها من العدوان البريطانى. وكان لذلك أثره فيما بعد حين دون حوادث هذه الثورة فى كتابه «تاريخ مصر الحديث».

ثم شخص إلى القاهرة، وتقدم لمدرسة الطب، غير أن طول المدة لنيل شهادتها، حول عزمه عن صناعة الطب إلى صناعة القلم، فتولى تحرير «جريدة الزمان»، وكانت حينئذٍ الجريدة اليومية الوحيدة بالقاهرة، وقد مكث فى تحرير هذه الجريدة عاماً أو يزيد، ثم استقال منها ليعمل فى الحملة النيلية إلى السودان.

ثم سافر إلى السودان مترجماً فى الحملة النيلية لإنقاذ غوردون (باشا) فقضى فيه عشرة أشهر شهد فى أثنائها أعظم الوقائع الحربية. وقد قاسى فى هذه الرحلة ألواناً من المشقات، ولكنها كانت فرصة له لاستطلاع أحوال هذا القطر، ولما عاد إلى مصر نال ثلاثة أوسمة مكافأة له على جهوده.. غير أنه لم يستقر فى مصر بعد عودته من الحملة، بل سافر إلى بيروت عام ١٨٨٥، فانتدبه المجمع العلمى الشرقى ليكون عضواً عاملاً فيه فمكث فى بيروت عشرة أشهر يطالع اللغات الشرقية، فدرس العبرانية والسريانية. ووضع على أثر ذلك أول كتاب له، بل أول كتاب من نوعه فى الشرق، وهو كتاب «الفلسفة اللغوية والألفاظ العربية» ولم تكن سنه قد تجاوزت الخامسة والعشرين..!

كانت مجلة «المقتطف» فى ذلك الحين هى أرقى المجلات العلمية وأشهرها فى الشرق العربى، وكانت تجتذب أقلام العلماء والأدباء، وقد راسلها جرجى زيدان ببعض مقالاته الأدبية وبحوثه العلمية، فقدرت جهوده فى صناعة الفكر والقلم. وكان قد سافر فى صيف عام ١٨٨٦ إلى عاصمة الإنجليز، وتردد على أندية العلم فيها وزار المتحف البريطانى ثم عاد فى الشتاء إلى مصر، فاختير مديراً عاماً لإدارة مجلة «المقتطف» فقبل، ومكث فى هذه الوظيفة حتى عام ١٨٨٨ وكان يقوم بجميع شئونها الإدارية ويساهم فى التحرير ببحوثه القيمة.

تأسيسه للهلال

أغرم جرجى زيدان بتحصيل العلوم والآداب، فدرس كثيراً، وقرأ طويلاً، وكان جهده هو أستاذه الأكبر، واعتماده على نفسه هو رائده الأعظم. وكما وهب نبوغاً فى دراسة العلم والتاريخ وتحصيل الأدب، وهب ملكة ممتازة، ونبوغاً فائقاً فى البحث والتأليف، وصبراً عجيباً على مشاقهما... وقد عرف فى التاريخ نوابغ كانوا نادرة الزمان فى ذكائهم وعلمهم، ولكنهم لم يخلفوا وراءهم آثاراً، أو لم يخلفوا كثيراً من الآثار النافعة تتناسب وما اشتهروا به من نبوغ وعبقرية.

ولكن جرجى زيدان النابغة بعد أن درس واطلع وأصبح على حظ وافر من العلم أراد أن يكون نافعاً للناس وللغة العربية وللعرب والإسلام بوجه خاص، وكان من هؤلاء النوابغ القلائل فى تاريخ الشرق، بل فى تاريخ العالم الذين أضافوا إلى تراث العقل الإنسانى ثروة جديدة.

ولما كانت الطباعة أهم ما يعتمد عليه فى أداء رسالته، فقد عنى بأن تكون له مطبعة، وأخذ يستعد لتأسيس مجلة يحقق بها هذه الرسالة إلى جانب ما يضعه من مؤلفات.

وفى أول سبتمبر عام ١٨٩٢ أصدر العدد الأول من هذه المجلة - الهلال -، وقد صدره بمقدمة قال فيها:

«لابد للمرء فيما يشرع فيه من فاتحة يستهل بها، وخطة يسير عليها، وغاية يرمى إليها، أما فاتحتنا فحمدا لله على ما أسبغ من نعمه، وأفاض من كرمه. والتوسل إليه أن يلهمنا الصواب وفصل الخطاب. وأما خطتنا فالإخلاص فى غايتنا، والصدق فى لهجتنا، والاجتهاد فى وفاء حق خدمتنا، ولا غنى لنا فى ذلك عن معاضدة أصحاب الأقلام من كتبة هذا العصر فى كل صقع ومصر».

وقد وضع بعد تأسيس الهلال روايات تاريخ الإسلام، وكتاب التمدن الإسلامى فى خمسة أجزاء، وكتاب العرب قبل الإسلام، وعلم الفراسة الحديث، ومشاهير الشرق فى جزءين، وتاريخ آداب اللغة العربية فى أربعة أجزاء، وأنساب العرب القدماء، وطبقات الأمم، وعجائب الخلق والجزء الأول من تاريخ إنجلترا.

والذى يطلع على آثار هذا العصامى النابغة من بحوث ومؤلفات يدهش كيف استطاع أن يقوم بها مع أعماله فى الهلال خلال اثنين وعشرين عاماً فقط، ولكنه النبوغ الذى لا يقف عند حد ولا يعرف للزمن حساباً، والجهود المضنية، والنفس العظيمة التى يتعب الجسم فى تحقيق مرادها حتى يذوب ويفنى. ولقد ذابت روح زيدان وفنى جسمه قبل الأوان، وهو لم يتجاوز من عمره الثالثة والخمسين.

لم يعرف جرجى زيدان التعب طوال حياته، وقد انتفع ونفع بكل ساعة من وقته، فكانت حياته على رغم قصرها مباركة، وكانت جهوده على رغم صعوباته مثمرة. ولقد جاءه يوماً مستشرق يزوره، فلما رآه سأله مستغرباً: «أأنت جرجى زيدان؟» فأجابه: «نعم» فقال المستشرق: «كنت أنتظر أن أرى شيخاً ذا لحية بيضاء، لأن من يطلع على مؤلفاتك لا يقدر عمرك بأقل من ثمانين سنة»!

هذا هو العصامى جرجى زيدان الذى سجل تاريخ الشرق اسمه بين العلماء الخالدين والعصاميين البارزين، والذى صح فيه قول القائل:

إن الفتى من يقول هأنذا   ليس الفتى من يقول كان أبى

جلال الدين الرومى

١٢٠٧ ـ ١٢٧٣م

أكبر شعراء الصوفية

وإن كان عمر الخيام هو زعيم فن الرباعيات الصوفية فإن ثنائيات جلال الدين الرومى تتبوأ أوج النضج، وتضع صاحبها على رأس الشعراء الصوفيين.

هذه الثنائيات آيات فى جودة العبارة، ولطافة المعنى، ورقة الفكرة وصفائها ونضج الذهن الصوفى. ولقد أولتها الدوائر الأدبية فى عالم الغرب اهتماماً شديداً ونقلتها إلى كثير من اللغات.

وتأثير فلسفة جلال الدين الرومى فى أفكار الكثيرين من أتباعه ومريديه ومقلديه، لا حد لها.

ولقد أثرت هذه الفلسفة فى رجل من فحول عصرنا هو محمد إقبال وحسبه النقاد منتهجاً أثر فلاسفة الغرب، ولكنه قال عن نفسه بكل فخر:

ـ «كلا بل أنا أثر من جلال الدين الرومى» وحسب جلال الدين فخراً أن يخرج للعالم فى كل جيل مثل شاعر باكستان العظيم.

هو محمد جلال الدين ابن سلطان العلماء محمد بهاء الدين ولد بن حسين بلخى بن أحمد بن محمود بن مودود بن ثابت بن سيب بن مطهر بن حماد بن عبد الرحمن بن أبى بكر الصديق رضي الله عنه.

ولد جلال الدين فى مدينة بلخ، وهو سليل أسرة شريفة عريقة فى الحسب والنسب ترتبط بوشائج المصاهرة مع سلاطين خوارزم، فقد كان جده حسين بلخى زوجاً لملكة جهان بنت علاء الدين تكش خوارزم شاه.

وكان ثمرة هذا الزواج أبوه محمد بهاء الدين ولم يلبث حسين بلخى أن مات قبل أن يتم بهاء الدين العام الثانى من عمره فلما كبر أظهر نبوغاً فى العلوم وتفوقاً فى الدين وتفرغ للتعليم والوعظ ووفد على حلقته طلاب العلم والدين من مشارق البلاد ومغاربها ينهلون من بحر علمه ويقبسون من فيض حكمته ويتريضون فى رياض صوفيته..

حتى دانت له الشهرة وذاع صيته فيما وراء بلاد فارس والأناضول وصار يلقب بسلطان العلماء وأتم الله نعمته فتزوج وأنجب جلال الدين الذى يعتبر مولده حدثاً مباركاً فى تاريخ الصوفية والشعر الصوفى الفلسفى.

ووقع جفاء بين سلطان العلماء بهاء الدين وبين خاله، محمد قطب الدين خوارزم شاه، سلطان خوارزم، فقد دبت الغيرة فى قلب السلطان واشتعل صدره حسداً للمنزلة الرفيعة التى يتبوؤها «سلطان العلماء».

فقام لفوره وأمر بإعداد العدة للسفر ولم يثنه عن عزمه ندم السلطان ولا حزن طلبته ومريديه ورحل عن بلخ وفى صحبته زهاء ثلثمائة من أوفى تلاميذه وأخلص مريديه.

وكان جلال الدين فى ذلك الوقت فى الرابعة من عمره.

ويممت القافلة شطر بغداد، وعند نيسابور خرج جماعة من العلماء لتوديع سلطانهم بهاء الدين وكان على رأس القافلة الشاعر الصوفى الكبير فريد الدين العطار الذى ما أن وقع بصره على الطفل جلال الدين حتى ربت على رأسه ودعا له وأهداه ديوانه الخالد «الأهى نامه»:

- ديوان الأسرار وبشر سلطان العلماء بمستقبل باهر لابنه.

وقضى بهاء الدين زمناً فى بغداد يعظ ويعلم والتف حوله الطلبة والمريدون من الظامئين إلى منهله العذب الغزير وسرعان ما تبوأ مكانة مرموقة فى بلاد العراق واستعاد سابق مجده وشهرته.

وفى موسم الحج سار إلى الحجاز لأداء فريضة الحج، ثم عرج على دمشق وحلب وتعرف بعلمائها وشعرائها وقادة الحركة الفكرية فيها وكان يصحب جلال الدين فى جميع رحلاته وأسفاره.

وفى الواقع كانت تلك الرحلات بمثابة دراسات ثقافية عملية لجلال الدين عكست فى نفسه انطباعات فنية عميقة كان لها أبعد الأثر فيما بعد فى شعره وفلسفته.

وقام الأب والابن بعد ذلك برحلات أخرى فى أرمينية وبلاد الروم (الأناضول) وأقاما فى أذربيجان وملطية بأرمينية فترات متفاوتة.

ثم انتقلا بعد ذلك إلى لارندة (كرمان)، فأقاما فيها زهاء سبع سنوات الأب يعلم فى المدرسة والابن جلال الدين يتلقى علومه على أبيه فيها.

وفى عام (١٣٣٨م) تلقى سلطان العلماء دعوة من السلطان علاء الدين السلجوق لزيارة قونيه حاضرة ملكه.

فرحلا إليها واستقرا بها أخيراً بعد رحلات دامت زهاء ستة عشر عاماً وأقاما فى مدرسة «ألتونيا»، وظل بهاء الدين يعلم فيها إلى أن اختاره الله تعالى إلى جواره. سنة (١٢٣١م).

كان جلال الدين ذا مواهب فطرية نادرة وكانت ملازمته لأبيه فى أسفاره وحضوره مجالس العلماء وحلقات مشايخ الصوفية لها أكبر الأثر فى نسج خيوط شخصيته الصوفية وقد ظل يدرس علوم الدنيا والدين على يد أبيه إلى يوم وفاته ثم رحل بعد ذلك إلى دمشق وحلب لاستيفاء الدرس والتحصيل.

وفى بلاد الشام التقى بواحد من أفذاذ تلامذة أبيه وهو برهان الدين الترمذى الذى لقنه أسرار مذهب الطريقة الصوفية ثم عاد إلى قونية واستقر بها، وأخذ

يدرس التصوف على صلاح الدين زركوب وحسن حسان الدين جلبى.

وسار جلال الدين على نهج أبيه فى تدريس العلوم الدينية والوعظ وتولى التدريس فى أربع مدارس فى قونية، والتف حوله الطلاب من كل حدب وصوب لما لمسوه فيه من تبحر فى العلم وتفقه فى الدين، هذا إلى جانب دماثة خلقه وتواضعه الجم وسرعان ما ذاع صيته واشتهر واحتل منبر أبيه وتبوأ، بجدارة، مركزه فى قونية حاضرة بلاد الروم (الأناضول)..

ومن هنا اكتسب اسم شهرته «الرومى».

وفى عام (١٢٤٤م) حدثت نقطة تحول فى حياة جلال الدين العقلية والفكرية وكان هذا التحول نتيجة لالتقائه بشمس الدين تبريزى أحد مشهورى مشايخ الصوفية الأفذاذ فى عصره ومن المتفق عليه أن ركن الدين - وهو أحد أقطاب الصوفيين فى عصره - هو الذى أوفده إلى جلال الدين ليدخله فى مذهب طريقته الصوفية.

والتقى شمس الدين.. التقى الدرويش الصوفى بالعالم الدينى ولحظ الدرويش المحنك على وجه العالم فجعل منه صوفياً مولهاً، وكرس نفسه مرشداً له وقائداً روحياً.

وهكذا تحول جلال الدين من عالم يعلم العلوم الدينية ويعتلى منبر الوعظ إلى صوفى متفرغ للرياضة الصوفية وقرض الشعر الصوفى.

وفى الحقيقة أن ذلك اللقاء الذى تم بين شمس الدين تبريزى وجلال الدين الرومى لم يكن إلا إذكاء للنار التى تتأجج فى صدر جلال الدين وإثارة للشوق المبرح الذى يكمن حاراً فى حناياه.

وليس أدل على ذلك من شعره الذى كان ينظمه قبل ذلك اللقاء فقد كان يتجلى فيه بوضوح الاستعداد والرغبة والميل للتفرغ للصوفية.

وبين عشية وضحاها تمكن شمس الدين تبريزى من أن يتسلل بسهولة إلى قرارة نفس جلال الدين الذى تغلغلت محبته فى قلبه وأصبحا خلين لا يفترقان.

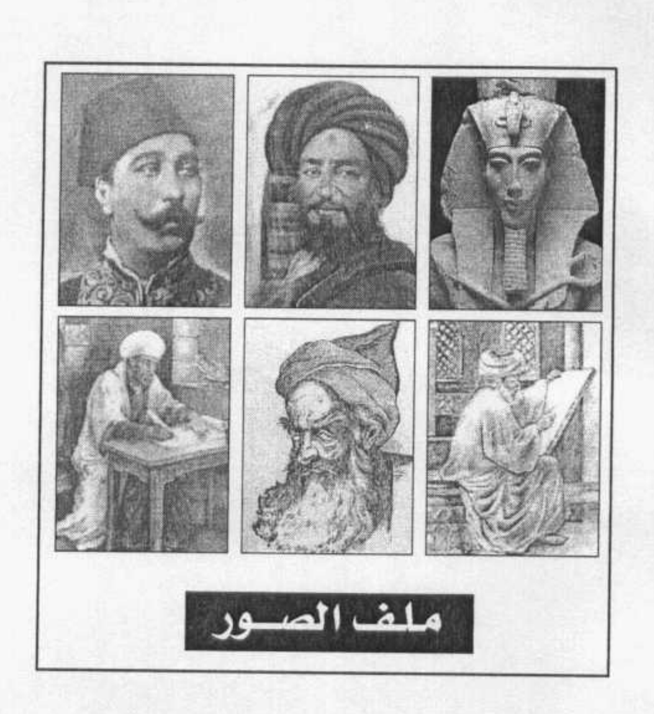
وبعد وفاة شمس الدين تبريزى لم يحد جلال الدين من انقطاعه للرياضة الصوفية.

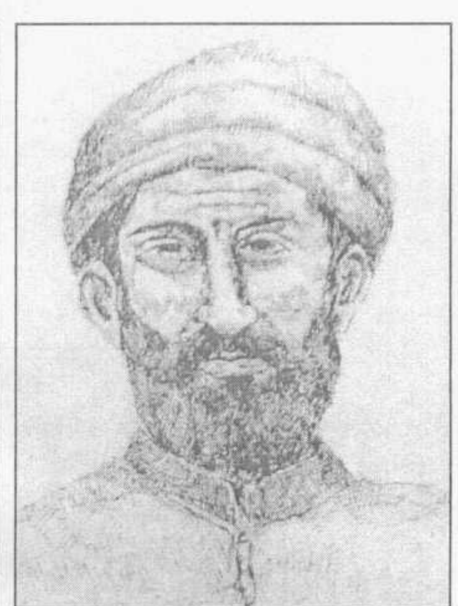
ولم يفتر جلال الدين يوماً من نظم الشعر الصوفى وإنشاده والتغنى به، كما أنه لم يكن يغفل لحظة عن ترديد اسم شمس الدين تبريزى كما كان يرمز إليه أحياناً بالمرشد أو الطبيب الإلهى وأحياناً يكنى به ويعرض أسراره الخفية فى سياق حديث الآخرين.

وفى الخامس من جمادى الأخرة عام ٦٧٢هـ (١٢٧٣م) انقطع وتر الرباب، وكف البلبل عن الترنيم وصوغ الألحان.



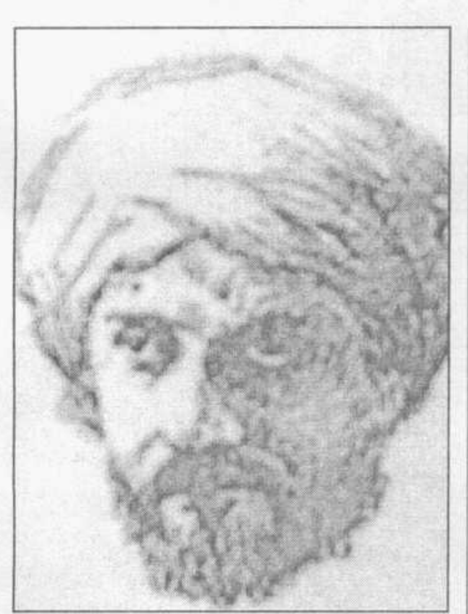
فهرس المحتويات

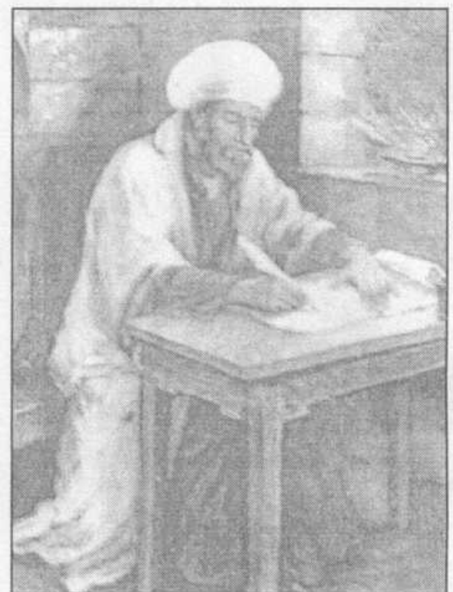

ملف الصور


ابن الأثير

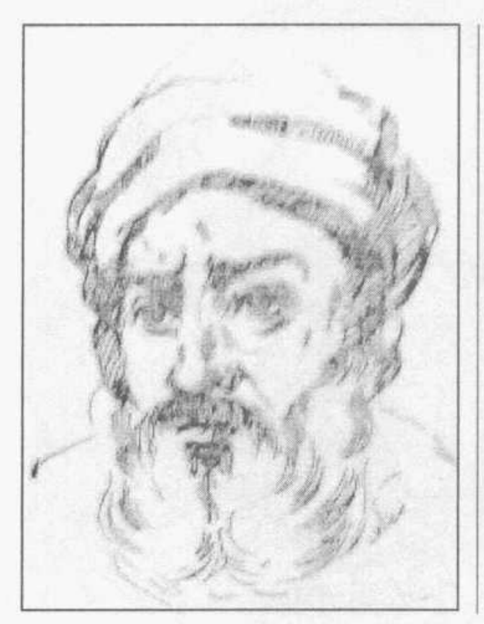

ابن بطوطة


ابن جبير

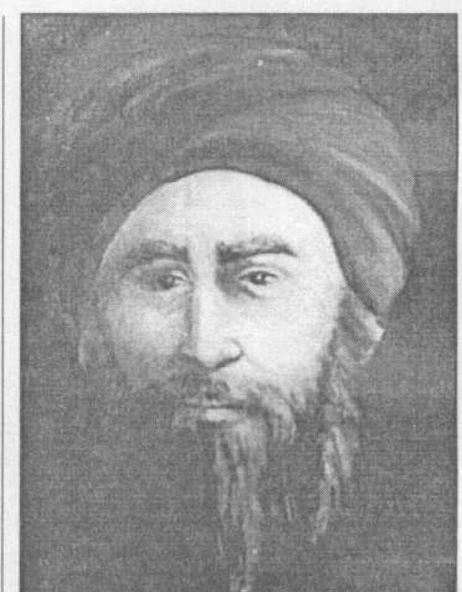

ابن حزم



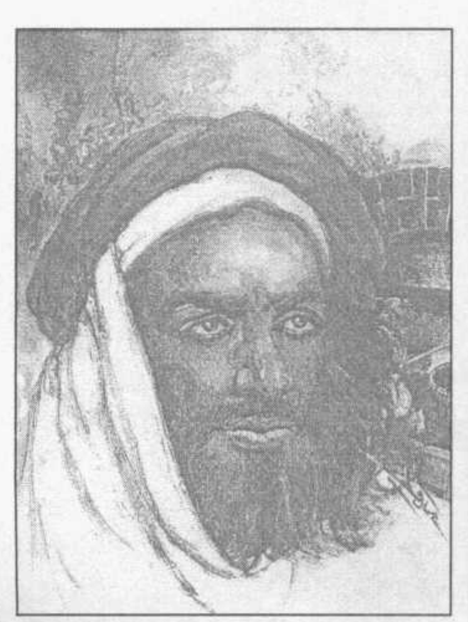
ابن خلدون



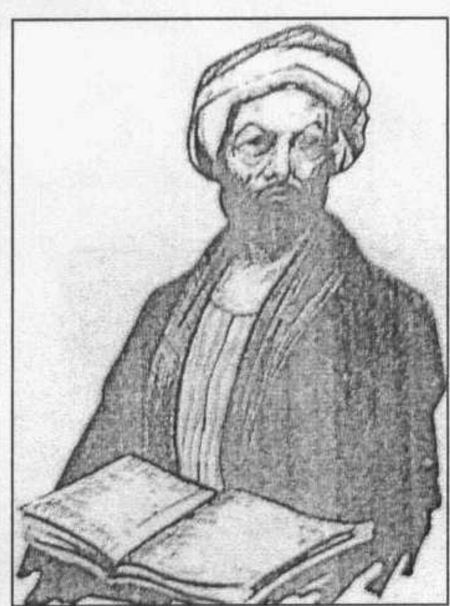
ابن داود الظاهرى



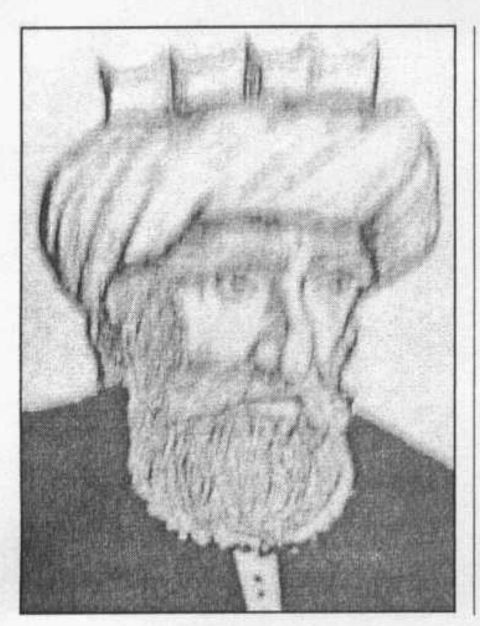
ابن رشد

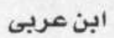


ابن سيناء



ابن طفيل

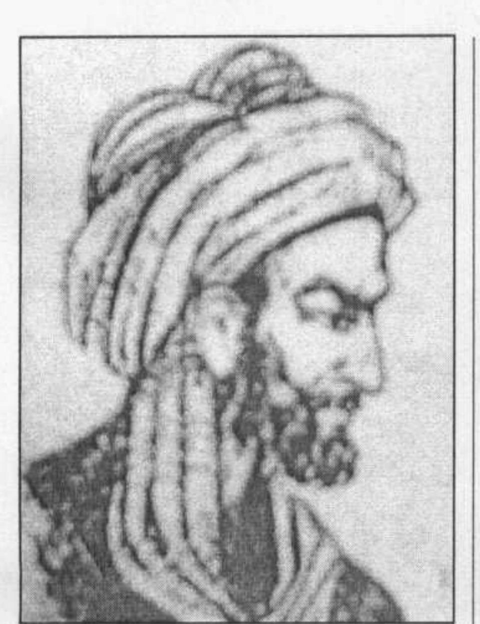




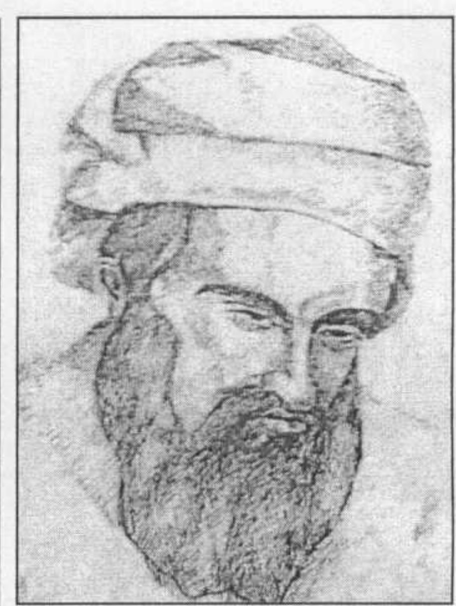
ابن عربى



ابن قتيبة الدِّيْنَوَرِى

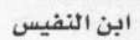


ابن مسكويه

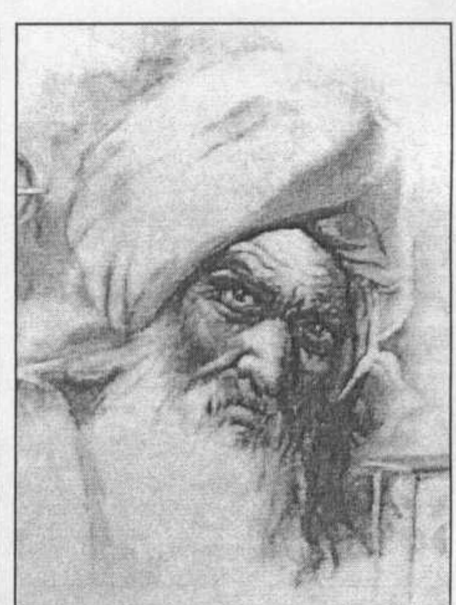


ابن المقفع

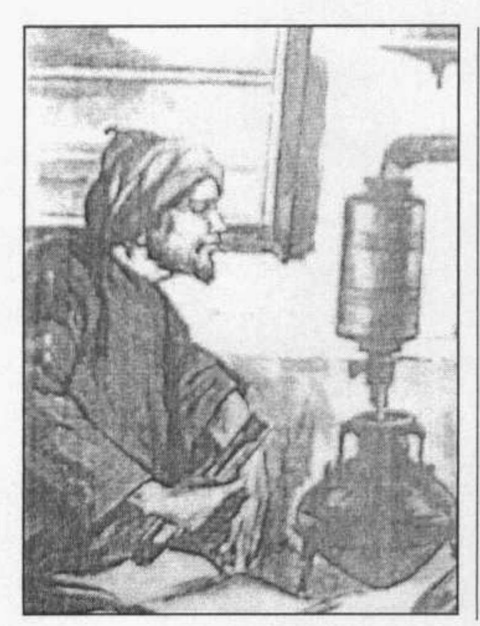




ابن النفيس



ابن الهيثم



أبو بكر الرازى



أبو حيان التوحيدى



أبو العلاء المعرى



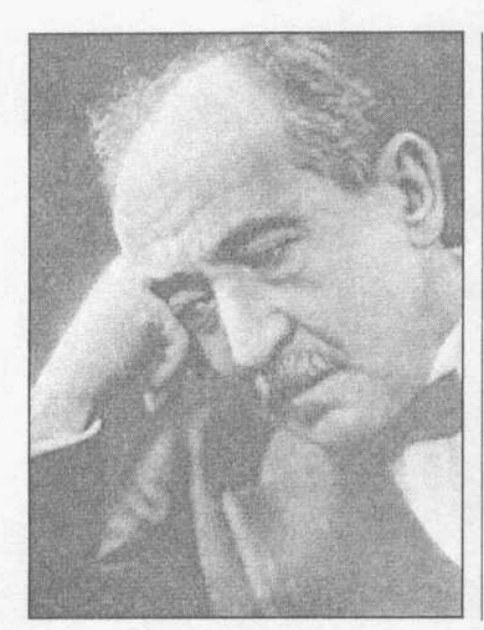
أبو فراس الحمدانى

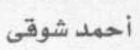


أبو نواس

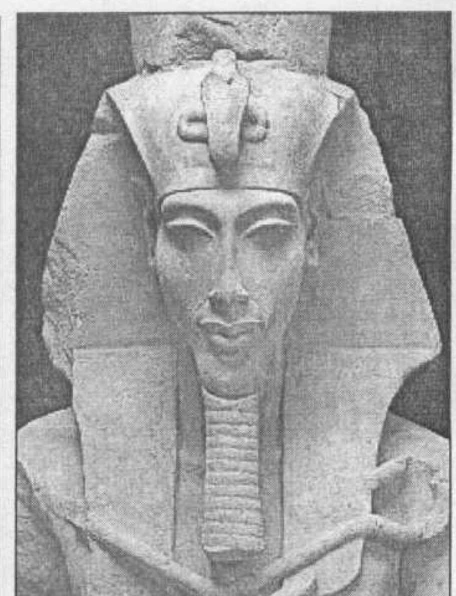


أحمد أمين

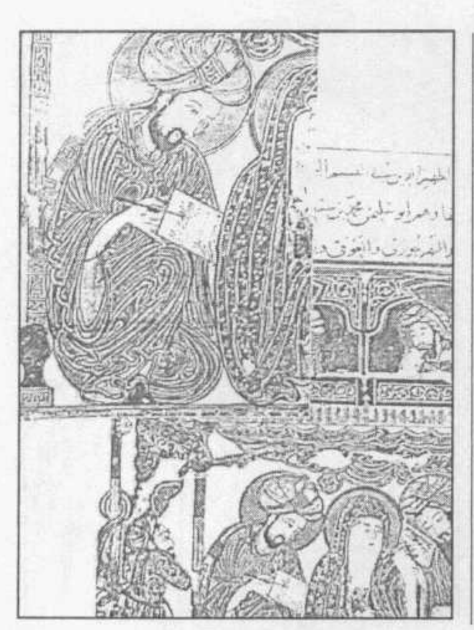




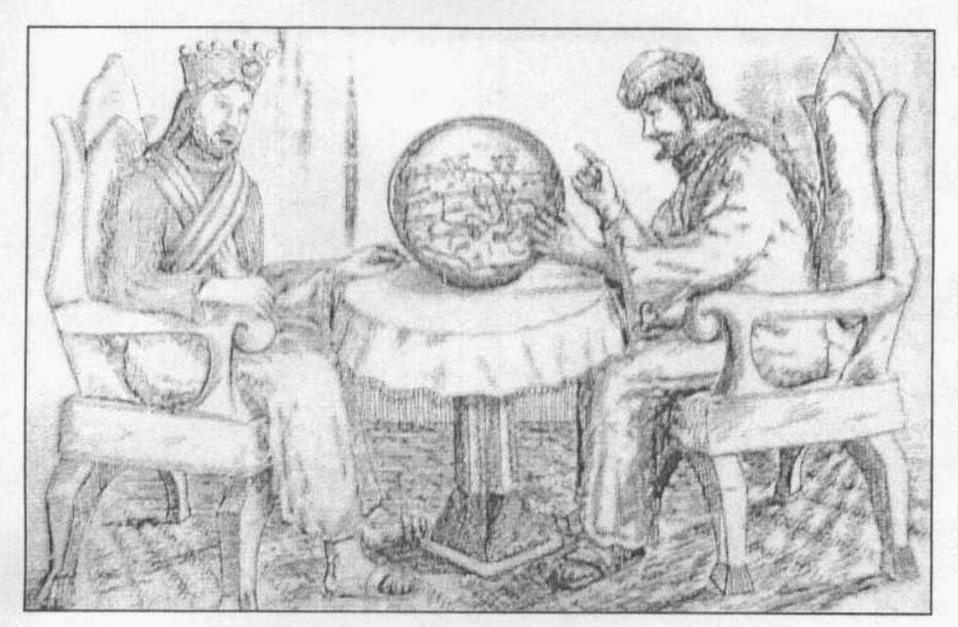
أحمد شوقى



أخناتون



إخوان الصفا



الشريف الأدريسى

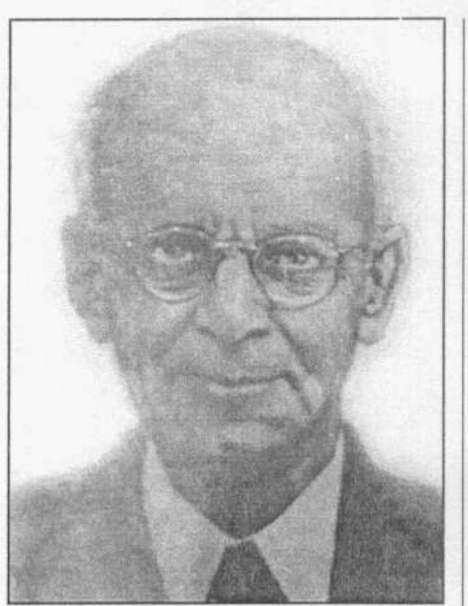


الأصبهانى



الأصمعى


جمال الدين الأفغانى

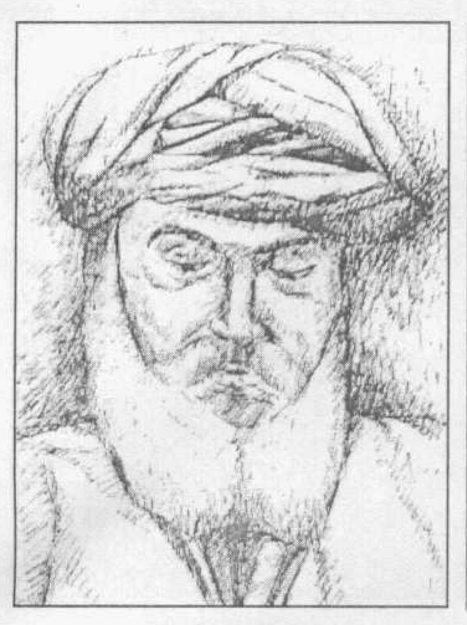

إيليا أبو ماضى


محمود سامى البارودى

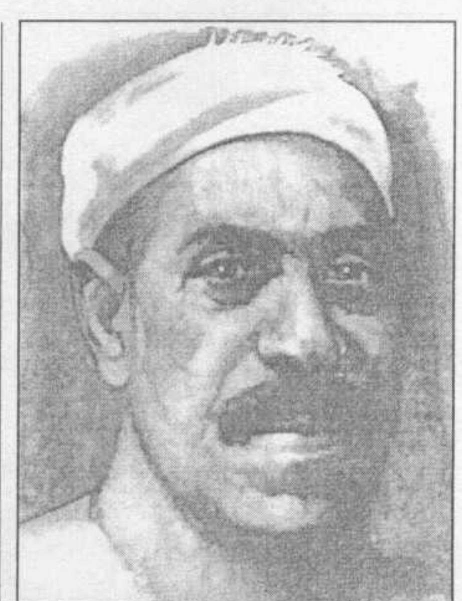

البحترى



البخاري



يشار بن برد



عبد العزيز البشري

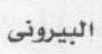


البهاء زهير

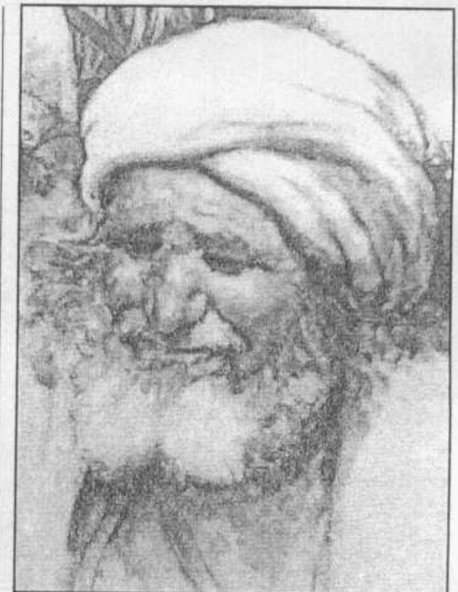


بيرم التونسى





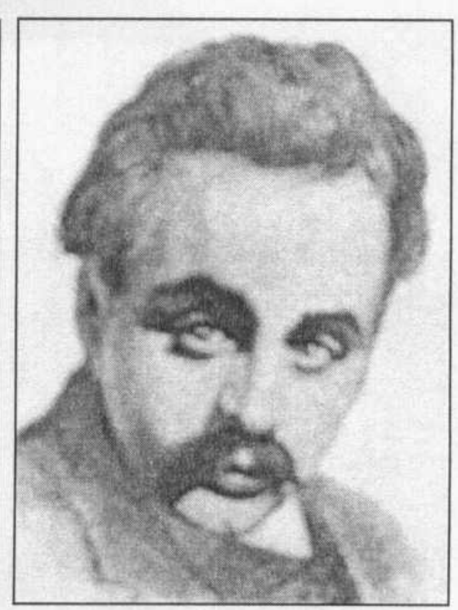
البيرونى



جابر بن حيان



الجاحظ



جبران خليل جبران



جرجى زيدان



جلال الدين الرومى




دار القبس
للطباعة وفصل الألوان
(+٢٠٢) ٣٦٤٠٨٣٥
(+٢٠٢) ٥٢٤٣٣١٤